من

قضايا الفكر الإسلامي الحديث

قراءة تحليلية نقدية

تأليف

أ.د. محمد السيد الجليند

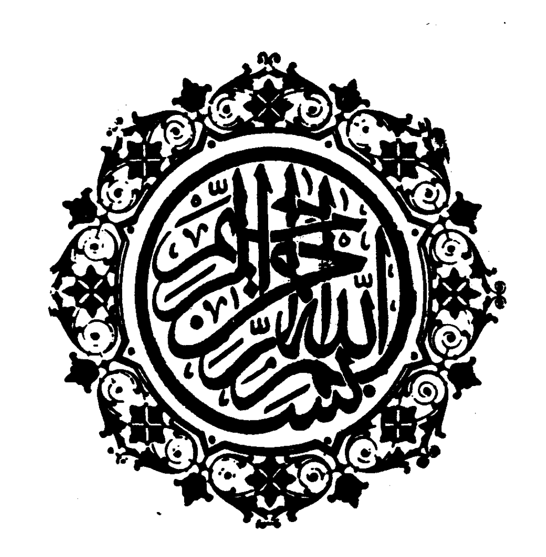
أستاذ الفلسفة الإسلامية

كلية دار العلوم- جامعة القاهرة

الناشر

دار الهانى للطباعة والنشر

١٤٢٧هـ -٢٠٠٦م



بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده و نستعينه و نعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، اللهم صلى وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد المعلمين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه وسلم. آمين.

هذه قراءة تاريخية موجزة عن المذاهب الفكرية المعاصرة وما أحاط بها من ملابسات وظروف ثقافية واجتماعية وسياسية كانت هي الأسباب والدوافع وراء ظهور هذه التيارات الفكرية، وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات والمفاهيم التي حملت في مفرداتها المضمون العقائدي و الحضاري لهذه التيارات، ثم وفدت إلينا هذه المصطلحات وهي محملة بهذه المضامين الغربية العقائدية التي مثلت الثورة و التمرد على كل ما هو ديني و تراثي لأسباب خاصة في بيئة خاصة ولظرف تاريخي خاص، وحاول البعض أن يقحم هذه المصطلحات بنفس المضامين على واقعنا الثقافي و العقائدي وإن يطبق على واقعنا الثقافي و العقائدي ماطبقته أوربا على واقعها في العصور الوسطى، وقد اخترنا أمثلة معينة من هذه التيارات لأن لها دعاة و أقلامًا تدافع عنها في عالمنا العربي تحت مسميات زائفة، مثل حرية الفكر، التقدمية، التنوير، وهي كلها أسماء تحمل في مضمونها ما هو حسن مقبول وما هو زائف مرفوض .ولقد صاحب نقل هذه المفاهيم إلى لغتنا العربية أمران على جانب كبير من الأهمية ساعدا على قبول هذه المفاهيم عند البعض دون أن يميز فيها بين ما هو حق فيقبله وما هو زائف فيرفضه .

١ـ الأمر الأول:- تسرب الروح الإنهزامية إلى نفوس قطاع كبير من المثقفين نتيجة الواقع المتردى الذى يعيشه الشرق، وتتابع الهزائم وتنوعها في كثير من المواقع التي تمثل المواجهة مع الأخر وذلك على أمتداد القرنين الأخيرين وربما قوى من الإحساس بهذه الروح الإنهزاميه المواجهات العسكرية مع الغرب عامة ومع اسرائيل ومن هم وراءها بصفة خاصة، وذلك التفاوت الشنيع بين الموقفين، الموقف العربي الذى يعتمد على الآخر في كل شيئ ولا ينتج لنفسه أى شئ ابتداء من رغيف الخبز وانتهاء بالمدفع.

أما الأمر الثاني:ـ وهو أكثر أهمية ذلك الارتباط الذهني الزائف بين تفوق الغرب علمياً

و موقفه من الدين والتدين في العصور الوسطى ، فلقد حاول البعض أن يربط بين الإثنين ربط الأسباب بالمسببات واستعمل كلمة الدين مكان الكنيسة وأشاع أن تخلص أوربا من الدين ومن سطوته كان سبباً في تقدمها و تفوقها علمياً وحضارياً ، وتبنى مجموعة من دعاة التنوير في عالمنا العربي هذه الأكذوبة وروجوا لها وسخروا للدعوة إليها كثيراً من وسائل الإعلام و التبس الأمر على الشباب وبات من الضروري تصحيح هذه المفاهيم وبيان ما فيها من لبس وتضليل. يجب الحذر منه، وما فيها من حق يجب تقبله و أن ننبه إليه.

والله من وراء القصد، وندعوه سبحانه أن يجعل علمنا هذا خالصا لوجهه الكريم.
وأن ينفع به المسلمين آمين،

المؤلف

١ - الاستشراق والتبشير



الاستشراق والمستشرقون

ماهو الاستشراق ؟:

أطلق لفظ الاستشراق على تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكري الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامي وحضارته وثقافة الشرق وعلومه.

كما أطلق لفظ مستشرق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع في أصل وضعه إلى مفكري الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب ، وقسموا الشرق إلى شرق أدنىً وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفي العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها في الماضي العالم الشرقي ، أو دول الشرق.

والذي يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط فقط أو المنطقة العربية بالذات، ذلك أن متابعة جهود المستشرقين خارج المنطقة العربية عمل فوق الطاقة الشخصية وليس ذلك داخلاً في خطتنا من هذه الدراسة ولا يمثل ذلك هدفاً لنا الآن، كما أن دراسات المستشرقين المتعلقة بشعوب العالم الإسلامي من غير العرب كالهند وباكستان وأندونيسيا ودول شرق وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، كانت في معظم أحوالها تسير على نفس المنهج وبنفس الطريقة التي كانوا يسلكونها في منطقة العالم العربي، وكان الهدف من محاولات المستشرقين وجهودهم في الدراسات التي قاموا بها في هذه المناطق كلها هو تطويق المد الإسلامي والعمل على انحساره ووقف نموه

المطرد بين أبناء هذه الشعوب المتباعدة وإن كانت أعمالهم تبدو في معظم أحوالها في ثوب علمي أو أكاديمي، فإن ذلك ينبغي ألا يحجب عن أعيننا نواياهم الخفية التي صرح بها معظمهم في المؤلفات والمؤتمرات العلمية التي كانت تعقد بين الحين والحين لهذا الغرض.

أ - النشأة والتاريخ:

علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية:

يربط كثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وذلك الفشل الذريع الذي منيت به أوربا في الحروب الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي، ذلك أن الحملات الصليبية لم تحقق للغرب طموحاته ولم تسعفه بالسيطرة على الشعوب العربية واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، ومن الجدير بالذكر أن الحملات الصليبية المتكررة على العالم الإسلامي قد رفعت الصليب شعاراً لهذه الحرب لتعلن للعالم الأوربي أنها حرب دينية مقدسة من ناحية أسبابها ودوافعها ، ومن ناحية غايتها وأهدافها، وما دامت هذه الحملات لم تحقق الهدف الذي قامت من أجله فلا بد من البحث عن بديل آخر ، ولابد من التفكير عن وسيلة أخرى - ربما كانت طويلة الأجل- تحقق لهم هدفهم من السيطرة على شعوب المنطقة وإخضاع العالم الإسلامي لنفوذهم الثقافي والحضاري ثم السياسي والاقتصادي وكان الاستشراق هو ذلك البديل المتاح في حينها، ليحقق أحلام الغرب وأهدافه.

وإذا كانت فكرة السيطرة على العالم الإسلامي تمثل الهدف والغاية، من نشأة الاستشراق فإن ذلك لا يمنع أن يتجاوز الاستشراق هذا الهدف في مسيرته التاريخية إلى أهداف أخرى علمية أو حضارية أو ثقافية ، لكن الذي أود أن ألفت النظر إليه أن الهدف الأسمى للاستشراق لم يغب عن ذهن

المستشرقين لحظة واحدة، بل كان هو المحور والأساس الذي دارت حوله معظم دراسات المستشرقين التي قاموا بها حول الشرق وعلومه ، وقد تختلف درجة وضوح هذا الهدف ووسيلة التعبير عنه من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل من المستشرقين ، إلا أن ذلك لم يكن سببه غياب الهدف عن ذهن هذا المستشرق أو ذاك ، وإنما كان سببه يرجع إلى حظ المستشرق نفسه من الثقافة العربية ودرجة اتقانه لها، وذكائه في أسلوب التعبير عن غايته وهدفه، تصريحاً أو تلميحاً.

ولقد تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامي والغرب بعد الحروب الصليبية فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمي المكانة الأولى في دراسة نفسية الشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل للمواجهة وكان ذلك بديلاً عن المواجهة بالسلاح والقوة العسكرية.

ولقد فرض هذا الأسلوب الجديد في المواجهة العكوف على دراسة أحوال الشرق ؛ لغته ودينه، حضارته وتاريخه ، فلسفته وعلومه ، عقيدته وأصولها ، وأن توضع المناهج الدراسة المناسبة لاستكشاف عوامل هذه القوة الصلبة التي تكسرت عليها تلك الحملات الصليبية المتكررة ، ومحاولة فهمها وتحليلها تحليلاً نفسياً لمواجهتها بأسلوب يختلف تماماً عن المواجهة العسكرية.

ولما كان القائمون على أمر الحروب الصليبية والمحركون لها هم رجال الكنيسة وسدنتها ، فإن ذلك جعل رجال الكنيسة في طليعة المهتمين بأمر الشرق ودراسة أحواله، ومن هنا فإن طليعة المستشرقين كانوا في معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي.

بداية الاستشراق وأسبابه:

١ - لا نستطيع الجزم بتحديد من هو أول شخص نبتت في ذهنه فكرة الاستشراق وغزو الشرق من الداخل، إلاأن معظم المحققين لهذه المسألة يكادون يجمعون على أن بداية هذه الحركة نشأت في نهاية القرن العاشر الميلادي وأوائل القرن الحادي عشر بفرنسا، وإن الراهب الفرنسي(جرير دي أولياك ٩٣٨- ١٠٠٣م) كان من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق ، وارتبطت باسمه بداية حركة الاستشراق ، حيث رحل من فرنسا إلى أسبانيا مهد الحضارة الإسلامية في وقته، فتعلم فيها اللغة العربية ووقف على علوم العرب في الرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة، كما قرأ بعض العلوم الدينية حتى قيل إنه كان أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وخاصة في الرياضيات والفلك، ثم ارتحل إلى روما حيث اشتهر من بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها، وانتخب حبراً أعظم باسم سلفستر الثاني(٩٩٩-١٠٠٣م) وكان بذلك أول بابا فرنسي، واستطاع من خلال منصبه الجديد أن ينشئ مدرستين لتدريس اللغة العربية وعلومها، وكانت الأولى في روما مقر البابوية، والثانية في وطنه الأصلي «دايمس»، ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثالثة تسمى مدرسة «شارتر» وقام هذا الراهب الفرنسي بترجمة بعض الكتب العربية في الرياضة والفلك، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأعداد العربية في أوربا التي كانت ينقصها رقم الصفر، ولم تكن تعرفه حتى نقله إليها (جرير دي أولياك) من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية.

٢ - ثم جاء بعده (قسطنطين الأفريقي١٠٨٧)،(بطرس المحترم ١٠٩٢-١١٥٦م) و(أرجو دي سانتلا ١١٠٧م) ثم (جيرارد كريمون ١١١٤-١١٨٧م) ثم تتابع رواد هذه الحركة وتكاثرت أعدادهم واختلفت جنسياتهم بحيث شملت معظم دول أوربا وأمريكا في العصر الحديث، وكان هؤلاء إذا

عادوا إلى بلادهم عملوا على نشر علوم العرب بين أبناء وطنهم إلى أن تطور الأمر بعد ذلك حيث أنشأت الحكومات الأوربية في جامعاتها أقساماً مستقلة لتدريس اللغة العربية وعلوم الشرق.

٣ - ثم أخذت بعد ذلك حركة الاستشراق تنمو في اطراد مستمر حتى سنة١٣١١- ١٣١٢م ، حيث عقد مؤتمر فينا الكنسي وكان من أهم قراراته إنشاء كرسي للغة العبرية والعربية في معظم جامعات أوربا، فتأسس كرسي اللغة العربية في روما على نفقة الفاتيكان، وفي باريس على نفقة ملك فرنسا، وفي إكسفورد على نفقة ملك انجلترا، ويعتبر كثير من المؤرخين لحركة الاستشراق أن هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنية بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفة خاصة.

ب - الدوافع والأهداف:

مما لا ريب فيه أن الحروب الصليبية قد تركت آثارها السيئة على نفسية الغرب ، لكنها في الوقت نفسه قد فتحت أعين الغرب على الشرق وما فيه من علوم ومعارف وحضارة ، ولقد واكب ذلك ما شهدته أوربا من حركة الإصلاح الديني)وموقف الكنيسة من العلم والعلماء، ولقد فرضت هذه الظروف الجديدة على الكنيسة أن تعيد ترتيب أوراقها ، وأن تعيد النظر في المفاهيم الدينية التي تتعامل بها مع العلماء، بحيث تعيد تأويل هذه المفاهيم بما لايتعارض مع العلم، وترتب على هذه النزعة الإصلاحية أن أحس الغرب بحاجته إلى التعرف على المزيد من علوم الشرق وثقافته، ومن هذه المواقف وغيرها كانت الدوافع والأهداف وراء حركة الاستشراق ، ونستطيع أن نوجز أهم هذه الدوافع فيما يلي:

١ - أسباب دينية:

لا يمكن إرجاع ظاهرة الاستشراق إلى عامل واحد فقط وذلك نظراً لاتساع نشاطه وتعدد أهدافه، ولكن الذي لا أشك فيه هو سيطرة السبب الديني على سائر أسبابه الأخرى، وفي هذه الدراسة الموجزة من النصوص ما يدل بيقين على صدق ما نقول من سيطرة السبب الديني وهيمنته على الأسباب الأخرى ، ولقد سلك المستشرقون وسائل شتى لتحقيق هذا الهدف الديني، لكن كان أخطرها بلاشك التركيز على إثارة القضايا الخلافية في الفكر الإسلامي والعمل على إحياء الآراء الشاذة للفرق المغالية ليشغل المسلمون أنفسهم بها عن التفكير في عظائم الأمور، فعمدوا إلى إثارة الخلافات المذهبية والصوفية ، كما ركزوا في دراساتهم على إحياء ألوان معينة من التراث الصوفي للغلاة من الصوفية فتخصص الكثير منهم في تراث ابن عربي وابن سبعين والحلاج وذي النون المصري، وحاول بعضهم إحياء الخصومات التاريخية بين المعتزلة والأشاعرة أو بين المعتزلة والسلف.

أ - وهذا الهدف قد أعلنه المستشرقون قديماً وحديثاً ولم يجدوا في ذلك حرجاً ولا عيباً، ولكن الحرج والعيب من وجهة نظرنا أن يتشكك بعض الباحثين من المسلمين في صدق الهدف ويشككوا فيه، ولقد صرح «هانوتو» بعد أن أحتلت فرنسا الجزائر بما يلي: لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية» وكانت هذه العبارة عنواناً لمقال كبير نشر مترجماً باللغة العربية في جريدة المؤيد المصرية ونقل أطرافاً منه - المرحوم الدكتورد.محمد البهي- في كتابه عن «الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار»، ومما جاء فيه: إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق ، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجاً ، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعتناق دين سواه .. إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان في أوربا عينها .. لقد

صارت فرنسا في كل مكان في صلة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده..ليس الإسلام في داخلنا فقط بل هو خارج عنا أيضاً، قريب منا في مراكش .. قريب منا في طرابلس الغرب .. قريب منا في مصر .. وهو شائع ومنتشر في آسيا .. ولا يزال الهلال (الإسلامي) ينتهي طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية ومن جهة أخرى ببلدة فاس في المغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله.

ويقول هانوتو : إن هذا الدين قائم في الآستانة حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذي يحكم منه على البحارالشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين. ثم يعلن «هانوتو» صراحة أنه لابد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التي تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً على سطح المعمورة فتجعل منهم أمة واحدة، وهي رابطة الدين، لابد من العمل على اضعاف هذه الروح السائدة التي تحرك المسلمين من سباتهم .. إنهم متى اقتربوا من الكعبة ومن البيت الحرام .. من ماء زمزم المقدس ، من الحجر الأسود .. وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التي استحثتهم على ترك بلادهم في أقصى مدن العالم للفوز بجوار الخالق في بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية في قلوبهم .. إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة بأن تجعل المسلم في شرق الأرض يهب لنصرة المسلم في غربها فهي عامل مؤرق لفرنسا في المستعمرات التي تخضع لها.

ومن هنا فإن العمل على إضعاف هذه الرابطة بين المسلمين كانت ولا زالت تمثل غاية وهدفاً لنشاط المستشرقين ؛ وما كتبه «هانوتو» صرح به غيره. لقد كتب «كيمون» المستشرق الفرنسي في كتابه بثولوجيا الإسلام عن المسلمين وعن رسولهم (صلى الله عليه وسلم) بمثل ما صرح به «هانوتو» وزيادة ، حيث وصف الرسول ووصف الإسلام بصفات يخجل القلم عن

تسطيرها.

ب - إذا أضفنا إلى ذلك أن أول من اشتغل بعلوم الشرق بحثاً ودراسة كان راهباً وقسيساً ثم بابا لروما فيما بعد ، كما أن معظم المشتغلين بعلوم الشرق قديماً وحديثاً، معظمهم من رجال الكهنوت المسيحي واليهودي، ولا يمكن أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية ، بل إنهم كانوا مدفوعين إلى هذا اللون من الدراسة بدافع الانتصار لدينهم، إن هذه النوايا التي عبرت عنها نصوص أصحابها -وغيرها كثير- تجعلنا نثق في صدق سيطرة السبب الديني وهيمنته على الأسباب الأخرى ، ومن هنا فقد تنوعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين وتعددت اهتماماتهم بالإسلام وحضارته، فمن دارس للعقيدة وأصولها ، وللفقه وأصوله وللتاريخ وحضارته ، وللقرآن وعلومه، وللحديث ورجاله، واللغة وآدابها، والرسول وغزواته وعلاقته بأهل الكتاب في المدينة واتبعوا في ذلك منهجاً نفسياً ركزوا خلاله على سر قوة المسلم ونقاط الضعف في العالم الإسلامي، ليسلبوا المسلم سر قوته ليصبح بعد ذلك لقمة سهلة التناول في أيديهم ، يشكلون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية ، وحسب مكرهم السياسي والمذهبي، ولقد أفصح بعضهم عن هذا الهدف في بعض المؤتمرات بقوله:«.. لا نريد أن نرسل إلى الشرق جنوداً مسلحين وإنما نريد لهم رسلاً مبشرين بالنصرانية».

وهذه الأهداف التبشيرية كانت واضحة تماماً في كتابات المستشرقين قديماً وحديثاً مما مهد الطريق لحملات التبشير في العصر الحديث، حيث التقت أهداف الاستشراق والتبشير في العمل على بذر الشكوك حول عقيدة المسلم ورسوله، ليخرجوا المسلم عن دينه إن استطاعوا، فإذا عجزوا عن تحقيق هذا الهدف فلا أقل من أن يتركوه بلا دين ولا عقيدة كما صرح بذلك «زويمر» وصدق الله العظيم حيث يقول:(ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) (البقرة:الآية ١٢٠)

٢ - أسباب استعمارية:

لم يكن استيلاء صلاح الدين الأيوبي على بيت المقدس بالأمر الذي ينساه الغرب، بل إن الأمل في السيطرة عليه وتخليصه من أيدي المسلمين، ظل حلماً وأملاً بالنسبة للصليبيين، ولذلك فإن الحملات الصليبية تكررت كثيراً على بيت المقدس لتحقيق هذا الهدف ، وكان من الوسائل التي سلكها الغرب لتحقيق هدفهم محاولة دراسة ما يتعلق بشؤون البلاد وأحوال الناس فيها، و هذا الدور الذي قام به المستشرقون قد مهد السبيل للاستعمار لكي يحتل بلاد المسلمين بأيسر السبل وأقصرها معاً، فلم يكد ينتهي القرن التاسع عشر إلا وقد احتل الغرب معظم البلاد الإسلامية والعربية بصفة خاصة، فوضعت فرنسا يدها على سوريا ولبنان ومعظم دول شمال أفريقيا الإسلامية، ووضعت انجلترا يدها على مصر والسودان والعراق والأردن وفلسطين وكثير من إمارات الخليج العربي واليمن، وبدأ الاستعمار يتعامل بأسلوب جديد مع شعوب هذه المناطق ، حيث عمل على إضعاف روح المقاومة في نفوس المسلمين ليجعل منهم شعوباً قابلة للاستعمار فكراً وثقافة وحضارة وعقيدة، وهذا أخطر ما أصيب به العالم الإسلامي، قابليته للاستعمار بأشكاله وأساليبه الحديثة والمعاصرة، وكان من أهم وسائل الاستعمار في ذلك مايلي:

أ - التشكيك في ماضي هذه الأمة، في تراثها وحضارتها، حتى إذا فقد المسلم ثقته في نفسه أخذ يبحث له عن هوية وانتماء يعيد به ثقته في نفسه ويجد فيه الأمان المفقود، فيرتمي في أحضان الغرب تقليداً واتباعاً، وظهرت مصطلحات: التنوير، التقدمية، كمبررات لتقليد الغرب والارتماء في أحضانه.

ب - وضع مفاهيم جديدة وطرحها على الرأي العام خلال أجهزة الإعلام

التي نجح الاستعمار في استقطاب كثير من العاملين بها ليقوموا نيابة عنهم بهذه المهمة، بقصد إضعاف روح الانتماء الإسلامي والعربي، فطرحوا الفكر القومي بدلاً من الانتماء الإسلامي، فعملوا على إحياء الفرعونية في مصر، والفينيقية والآشورية في بلاد العراق والشام، والكردية والفارسية والتركية كل في موطنه ، بعد أن كانت هذه الأقطار المترامية يجمعها رباط واحد هو الإسلام، وخلافة واحدة هي الخلافة العثمانية، ولقد روج المستشرقون ومن سار في ركبهم لهذه الروح الجاهلية التي كان القضاء عليها هدفاً من أهداف الإسلام وانفراط عقد الأمة بالقضاء على الخلافة العثمانية التي كانت رمزاً حياً لهذه الوحدة الإسلامية. واحتل الحديث عن القوميات مكان الصدارة بدلاً من الحديث عن الانتماء الإسلامي والإخاء الديني، وأصبحت الفرصة مواتية للاستعمار ليملأ الفراغ في هذه البلاد بعد سقوط الخلافة العثمانية ، وأخذ يحتل البلد تلو الآخر حتى تمت له السيطرة على الأقطار الإسلامية شرقاً وغرباً ووضع يده على ثروات شعوبه، وأحكم القبضة على العالم الإسلامي، وكان له ما أراد بعد أن مهد الاستشراق له بخلقه روح القابلية للاستعمار وإضعافه روح الانتماء الديني بين المسلمين.

٣ - أسباب اقتصادية :

كانت -ومازالت- ثروات الشرق وخيراته إحدى الأهداف التي سعى الغرب للسيطرة عليها ووضعها تحت يده، وحرمان شعوب المنطقة منها ، ولذلك فقد أنشئت الأسواق التجارية والمؤسسات المالية، وكان الحصول على هذه الثروات بأبخس الأثمان دافعاً قوياً لحركة الاستشراق ومن هنا أرسلت المؤسسات المالية المادية في الغرب من يتولى إدارة شؤونها في الشرق فعينت المستشارين والمترجمين من المستشرقين ، كما أخذ بعض المستشرقين المهتمين بالتراث العربي يعمل على تحقيقه ونشره والاستفادة منه ، كما أنشأوا بعض المؤسسات المالية في دول الخليج واليمن، وكان بعض العاملين بها من

المستشرقين الذين اهتموا بجمع المخطوطات العربية من المكتبات الخاصة من هذه البلاد الخليجية ونقلوها إلى أوروبا، والذي يقرأ فهارس المخطوطات بالمتحف البريطاني يتبين له أن كثيراً من تراثنا الإسلامي تحت أيديهم وفي حوزتهم.

٤ - أسباب سياسية :

بعد حركة التحرير التي سادت شعوب المنطقة العربية حرص الاستعمار على أن يكون له بين هذه الشعوب من يتولى تنفيذ مخططه والقيام على شؤون مصالحه، فعين في سفاراته وقنصلياته مستشارين لهم من ذوي الخبرة والمعرفة بشؤون الشرق وعلومه ، وكان المستشرقون من أهم العناصر التي قامت بهذه المهمة، وكان نشاطهم السياسي ملحوظاً في جميع البلاد التي عملوا بها، وكان من أهم أعمالهم أن اتصلوا بكثير من المشتغلين بالثقافة والتعليم والإعلام في هذه المنطقة ليشكلوا منهم ما يمكن أن نسميه بالطابور الخامس ليتولى نيابة عنهم نشر الأفكار التي يرغبون في إشاعتها بين الشعوب العربية كالقوميات ، وإحلال العامية بدلاً من الفصحى، ومثالية النموذج الأوربي ووجوب الأخذ به .. إلخ، وكثيراً ما كانت تقع الاضطرابات السياسية والانقلابات العسكرية، وكثيراً ما كانت تتغير المناهج الدراسية والبرامج الثقافية في كثير من البلاد استجابة لمصالح الغرب وتلبية لرغبة هؤلاء العملاء في البلاد الإسلامية، خاصة إذا عرفنا أن هذه الشخصيات كانت تتولى مناصب قيادية في أجهزة الحكم في بلادهم وبالذات في المجالات الثقافية والإعلامية والتربوية، وهذا لم تسلم منه بلد إسلامي تقريباً ولا يغيب عن الذهن ما فعله كرومر ودانلوب في المنطقة العربية في مطلع هذا القرن.

٥ - أسباب علمية:

وقد نجد عدداً قليلاً من المستشرقين طلبوا علوم الشرق والتعرف على حضارته طلباً للمعرفة وحباً فيها، وهذا عدد قليل إذا قيس بأعداد المستشرقين الآخرين، وهذا النوع من المستشرقين يتميز بالروح العلمية النزيهة ، والدقة في الأحكام العلمية والإنصاف فيها، ولا نعدم أن نجد بينهم من شهد للحضارة العربية بدورها الرائد في الحضارة الأوربية المعاصرة وخاصة في العلوم الرياضية والتجريبية، وكثير منهم كتب مؤلفاته وبحوثه حول شخصيات إسلامية كانت رائدة في مجالات العلم المتعددة، ونجد بين هؤلاء من وصل به بحثه النزيه وروحه العلمية إلى اكتشاف الحقيقة فآمن بها وأعلنها ، وقد يصل به الأمر في نهاية المطاف إلى أن يعلن إسلامه، ويعلم المتخصصون في هذا اللون من الدراسات أن هناك عدداً غير قليل من المستشرقين يتمتعون بهذه الروح العلمية النزيهة، وقد تحولوا بعد إسلامهم إلى جنود مدافعين عن الإسلام وقضاياه، وعن العالم الإسلامي ومشكلاته، غير أن هناك أموراً يشترك فيها جميع المستشرقين بما فيهم هذا النمط الأخير، فهم جميعاً قد يقعون في أخطاء علمية بسبب جهلهم بأساليب اللغة العربية وطرائق التعبير فيها، ويرتبون على فهمهم الخاطئ نتائج وأحكاماً خاطئة تبتعد بهم كثيراً عن منطق الصواب والإنصاف، وقد يكون الفارق بين هذا النمط الأخير وغيرهم هو توفر حسن النية عند النمط الأخير الذي تميز بالإنصاف والنزاهة وتوفر سوء القصد وعدم النزاهة عند غيرهم.

موقف المستشرقين
من الفكر الإسلامي

اهتمامهم بالشرق الإسلامي:

تنوعت اهتمامات المستشرقين بالإسلام وتعددت اتجاهاتهم ، بحيث شملت كل فروع الثقافة الإسلامية تقريباً، وأسسوا مدارس وأقساماً في الجامعات الأوربية تخصصت في هذه الدراسات الشرقية، واستقدموا لها بعض أبناء العالم الإسلامي ليتعلموا بها عن طريق المنح الدراسية وعن طريق التبادل الثقافي بين الجامعات ، وحصل كثير من أبناء العالم الإسلامي على درجاتهم العلمية من هذه الجامعات الأوربية، ومن جهة أخرى فقد عملت بعض الدول الأوربية على إنشاء جامعات ومدارس في كثير من البلاد الإسلامية تعمل تحت إشرافها العلمي وخططها الدراسية، ولا تكاد تخلوا بلد إسلامي من هذا النوع من المؤسسات التعليمية التي تخضع في تمويلها ومناهجها العلمية لدول أوربا، وفي معظم الأحوال فإن أبناء هذه المدارس وخريجيها يكون ولاؤهم الثقافي والحضاري والسياسي لهذه الدول التي تلقوا تعليمهم تحت إشرافها.

ومن الجهود التي قام بها المستشرقون أنهم قاموا بوضع الموسوعات العلمية الإسلامية مثل دوائر المعارف المختلفة مثل دائرة المعارف الإسلامية، والقاموس الإسلامي ، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ورغم الأخطاء الكثيرة التي وقعت في دائرة المعارف الإسلامي أو في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، إلا أن هذه الأعمال قد أدت خدمات جليلة للباحثين ووفرت

كثيراً من الجهد والوقت للدارسين، والأخطاء التي وقعت في هذه الدوائر المعرفية قد انتقلت منها إلى كثير من أعمال الدارسين وقبلوها على أنها قضايا مسلمة وشاعت هذه الأخطاء بين المهتمين بالدراسات الإسلامية من العرب وغيرهم..

كذلك امتدت نشاطات المستشرقين في مجال الدراسات العربية والإسلامية فعقدوا المؤتمرات والندوات وألقوا المحاضرات في الجامعات العربية والإسلامية، فضلاً عن تأليف الكتب والاشتغال بتحقيق التراث العربي والإسلامي في مجالات كثيرة، كما تسللوا إلى المجامع اللغوية في كثير من البلاد، فأصبح بعضهم أعضاء عاملين بمجمع اللغة العربية بمصر، وفي سوريا، وفي بغداد، والمغرب وتونس ولا تكاد تخلو جامعة أوربية الآن من قسم متخصص في الدراسات الشرقية والإسلامية، و كانت أكثر دول أوروبا اهتماماً بهذه القضية هي فرنسا، فأنشأت بها أقدم مدرسة للدراسات العربية منذ القرن الثاني عشر في «دايمس» بأمر البابا سلفستر، ثم مدرسة شارتر سنة ١١١٧م، وأنشأ البابا هونوريوس معهداً للغات الشرقية سنة ١٢٨٥م، كما أنشئ أخيراً كرسي للغات الشرقية والدراسات الإسلامية بباريس والسوربون، فضلاً عن المدارس الكثيرة التي انتشرت في أنحاء كثيرة من فرنسا لهذا الغرض، ثم أنشأت فرنسا معاهد كثيرة في البلاد الإسلامية التي احتلتها، فأنشأت المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بمصر في المنيرة سنة ١٨٨٠م، وأنشأت كلية بورجاد في تونس سنة١٨٤١م، ثم تحولت إلى جامعة للآداب العربية، وأنشأت مدرسة الآداب العالية بالجزائر سنة ١٨٨١م، ثم تحولت إلى جامعة سنة ١٩٠٩م، وكذلك أنشأت في المغرب معهداً للدراسات المغربية بالرباط سنة١٩٣١م ولها في دمشق المعهد الفرنسي سنة ١٩٢٢م ، وكذلك المعهد الفرنسي بطهران الذي أنشئ سنة ١٩٤٨م .

ولقد أخذت معظم دول أوربا تحذو حذو فرنسا في الاهتمام بالدراسات

الاستشراقية فأنشأت أقساماً ومعاهد ومدارس مختلفة للدراسات الشرقية كما هو الحال في جامعة إيطاليا، وانجلترا، وأسبانيا، والبرتغال ، والنمسا، وهولندا، وألمانيا، وبولونيا، والدانمارك ، والسويد ، والمجر، وروسيا وأمريكا .. إلخ وبعض هذه الدول قد أسست في كثير من البلدان التي تقع تحت نفوذها معاهد أو كليات تابعة لهم، كما فعلت أمريكا في بيروت ومصر وتركيا وغيرها، حيث أنشأت بكل منها جامعة مستقلة تسمى الجامعة الأمريكية يتسرب من خلال نشاطها الثقافي مبادؤها وأهدافها إلى الجامعات والمؤسسات التربوية في هذه الشعوب.

ولقد اختلفت مواقف المستشرقين من الفكر الإسلامي وقضاياه تبعاً لاختلاف أديانهم أو مذاهبهم الفكرية والسياسية، لأننا نجد بين صفوف المستشرقين اليهودي الحاقد على الإسلام وأهله، والمسيحي الراهب المبشر بدينه، والشيوعي الملحد الذي لا دين له، ولابد أن تختلف مواقف هؤلاء جميعاً تبعاً لانتمائهم الفكري والعقائدي، ولكن على سبيل العموم كان أسوأ هؤلاء جميعاً هم المستشرقون اليهود، فمنهم من يتهم الإسلام بأنه دين فرضه محمد وأتباعه بقوة السيف والحروب.

وفيهم من ينكر نبوة محمد ويرى أن ما جاء به من تعاليم قرآنية أخذها عن أحبار اليهود وكهنة النصارى.

ومن المستشرقين من يتهم إله المسلمين بأنه متعال جبار بينما إله النصارى عطوف ودود متواضع ظهر للناس في صورة واحد منهم وهو عيسى ابن مريم، ولا يكاد يخلو كتاب استشراقي يتصل بالإسلام ونبيه إلا وهو يقطر سماً وحقداً على الإسلام والمسلمين، ويفصح بعض المستشرقين عن هذا الحقد المعلن في تعليق صريح له، على الحملات الصليبية فيقول: وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما

تضمنه من قوانين الأخلاق الساذجة.

وقد يطول بنا المقام لو أردنا التفصيل في موقف المستشرقين من الفكر الإسلامي وعلمائه، ولكننا سوف نقصر دراستنا هنا على نقاط محددة أراها أكثر مناسبة للمقام حسب المساحة المحددة لنا في هذا الكتاب.

موقفهم من النبي والقرآن الكريم:

يرتبط موقف المستشرقين من القرآن الكريم بموقفهم من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأنهم يقفون من النبي موقف الإنكار المطلق، وقد ينكر بعضهم أصل النبوة أساساً ولا يعترف بها إطلاقاً، لأي من أنبياء الله ورسله، وهذا الإنكار يترتب عليه القول بأن محمداً ليس نبياً وبالتالي فإن القرآن حسب زعمهم لا يكون وحياً من السماء، وإنما هو من عند محمد ومن وضعه هو ، وليس كتاباً إلهياً ولا وحياً سماوياً.

ومعلوم أن الإيمان بالنبي والنبوة أصل من أصول الاعتقاد التي لا تقبل الشك، يؤمن بها كل مسلم إيماناً جازماً كإيمانه بالله وهي المفتاح الحقيقي لتقبل كل ما جاء به الوحي والإيمان به.

والنبوة في جوهرها إنباء الله عبداً من عباده بشرع ما ، فإن أمره بتبليغ هذا الشرع إلى الناس كان رسولاً نبياً، وإن لم يأمره بالتبليغ كان نبياً فقط، والنبوة في جوهرها اصطفاء ووهب وعطاء من الله ، وليست كسباً ولا اجتهاداً كما يرى بعض الفلاسفة. وما بلغته الرسل إلى الناس من شرائع وعبادات ليس من عند أنفسها، وإنما هي وحي من الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد وغيره من الرسل ليكونوا من المنذرين به فنزل القرآن بالعربية، والإنجيل بالسريانية، والتوراة بالعبرية، تحقيقاً لمعنى قوله تعالى : (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) (إبراهيم/٤) وهذا الوحي

ليس فيضاً من العقل الفعال كما تدعي الفلاسفة ، وليس إلهاماً ولا إبداعاً لعبقرية محمد كما يقول بعض المستشرقين ، وإنما هو وحي من الله على قلب الرسل بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام فهو من عند الله بلفظه ومعناه

والمستشرقون يرون القضية عكس ذلك تماماً، فهم أولاً لا يؤمنون بنبوة محمد ولا يعترفون بها.

١- فهو عند البعض أحد عباقرة العالم العشرة.

٢- وعند البعض الآخر أحد الأبطال العظماء.

٣- وعند آخرين ناقل ذكي من كتب الأولين.

٤- أو متعلم من رهبان النصارى قد أجاد في تعلمه عنهم.

٥- أو أحد المشعوذين وطلاب الرياسة والزعامة .. هكذا يقولون في حق نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام ، وإذا أرادوا شيئاً من الإنصاف قالوا إنه جاء ليدعو إلى الإشتراكية وليس إلى عقيدة دينية جديدة.

أ - يقول هوبرت جريمي «مستشرق ألماني» في كتابه:«محمد»[1] لم يكن محمد في بادئ الأمر يبشر بدين جديد بل إنما كان يدعو إلى الإشتراكية ثم يقول : فالإسلام في صورته الأولى لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه .. بل هو محاولة للإصلاح الاجتماعي تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة ، وعلى الأخص إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء والفقراء ، لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين، وهو يستخدم فكرة الحساب في اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوي وتأييد دعوته

(١) صـ ٥٦٥ ، ٥٩٢ ، ١٤١ ، ٣.

ب - بينما يرى المستشرق الإنجليزي «جب» في كتابه:«المذهب المحمدي» أن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثرت بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه .. ومحمد نجح لأنه كان واحداً من المكيين، ومعارضة المكيين له لم تكن من أجل تمسكهم بالقديم، أو بسبب عدم رغبتهم في الإيمان وإنما كانت لسبب سياسي أو اقتصادي، فالمستشرق «جب» يفسر موقفه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيرى أن الظروف المكية هي التي جعلت من محمد زعيماً سياسياً وأعطته الفرصة لكي يظهر في وسط قومه المكيين بهذه الصورة وإن يلتف حوله فقراء مكة طلباً للإنصاف من الأغنياء ، وإنما كانت لسبب سياسي أو اقتصادي .

جـ - وهناك نمط آخر من المستشرقين يرون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد حلت به حالة نفسية أدت به إلى نوع من التأمل الذاتي في السماء وما فيها من نجوم ، وساعد على تألق هذا النوع من التأمل جو مكة وما تتركه من رهبة في القلوب، خاصة إذا خلى الإنسان وعالمها الطبيعي الموحش من الجبال وما حولها، وما تثيره في النفوس من حالات الهلع والتأمل الذاتي

وعلى مثل هذا النحو من الفهم، عن الرسول صلى الله عليه وسلم. كان موقف المستشرقين من النبي فهم ينكرون رسالته جملة وتفصيلاً، وهذا بالطبع سوف ينسحب على موقفهم من القرآن الكريم ومن مصدره الإلهي.

يقول غوستاف لوبون : ويجب اعتبار محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسي الديانات ولا تعجب لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون الديانات ، ويقودون الناس ، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا

ولقد وضع هذا المستشرق كتابه عن «حضارة العرب» وصرح فيه بآراء وأفكار تدل على جهله بالوحي والنبوة وطبيعة الحضارة الإسلامية، وبطبيعة الحياة الخاصة للرسل فهو يتهمه بالشهوانية في حياته الزوجية، ويرتب على هذا الإتهام مجموعة من الأحكام التي تدل على جهله بخصوصيات الرسول ويجعل القرآن دليلاً على عبقرية الرسول وإبداعه أو يضعه في مكانه أدنى من كتب الهندوس الدينية ، ويرى أنه كتاب مؤقت بعصره لا يحقق حاجات الناس في عصور لاحقة بل يجعله السبب في تخلف المسلمين.

د - أما جولدتسيهر فقد وضع كتابه عن «مذاهب التفسير الإسلامي» ونسب فيه المعرفة التي تلقاها محمد عن مصدرين إذ يقول: فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً منتخباً من معارف وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجنبية ، كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله ؛ ولقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً عميقاً، وأدركها بإيحاء التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهياً .

هـ - ويسير في نفس الاتجاه «بلاشير» في كتابه:«معضلة محمد» حيث يرى أن التشابه الواقع بين قصص القرآن وقصص التوراة والإنجيل كان سبباً في القول بأن محمداً أخذ القرآن عن هذين المصدرين.

و - أما نيكلسون فقد ركز اهتمامه على دراسة التصوف الإسلامي ليثبت به أن محمداً صلى الله عليه سلم، أخذ القرآن عن مصادر متعددة ، لكن أهمها هي المسيحية ، ويتهم القرآن بالتناقض والتضارب الذي لم

يستطع أهل مكة اكتشاف ما فيه من تناقض لسذاجتهم وعدم قدرتهم ، يقول نيكلسون:والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات ، وهو نفسه - محمد- لم يكن على علم بهذه المعضلات ، كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته، الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله، كما يتهم الرسول في هذا الكتاب -الصوفية في الإسلام- بأنه حرف النصرانية وأساء فهمها.

هذه هي نظرة المستشرقين للقرآن من ناحية مصدره، فالقرآن عندهم ليس إلهياً ولا ربانياً، وإنما هو بشري من صنع محمد، وإن ما جاء فيه من قصص توافق ما جاء في التوراة والإنجيل فإنه قد أخذها عن هذين المصدرين بتحريف وإساءة فهم.

ومعلوم لدى كل مسلم أن الإيمان بالقرآن وأنه كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود أصل من أصول الاعتقاد ، ولا ريب في ذلك لدى كل مسلم، وأنه بلفظه ومعناه من الله، نزل به الروح الأمين على قلب النبي حسب الحوادث وما تحتاجه من حلول لما أشكل فيها.

مناقشة هذه الآراء:

ومن يقرأ نصوص المستشرقين وأقوالهم عن القرآن ، ودعوى أنه بشري المصدر، ويقارن بين هذه الاتهامات وما حكاه القرآن الكريم عن مشركي مكة قديماً، وعن موقفهم من الرسول والقرآن لا يجد شيئاً جديداً عند المستشرقين، فإن رأيهم ودعاواهم في القرآن قد سبق إليها مشركو مكة وأهل الكتاب في المدينة، ولقد بلغ حرص النصارى على هذه الاتهامات وتكرارها من جيل إلى جيل أن بعضهم قد أفردها بمؤلفات مستقلة، كما فعل يوحنا الدمشقي وبولص الأنطاكي في رسائله عن النصرانية والإسلام.

وقديماً قال المشركون عن القرآن: (إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر) (المدثر:٢٤، ٢٥)،

وقالوا عنه: (أساطير الأولين اكتتبها (محمد) فهي تملى عليهم بكرة وأصيلاً. (الفرقان:٥)

وقالوا عن الرسول: (إنما يعلمه بشر) (النحل: ١٠٣)

وقالوا له : (ياأيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون) (الحجر:٦)

وقالوا له : لست مرسلاً .. وقالوا غير ذلك الكثير عن القرآن وعن الرسول مما حكاه القرآن عنهم ، فلا غرابة -إذن- أن تتردد هذه الاتهامات على ألسنة أحفادهم في كل جيل من المستشرقين والمبشرين بالنصرانية ومن دار في فلكهم من أبناء ملتنا.

وكذلك الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم ، بأنه عبقري أو أحد العظماء العشرة في العالم، أو أنه طالب رياسة وزعامة، أو مصلح اجتماعي .. أو .. أو .. إلخ، لانجد لديهم جديداً عما حكاه القرآن عن أهل الكتاب بالمدينة أو مشركي مكة، ولا يتسع المقام هنا لتفصيل القول في ذلك ولكن نوّد الإشارة إلى أمور :

أولاً : لقد قال المشركون عنه : إنه مُعلم ، وشاعر ، وساحر ، وأن القرآن أفك افتراه ، ولعل مجيء القرآن مشتملاً على هذه الإتهامات -ذاكراً لها- أكبر دليل على أن القرآن الكريم ليس من عند محمد ولا من بنات أفكاره.

فإن من له صلة بالقرآن وتلاوته يدرك تماماً سقوط هذه الدعاوى الظالمة ويعلم يقيناً أن القرآن كان أميناً في عرض هذه الإتهامات على ألسنة

المشركين وأميناً في الاحتفاظ بها تتلى ضمن آياته، ويتعبد بها المسلم كما يتعبد بتلاوة غيرهامن الآيات. ليكون القرآن نفسه حاملاً معه أدلة نفي هذه الإتهامات الكاذبة، وحاملاً معه دلائل مصدره الإلهي، فإن من له حظ من العقل والحكمة يعلم تماماً أن هذا القرا لو كان من عند محمد لجاء خالياً تماماً من ذكر هذه الإتهامات الموجهة إليه، ولكان أولى به أن يأتي بشهادات تأييده وصدقه، بدلاً من ذكر الإتهامات التي وجهها المشركون إليه في أول عهدهم بالدعوة ، إن تسجيل القرآن الكريم لهذه الاتهامات يدل على أمرين مهمين جداً في شأن الدعوة الإسلامية.

الأمر الأول: دلالته على صدق النبي وأمانته في النقل عن ربه ، لأنه ليس من صالح أصحاب الرسالات أن ينقلوا إلينا هذه الإتهامات التي تحمل معنى التكذيب والإفتراء، بل كان الأولى بهم لو لم يكونوا رسلاً صادقين أن يخفوا ذلك تماماً عن الاتباع، ولجاءوا بدلاً منها بشهادات تأييد وتصديق، كما يحدث في عهدنا هذا في كثير من المناسبات ولكنهم الرسل ، وحاشا لواحد منهم أن يكون غير ذلك فالله أعلم حيث يجعل رسالته .

أما الأمر الثاني: فهو دلالة هذا النص القرآني على ألوهية مصدره ودلالته على أنه من عند الله وليس من قول البشر ، له صلة بالقرآن يعلم تماماً أن ذلك هو حق اليقين ،

ثانياً : إن القرآن يشتمل على كثير من مواقف اللوم والعتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك في أمور كان يتصرف فيها الرسول من واقع بشريته الخالصة، فكان ينزل القرآن معاتباً للرسول على ما فعل، حدث ذلك في موقفه صلى الله عليه وسلم مع ابن أم مكتوم، حين انصرف عنه الرسول إلى غيره فنزل قوله تعالى:(عبس وتولى أن جاءه

الأعمى، وما يدريك لعله يزكيأو يذكّر فتنفعه الذكرى).. إلخ الآيات(عبس١-٤)

وحدث ذلك في شأن أسرى بدر، حين أوشك الرسول أن يأخذ الفدية من الأسرى ويطلق سراحهم، فنزل الوحي مخالفاً لرأي الرسول ومعاتباً له بقوله:(ما كانَ لنبيٍ أن يكونَ لهُ أسرى حتى يُثْخِنَ في الأرض تريدونَ عَرَضَ الدنيا واللهُ يريدُ الآخرةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * لولا كتابٌ من اللهِ سبقَ لَمَسَّكُمْ فيما أَخَذْتُم عَذَابٌ عَظِيمٌ)(الأنفال : ٦٧)

وجاء مثل ذلك في سورة الكهف حين اهتم الرسول ببعض وجهاء مكة أملاً في إسلامهم وأعرض عن بعض أتباعه فنزل قوله تعالى:(واصبر نفسكَ مع الذينَ يدعونَ رَبَّهُم بالغداة والعشي يريدونَ وجههُ ولاتعدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياة الدُّنيا ولا تطع من أغفلنا قلبهُ عن ذكرنا واتبعَ هواهُ وكانَ أمرهُ فُرُطا)(الكهف:٢٨)

وحدث نظير ذلك في مواقف عديدة ذكرها القرآن الكريم حين قالت قريش للرسول أقبل على بعض أمرنا ونحن نقبل على بعض أمرك، فنزل قوله تعالى:(وإن كادوا ليفتنونكَ عن الذي أوحينا إليكَ لتفتريَ علينا غيرهُ وإذاً لاتخذوكَ خليلاً* ولولا أن ثَبَّتْناكَ لقد كدتَّ تركنُ إليهم شيئاً قليلاً* إذاً لأذقناكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ ثُمَّ لا تجدُ لك علينا نصيراً)(سورة الإسراء:٧٣:٧٤).

ونظائر ذلك في القرآن كثير يتلوها المسلم ويتعبد بها كما يتعبد بتلاوة الأوامر والنواهي، فهل يكون ذلك اللوم وذلك العتاب من عند محمد؟ .. أليس من الأولى لو كان القرآن من عند محمد كما زعموا أن يكون خالياً من مثل ذلك اللوم الموجه إلى شخصه، وهل يكون القرآن من عند محمد ويكون مشتملاً على مثل قوله تعالى:(إذاً لأذقناكَ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ) إن

القرآن نفسه قد احتوى على ألوهية مصدره كجزء ذاتي فيه وليس خارجاً عنه من ذلك مثلاً:

١ - ما أشرنا إليه آنفاً وهو إشارته لمواقف العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور التي كاد يتصرف فيها بمقتضى بشريته، والتي ذكرنا أمثلة منها.

٢ - إشارته إلى مواقف المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لألوهية مصدره ودعواهم أنه من عند محمد تارة أو أنه قد اتخذه من أهل الكتاب أو .. أو .. إلخ.

٣ - إشارته إلى اتهام المشركين لمحمد بأنه (ساحر أو شاعر أو معلم أو مجنون، إذ لو كان من عند محمد لما جاء مشتملاً على هذه الاتهامات، وكان أولى به أن يأتي بشهادات تؤيد صدقه.

وينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم عندما ذكر هذه الإشارات لم يذكرها إلا مقرونة بدليل إبطالها وبيان فسادها، فأحياناً يذكر الفرية ثم يتبعها بقوله: إن يتبعون إلا الظن، لينفي أن يكون معهم دليل على كذبهم كما في قوله: قل هاتوا برهانكم. وقوله إن عندكم من سلطان بهذا ..إلخ، ليبين أن كلامهم متهافت في ميزان المنطق لإفتقاده دليل صدقه. وأحياناً يذكر الفرية ثم يتبعها بالقضية الجازمة بأن القرآن من عند الله. كما في قوله تعالى:(قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض) وأحياناً ينفي عنهم صفة العلم أصلاً بمستوياته المختلفة كما في قوله تعالى:(قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون)(النحل/١٠١) ولعل القرآن كان يلفت نظر المسلمين إلى جنس هذه الافتراءات وأن أدعياءها لا يملكون دليلاً على صحة دعواهم وإن هي إلا ظنون وأوهام أنبتتها بذور الحقد والكراهية لهذا الدين ولنبيه.

ثالثاً : ومن معجزات القرآن الكبرى أنه صالح لكل زمان ومكان وأن أدلته وبراهينه التي تحدى بها كفار مكة وأهل الكتاب في المدينة هي بعينها مازالت مصدراً للتحدي لكبار المستشرقين ومن سار في فلكهم ، ذلك أن أهل الكتاب بالمدينة وقبلهم مشركو مكة لما قالوا إن القرآن من عند محمد وأنه إفك افتراه، تحداهم القرآن على لسان الرسول بحجة سهلة وميسورة لكل عربي، فقال لهم: إذا كنتم عرباً ومحمد عربي مثلكم وقد أتى بهذا القرآن من عند نفسه ، فأتوا بآية من مثله، أو بسورة ، أو بعشر سور مثله مفتريات، وهذه حجة في غاية الإقناع والإفحام في نفس الوقت ، أنها ملزمة للخصم فهو إما أن يأتي بمثل القرآن إن كان بشرياً تصديقاً لدعواه، أو يسلم بأنه من عند الله فيؤمن به. فإذا أصر على موقفه بعد ذلك فإنه بذلك يكون خارجاً عن مجال الحوار العلمي إلى مجال العناد والاستكبار، وهذا هو شأن المشركين قديماً والمستشرقين حديثاً، كما قال القرآن حاكياً عنهم، (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون).

ومن تمام نعم الله على عباده ومن كمال حجته على خلقه، أن ايات النبوة وبراهين رسالته الخاتمة معلومة لكل الخلق ، وفي استطاعتهم العلم بها ، وقد يكون عند بعضهم من دلائل نبوته ما لا يوجد عند البعض الآخر، وقد يظهر لكل قوم من الآيات والدلائل النفسية والأفقية ما يتبين به أن القرآن حق ، وإذا ظهرت هذه الدلائل ووضحت وأعرض الإنسان عنها أو أعرض عن النظر الحق الموجب للعلم بها ، كان موقفه عناداً واستكباراً ، وكان في شقاق مع الله ورسوله.

ثالثاً : والله تعالى قد شهد للقرآن بنفسه تارة وبملائكته تارة ، وبآياته البينات تارة ، وأخبر عن هذا القرآن بقوله:(قُل لئن اجتمعتِ الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلهِ ولو كانَ بَعضُهُم لبعضٍ ظهيراً) (سورة الإسراء: الآية ٨٨)، وقد أخبر الرسول بذلك في أول

أمر الدعوة في مكة ، وأخبار الرسول عن هذا وبهذا النفي العام الشامل للإنس والجن فيه آيات لنبوته. لأن مثل هذا الخبر، لا يقدم عليه من يريد من الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق أن الأمر كذلك في نفسه، ولو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر، ويفسد عليه قصده ، وهذا لا يقدم عليه حكيم ولا عاقل.

رابعاً : ولم يثبت أن واحداً من العرب عارض القرآن، والذي حاول ذلك منهم أتى بأشياء فضحت أمره بين قومه ، ومعلوم أن توفر الدواعي المعارضة للقرآن كانت موجودة لدى المشركين ، ولما عجزوا عن معارضته مع توفر الدواعي عندهم ، ومع الحرص الشديد على محاربته وإبطاله بكل وسيلة ممكنة ، دل ذلك على العجز المطلق، وهذا في حد ذاته برهان تام على صدق القرآن، وصدق أنه آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه آية ظاهرة وباقية إلى يوم القيامة، وليس القصد هنا الحديث عن إعجاز القرآن، فإن ذلك له مجال آخر، ولكن الذي أود الإشارة إليه أن دلائل ألوهية المصدر القرآني متنوعة ومتعددة وكلها من أوجه إعجاز القرآن وكل وجه منها دليل على صدق النبي، وفي نفس الوقت دليل على أن القرآن من عند الله ، ولما قصَّ القرآن علينا موقف مشركي مكة ودعواهم الكاذبة في أن القرآن من عند محمد قال لهم(أم يقولونَ افتَرَاهُ قُل فَأتوا بِعَشْرِ سُورٍ مثله مفتريات ٍ وادعوا مَنِ استطعتُم من دونِ الله إن كنتم صادقينَ* فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أُنزلَ بعلم الله وأن لا إلهَ إلا هُوَ فَهَل أنتُم مُسلمُونَ)(سورة هود:١٣:١٤)، وقال سبحانه:(لكنِ اللهُ يَشهَدُ بما أنزلَ إليكَ أنزلَهُ بعلمه والملائكةُ يَشهدونَ وكفى بالله شَهيداً)(سورة النساء:١٦٦) أي كفاك يا محمد أن الله وملائكته يشهدون بما أنزل رليه، ثم أعاد التحديد في المدينة مع أهل الكتاب بعد الهجرة ، فقال في سورة البقرة:(وإن كُنتم في رَيبٍ مما نزلْنا على عبدنَا فأتوا بِسورَة من مثله وادعوا شُهداءكم من دونِ الله

إن كنتم صادقينَ) ،ثم قال:(فإن لم تَفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النارَ التي وقودُهَا الناسُ والحجَارةُ أُعدت للكافرينَ)(البقرة: ٢٣:٢٤) فدلت الآية على أمرين الأول : قوله :(فإن لم تَفعلوا) يعني إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، وينبغي أن تعترفوا بذلك وتؤمنوا به.

الثاني: قوله تعالى(ولن تَفعلوا) ولن تفيد تأبيد النفي في المستقبل، فثبت، بالخبر أن البشر لن يأتوا بمثله فيما يستقبل من الزمن ، فكان القرآن بذلك قد أخبر بعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو تعاون على ذلك أهل الأرض قاطبة.

وكان الكفار في مكة من أحرص الناس على إبطاله ومعارضته، مجتهدين في ذلك بكل الوسائل، تارة يسألون أهل الكتاب عن أمور غيبية ليسألوا عنها محمداً ليظهروا بذلك عجزه، كما سألوهم عن قصة يوسف ، وأهل الكهف ، وذي القرنين ، وحاولوا أن يخبروا الرسول في ذلك.

وتارة يجتمعون المرة بعد المرة ليتفقوا على أمر يسألون عنه محمداً بقصد إعجازه، فكان ينزل القرآن بالإجابة الشافية لأمراضهم، فإذا كان هذا شأنهم معه، حرص تام على المعارضة المرة تلو المرة، ولو كانوا قادرين عليها لفعلوها، لأنه إذا وجدت الدواعي التامة وامتنعت الصوارف وكانت القدرة حاصلة، وجب وجود المطلوب، وهذا شأننا مع المستشرقين الآن، وهذا التحدي منْ أبلغ المواقف القرآنية التي يتحدى بها أهل الأرض قديماً وحديثاً، وكل من ادعى بشرية القرآن. فعليه أن يأتي بمثله آية، أو سورة، أو عشر سور، فإن لم يستطع أحد أن يفعل ذلك فعليه أن يؤمن به ، ومعلوم لدى أهل العلم بالقرآن وعلومه أن أوجه الإعجاز القرآني من جهة معانيه، وإخباره عن الغيوب الماضي منها والمستقبل أكثر وأكثر من جهة إعجازه اللفظي، ولكن أردنا بذلك أن نضع بين يدي القارئ نماذج منها على وجه التمثيل فقط وليس

على وجه الاستقصاء أو الحصر، لأنه من ذا الذي يستطيع حصر أوجه إعجاز القرآن، ومن أراد تفصيل القول في ذلك فليراجع كتب علوم القرآن، كالإتقان في علوم القرآن للسيوطي أودقائق التفسير لابن تيمية خاصة الجزء الأول منه(مقدمة في إعجازالقرآن).

خامساً: ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الذين تأملوا القرآن بعين الإنصاف من المستشرقين لم يلبثوا أن أعلنوا إسلامهم واعتناقهم للإسلام ديناً وللقرآن دستوراً ، وأعلنوا ندمهم الشديد على ماضي أيامهم التي قضوها على الكفر والعناد، يقول موريس بوكاي الطبيب الفرنسي الذي أسلم وألف كتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» لقد أثارت دهشتي هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن، والتي كانت مطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة. ولقد درست هذه النصوص بروح متحررة تماماً من كل حكم سابق وبموضوعية تامة، بيد أني لا أنكر تأثير التعاليم التي تلقيتها في شبابي، حيث لم تكن الأغلبية تتحدث عن الإسلام، وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن هذا الدين أسسه رجل، وبالتالي فهو ليس بدين سماوي فلا قيمة له عند الله، وكان يمكن أن أظل محتفظاً بالكثير من هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهي شديدة الانتشار، ولما تحدثت مع بعض المستنيرين من غير المتخصصين ، عرفت أني كنت جاهلاً قبل أن تعطى لي صورة صحيحة تختلف عن تلك التي تلقيتها في الغرب عن الإسلام، وكان هدفي الأول هو قراءة القرآن ودراسة نصه آية آية .. وأنتهيت إلى دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ومطابقتها للمفاهيم التي تملكها اليوم، والتي لم يكن لمحمد ولا لأي إنسان في عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة .. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية فادحة، فإننا لا نجد في القرآن أي خطأ .. وقد دفعني ذلك إلى أن أتساءل لو كان مؤلف القرآن إنساناً بشراً، فكيف استطاع في القرن السابع المسيحي أن يكتب ما اتضح

اليوم أنه يتفق مع العلم الحديث، ففي مجال القضايا التي تخضع للملاحظة ، مثل تطور الجنين يمكن مقابلة مختلف المراحل الموصوفة في القرآن مع معطيات علم الأجنة «الحديث».

هذه شهادة مستشرق هداه الله للإسلام، لأنه بحث عن الإسلام ، وفي الإسلام، بمنهج علمي متحرر من العصبية ، بروح متجردة إلا من البحث عن الحقيقة، وصدق الله العظيم «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً».

حول الفكر الإسلامي وأصالته:

ولقد أثار المستشرقون شبهات أخرى كثيرة حول الإسلام ورسوله، وحول العقيدة والوحي، وحول الفلسفة الإسلامية وأصالتها، والتصوف وأصوله، وحول السنة وعلومها.

أ - فالمستشرق «شاخت» وضع كتابه «في أصول الشريعة المحمدية» ولعله أشهر كتاب له ، جعله طعناً في كتب السنة الصحيحة ومسانيدها، وقال إن الأحاديث الفقهية وغيرها ظهرت في القرن الثالث الهجري ، وأن الفقه ومسائله لم يظهر في عصر محمد ولا في عصر الصحابة، وإنما ظهر بعد هذا الجيل، واستدل بذلك على كذب الأحاديث النبوية، ومع ما في هذه الدعوى من مغالطات وأكاذيب تاريخية، فإن هذا المستشرق لم يكلف نفسه عناء البحث ليعرف أن أقوال الرسول وأفعاله كانت تقوم بين جيل الصحابة مقام كتب الفقه بين الأجيال المتأخرة فضلاً عن أن أحاديث الفقه كغيرها من الأحاديث الأخرى رواها المحدثون بسندها المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللمحدثين في ذلك منهج في التوثيق أفاد منه إلى حد كبير علماء المناهج المعاصرون ، ووصفوه بالدقة والموضوعية وقوة الضبط وسلامة النقل وسار على نفس المنهج في التشكيك في كتب السنة آخرون أمثال

«منتوجمري واط»المستشرق الإنجليزي ، و«مارجليوث»، و«جولد تسهير» وغيرهم، والأدلة التي يذكرها الواحد منهم على صحة دعواه تجدها مكررة عند غيره كأنهم قد تواصوا بذلك فيما بينهم وتوارثوها جيلاً بعد جيل.

ب - أما في مجال الفلسفة الإسلامية فقد تواطأ كثير من المستشرقين على أكذوبة أن العقل العربي ليس من طبيعته التفلسف ، أو حب الفلسفة، لأنه ساذج بطبعه يميل إلى الأخذ بالجزئيات ، ولا يعرف التعامل مع القضايا العامة أو الكلية، صرح بذلك «رينان» في كتابه عن اللغات السامية، و«ديبور» في تاريخه للفلسفة الإسلامية، و«بينز» في كتابه عن «مذهب الذرة عند المسلمين».

يقول ديبور في مقدمة كتابه عن مصادر الفلسفة الإسلامية: لم يكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات في الفلسفة غير الأحاجي والأمثال والحكم، وكان هذا التفكير يقوم على نظرات في الإنسان ومصيره، وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة لا تدرك مداها.

جـ - ونفس الفكرة صرح بها رينان قبل ديبور، ولا شك أن هذا الحكم خاطئ من أساسه لأنه يتبنى فكرة مسبقة، وهي تفوق الجنس الآري على الجنس السامي، فالفلسفة الإسلامية ما دامت تنتمي إلى جنس سامي فهي ليست بأصيلة، ولا تشتمل على عناصر جديدة لأن الأصالة والجدة من خصائص الجنس الآري فقط كما يزعمون، وقد يكون هذا الحكم مدعاة إلى طرح سؤال مهم، وهو إذا كانت هذه الفلسفة ليست أصيلة ولا جديدة وخالية من عصر الابتكار، فلماذا شغلتم أنفسكم بها إلى هذا الحد الكبير..؟ وإجابة ديبور على ذلك تطلعنا على قضية أهم وأخطر، حين تقرأ قوله فإن هذا البحث له شأن عظيم إذ يتيح لنا فرصة لمقارنة المدنية الإسلامية بغيرها من

المدنيات ، والفلسفة ظاهرة فريدة، نشأت في بلاد اليونان في ظروف غير خاضعة لنشأة المدنيات، ولا يمكن تعليلها بأسباب خارجة عنها ، إن ذلك يرينا أول محاولة للتغذي بثمرات الفكر اليوناني مغذياً أبعد مدى وأوسع حرية مما كان عليه الأمر في نشأة العقائد» أن تتبع أفكار اليونان وامتزاجها في مدنية الشرق الكثيرة العناصر لكثير الفائدة عند ديبور لأنه يجعل ذلك بداية التمدن الحقيقي في بلاد الشرق ، وديبور لم يبحث الفلسفة الإسلامية بهدف بيان أصالتها أو مكانتها في مسيرة الحياة الفكرية للإنسانية ككل ، ولم يكن تأريخه لها لذاتها ولا حباً فيها؛ ولا حتى بوصفها واسطة بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الأوربية الحديثة كما يزعم البعض - لا- لم يكن هذا هدفاً مقصوداً لديبور ولا لغيره ممن أرخو للفلسفة الإسلامية أو كتبوا عنها، مثل هنري كوربان ، وماسينيون، إن ما يهتم به المستشرقون من وراء ذلك التأريخ هو العمل على تكملة وإتمام تاريخ ذلك النهر الفكري في أوربا، ذلك النهر الذي بدأه فلاسفة اليونان ، وما زال عطاؤه متدفقاً إلى يومنا هذا في أوربا، فإذا انحرف مسار ذلك النهر عن طريقه الطبيعي، وخرج إلى جنس آخر غير آري كالجنس العربي مثلاً ، فإنما ليأخذ بيد شعوبه إلى مسار المدنية والحضارة، ثم ما يلبث أن تعود مياهه إلى مجراها الطبيعي بأوربا، فدراسة الفلسفة الإسلامي عند المستشرقين يقصدون من ورائها إلى أمور محددة تتصل بحياتهم الفكرية.

ذلك أن دراسة الفلسفة الإسلامية تمكنهم أولاً من تتبع دخول أفكار اليونان وتأثيرها في مدنية الشرق، وهذا يعني عندهم مواصلة التأثير والعطاء للفلسفة اليونانية، وهي من نتاج الجنس الآري الأوربي.

ودراستها تمكنهم ثانياً من مقارنة المدنية الإسلامية بالمدنية اليونانية مقارنة توضح لهم بجلاء أن الفلسفة لم تظهر في المدنية الإسلامية من داخلها وإنما وفدت إليها عندما احتكت بالجنس الآري، وهذا في حد ذاته

يكون برهاناً لهم على أن الفلسفة اليونانية ظاهرة فريدة خاصة بالجنس الآري فقط ، ولم تظهر خارجه، وبالتالي فهي لا تدين لأية حضارة أخرى سابقة عليها.

٣- ودراستها تمكنهم -ثالثاً- من التعرف على أول محاولة للتأثر بثمرات العقل اليوناني من جهة، ومن الوصول إلى أن هذه الفلسفة ارتبطت بها أول نهضة عربية لبيان فضل الفلسفة (الآرية) على الجنس العربي.

إن هذه الأمور الثلاثة أصبحت مؤكدة لدى دارس الفلسفة الإسلامية من المستشرقين ليؤكدوا بذلك أمرين:

١- فوقية الجنس الآري على ماعداه من أجناس أخرى.

٢- الالحاح على فكرة المركزية الأوربية بالنسبة للعالم ، فكراً وثقافة وحضارة ومدنية، وهذا ما يهدف إليه ديبور وغيره من المستشرقين ، إنهم -إذن- لم يدرسوا الفلسفة الإسلامية لذاتها، وإنما لإستكمال فهمهم للفلسفة اليونانية وللفكر الأوربي بصفة عامة والقصد من ذلك هو محاولة إقناع العالم بأورية الفكر الإنساني كله والقول بأورية الحضارة الإنسانية بصفة عامة. فعل ذلك «بيتز» في كتابه مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهند ولقد ظهر هذا الكتاب في الثلاثينات من هذا القرن وهو يحمل العنوان السابق الذي يدل لأول نظرة على مقصده ومضمونه، ويدور الكتاب في معظم فقراته على سلب العقلية العربية كل خصائص الأصالة والابتكار لينسبها إما إلى الهند مرة ، وإما إلى اليونان في معظم الأحوال، فهو مرة يرجع أصول مقالات المتكلمين في الجوهر الفرد إلى أصول هندية، ومرات يرجع أصول رأي الرازي في نفس المشكلة إلى آراء أفلاطون وديمقريطس، وقد يتساءل المرء ولماذا الإصرار على إرجاع كل مصادر القول بالذرة عند علماء الكلام إلى أصل هندي، والجواب أن الهنود ليسوا جنساً

سامياً، أما العرب فهم ساميون لا يصلحون للإبتكار، ومعنى هذا أن المستشرقين يقبلون أن يكون للهند مذهب مستقل في الجوهر الفرد، ولا يرضون ذلك للعرب، وهل تستطيع أن تجد لهذا التحكم من تبرير عقلي سوى التعصب لفكرتهم عن تفوق العقل الآري على بقية الأجناس، ولخطورة هذه الدعوى أود أن أخصها بشيء من الرد التفصيلي عن أصالة الفكر الإسلامي واستقلاله عن الفلسفة اليونانية.

مناقشة هذه الدعاوى:

الفكر الإسلامي بين الأصالة والتقليد:

إن حياة الأمم وتقدمها رهن بقيمة تراثها وأصالته، فإن الأمة التي لا تراث لها لا ماضي لها ولا تاريخ لها تعتز به ، والشعوب التي تعيش بلا تاريخ ليست إلا كتلاً بشرية لا قيمة لها في ميزان الأمم، والتاريخ في جوهره ليس إلا تسجيلاً أميناً للجهود البشرية المتطورة والمتطلعة نحو الكمال ، والأمة العربية أشد الأمم في هذه الآونة من التاريخ احتياجاً إلى الدفاع عن تراثها وماضيها، ذلك أن الهجمات عليه قوية ومتوالية ومحكمة، ولم نقرأ في تاريخ الإنسانية كلها أن ثقافة هوجمت بمثل العنف والشراسة اللذين هوجمت بهما الثقافة العربية والإسلامية بصفة خاصة ، فمنذ أن فتح الاستعمار أعينه على منطقة الشرق العربي لم تكد تنقطع حملات التشكيك والتشهير بالفكر الإسلامي ورجاله، ذلك أن الثقافة العربية بخصائصها وروحها القوية كانت سياجاً قوياً وحصناً أميناً ضد الغزوات الفكرية التي تعرضت لها هذه المنطقة على مر التاريخ، ولما حل الإستعمار الحديث بهذه المنطقة مع ما تميز به من أساليب استعمارية امتازت بذكائها ودهائها استطاع أن يدخل على المسلم المعاصر ويلبس عليه الأمور من ناحية التشكيك في أصالة ما لديه من تراث وقيم.

ولقد بدأت هذه الحملات المسعورة على الفكر الإسلامي إبان القرن التاسع عشر حيث أشيع في تحامق وتعصب أن تعاليم الإسلام تتنافى مع النظر العقلي الحر ، وأنها لم تأخذ بيد العلم ، ولم تنهض بالفلسفة العقلية، ولم تنتج الثقافة الإسلامية إلا انحلالاً موغلاً واستبداداً ليس له نهاية. وكان من أخطر هذه الدعاوى قضية المفاضلة بين الأجناس، ولقد ظهرت هذه القضية في القرن التاسع عشر على يد الفيلسوف الفرنسي رينان في كتابه «تاريخ اللغات السامية» الذي صرح فيه بأن الجنس السامي أقل ذكاء ومرتبة من الجنس الآري ، وأخذت هذه المفاضلة عند رينان تضفي على العرب أوصافاً لم يقم عليها دليل من بحث أو دراسة.

وكذلك الأمر بالنسبة لديبور فإنه لا يمل من تكرار هذه الدعوى القائلة بأن الفلسفة الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة للفلسفة اليونانية بعد أن امتزجت بآراء الأفلاطونية المدحثة وليس للعرب في ذلك فضل يذكر سوى أن نقلوا علوم اليونان وفلسفتهم إلى العصر الوسيط بأوروبا المسيحية.

ونستطيع أن نلخص الدعاوى التي قال بها هذان المستشرقان حول هذه القضية في أمور محددة:

١ - إن العقلية الآرية أفضل من العقلية السامية.

٢- إن العقلية العربية تنزع بطبعها إلى رؤية الأشياء متباعدة فهي تدرك الجزئيات ولا تدرك الأمور الكلية.

٣ - إن الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكرار مشوهاً لآراء أفلاطون وأرسطو.

٤- إن العقلية العربية عاجزة عن الابتكار وليس لها في عالم الفكر من فضل يستحق أن يذكر.

وقد يكون الأمر سهلاً ومقبولاً لو أن هذه الإتهامات كانت قاصرة على المستشرقين وحدهم، إلا أن بعض الدارسين قد أخذ هذه الدعاوى وآمن بها واعتبرها غير قابلة للنقاش أو الرفض.

ولقد تردد صدى هذه الدعاوى في كثير من المؤلفات الحديثة وعلى صفحات الصحف اليومية والأسبوعية، وهذا في حد ذاته يعتبر هدفاً مقصوداً لحملات التشكيك الموجهة ضد الثقافة الإسلامية وتراثها ، ونود أن ننبه هنا إلى حقيقة مهمة جداً:

إننا لو فتشنا نحن في الثقافة الغربية وتاريخها وحاولنا أن ننتقدها بنفس المقاييس التي تناول بها المستشرقون علماءنا وأسلافنا لما نجا منهم مفكر واحد. وهذا أرسطو أعظم فلاسفة اليونان والغرب وقع في كثير من الأخطاء التي كانت أوروبا تدين بها على أنها مسلمات بديهية حتى اكتشف خطأه في القرن الخامس عشر، فلقد رفض أرسطو المذهب القائل بأن أصل الوجود هو الذرة وأخذ بنظرية العناصر الأربعة القائلة بأن أصل الأشياء هو الماء والهواء والنار والتراب ، وهذه النظرية قد رفضها مفكرو اليونان قبل أرسطو لظهور فسادها وقال أرسطو بأن الجسمين المختلفي الثقل إذا سقطا من شاهق فإن سرعتهما في السقوط تتناسب مع ثقلها تناسباً رأسياً، ومعنى ذلك أننا إذا ألقينا من شاهق حجرين وزن أحدهما كيلو جرام ووزن الآخر نصف الكيلو، فإن الحجر الأول يصل إلى الأرض في نصف المدة التي يستغرقها الحجر الثاني، وهذا قد ثبت بطلانه كما هو معروف في علوم الطبيعة والرياضيات من قانون الثقل النوعي ومقاومة الماء والهواء للأجسام.

وهذا لا يعيب أرسطو ، كما لا يعيب بعض مفكري الإسلام إذا وقعوا في أخطاء، فإذا أخذ المستشرقون على العرب أخطاء ومآخذ فهذا شيء لم تخل منه أمة من الأمم حتى تخلو منه الأمة العربية، وأما إذا كانت مآخذ

المستشرقين على الثقافة العربية بهدف إنكار أصالتها وسلب فضلها على مسار الحضارة الإنسانية، فمن واجبنا أن نكشف النقاب عن جهود علمائنا وعن فضل الثقافة العربية على النهضة الحديثة، وسوف تكون هذه الدعاوى التي وجهها المستشرقون إلى الثقافة العربية هي مدخلنا إلى توضيح ما للفكر الإسلامي من أصالة وما له من دور هام في حمل لواء الحضارة الإنسانية في وقت كانت أوروبا منغمسة في جهالة القرون الوسطى مكبلة بقيود التقليد الأعمى للحضارات السابقة.

الرد على «رينان»:

أولاً : أما عن قول رينان بأن العقلية العربية أقل شأناً من العقلية الآرية فهذه دعوى تفتقر إلى الدليل البرهاني، ولا يملك رينان في دعواه هذه إلا التعصب للجنس والثقافة ، وما أشبه هذه الدعوى بأكذوبة إسرائيل في وقتنا الحاضر بأنهم شعب الله المختار الذي يجب أن يسود العالم ، ولعل هذه الدعوى الأخيرة امتداد لسابقتها، وما أسهل على المرء أن يرسل الدعاوى العامة على علاتها بلا دليل لكي ينفس بها عن رغبة ملحة أو هوى مكبوت، والمنهج العلمي الصحيح يرفض تماماً أمثال هذه الدعاوى، ومن الخطأ الفاحش أن يظن رينان أن الفلسفة الإسلامية وليدة الفكر العربي وحده، أو العقلية العربية وحدها. فلقد أسهم فيها مفكرون من شعوب أخرى مختلفة الجنس واللون من فرس وهنود وأتراك وسوريين ومصريين وبربر وأندلسيين .

ثانياً : الإسلام قد حث أبناءه على المعرفة وطلب العلم ولم يقف في وجه طالب العلم أياً كان هذا العلم -عكس دعوى رينان- بل إن الإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقال لأبنائه اطلبوا العلم ولو بالصين، وكلمة العلم ينبغي أن تفهم هنا بمعناه العام المطلق الذي يشمل العلم

الديني والدنيوي معاً، وليس كما يدعيه بعض الباحثين بأن الإسلام لا يعرف العلم، إلا بالمعنى الديني فقط، ولو كان المراد بالعلم هنا معناه العلم الديني فقط، لما حثهم الرسول على الترحال في طلبه إلى الصين في الوقت الذي كان هو موجوداً بين أظهرهم وهو مصدر كل علم ديني للمسلمين.

ثالثاً : وإذا كان الجزء الأول من دعوى رينان يدل على تعصبه لجنسه فإن الجزء الأخير من هذه الدعاوى يدل على جهله بروح الإسلام وموقفه من العلم والنظر والتأمل الفكري المنزه عن الهوى والغرض إلا لطلبه الحق، فما كان الإسلام -وكتابه المقدس يدعو إلى التأمل في آفاق السموات والأرض- ليضيق الخناق على أبنائه ويمنعهم من النظر والتأمل في هذا الكون وما فيه من آيات.

رابعاً: على أن رينان قد تناقض مع نفسه في موقفه من الفكر الإسلامي، فهو حين ينكر الفلسفة الإسلامية ويجحد أصالتها في كتابه تاريخ اللغات السامية يعود في كتابه عن ابن رشد ومذهبه فيقرر أن هناك فلسفة إسلامية مستقلة يجب أن نتلمسها في مظانها الخاصة بها ، وأن العرب قد عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة بهم ، وإن الحركة الفلسفة الحقيقية في الإسلام ينبغي أن تتلمس في مذاهب المتكلمين ، وهذا الموقف المضطرب إن دل على شيء فإنما يدل على أن أحكام رينان على الفلسفة الإسلامية ليست مؤسسة على النظرة العلمية النزيهة، ولا على معرفة تامة بالفلسفة الإسلامية وتراثها.

خامساً: وأما اتهام رينان وديبور للتفكير العربي، بأنه يهتم بالجزئيات المتباعدة فذلك شيء ينبغي أن يحمد للعرب كما قال بذلك استاذنا المرحوم محمود قاسم، لأن المنهج العلمي الحديث يقوم أساساً على خطوات محددة، أولى هذه الخطوات هي ما يسمى بمرحلة البحث، وفيها يقوم الباحث بجمع

الملاحظات والتجارب في العلوم الطبيعية والإنسانية على سواء، وجمع الملاحظات ليس إلا ملاحظة الأشياء الجزئية المتباعدة ، ثم يحاول الباحث أن يربط بين هذه الملاحظات الفردية بما يتخيله من علاقات ومناسبات تجمع بين المتباعد منها ، وبهذا وحده يمكن للباحث أن يفسر الظواهر والوقائع التجريبية ، فكيف يعد ذلك اتهاماً وهو ركيزة من ركائز العلم التجريبي في القرن العشرين.

أخطاء ديبور:

وحين نناقش ديبور في دعواه أن الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكراراً لآراء أرسطو وأفلاطون بصورة مشوهة سوف نجد أن هذا الحكم فيه إجحاف بدور العرب وتجريد لهم من عبقريتهم التي أضافوها إلى الفلسفة اليونانية، وينبغي ألا ننكر أثر الفلسفة اليونانية على فلاسفة الإسلام وخاصة التقليديين منهم أمثال الفارابي ابن سينا. فلا شك أن الفلاسفة المسلمين قد أخذوا عن أرسطو بعض آرائه كما تأثروا بآراء أفلاطون أيضاً ، ولكن السؤال الآن هو: من من المفكرين لم يتأثر بمن سبقوه، وهذا حق مشروع لجميع الأجيال وليس هناك خلق من العدم كما يظن البعض ، وفلسفة اليونان في جوهرها ليست إلا نتاجاً لعباقرة سبقوا أفلاطون وأرسطو . وينبغي أن نتلمس مصادرها لدى قدماء المصريين وفلسفة الصين والفرس ، وإذا كانت الفلسفة اليونانية مدينة بالفضل لما سبقها من آراء وأفكار، فلماذا نحرم الفلاسفة المسلمين من التأثر بمن سبقهم أيضاً؟ وينبغي أن نشير هنا إلى أن تأثر هؤلاء بآراء أفلاطون وأرسطو لم يبلغ حد الإذعان والسيطرة لكل ماقالوه، بل نقضوا بعضها أحياناً ونقدوا بعضها أحياناً أخرى ، فإن ابن سينا قد نقد أفلاطون واعترض عليه في رأيه حول طبيعة النفس وجوهرها، كما أن ابن رشد قد رد كثيراً من أقوال أرسطو في المنطق وطبيعة النفس ، وألف ابن تيمية كتاباً مستقلاً عن نقض منطق أرسطو بين فيه تهافت هذا المنطق

عن تحصيل الجديد من العلوم، ولا شك أن نقل العرب هذه العلوم إلى أوروبا كان فاتحة لعصر النهضة الحديثة وهذا في حد ذاته مجهود كان لابد منه لبعث روح الحضارة التي كانت قد ماتت في أوروبا، ولقد تصدى للرد على هذه الدعاوى في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الأفغاني في كتابه الرد على الدهريين ونشر هذه الرد في مجلة العروة الوثقى، كما رد عليها أيضاً الإمام محمد عبده في مجلة المنار، وحين تجددت هذه الدعاوى بعد الحرب العالمية الأولى كتب الشيخ مصطفى عبد الرازق كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة في الإسلام ناقش فيه هذه الأقوال مناقشة مستفيضة كما تناولها أيضاً كل من الأستاذين الدكتور إبراهيم بيومي مدكور في كتابه العظيم في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، والدكتور محمود قاسم في كتابه نظرية المعرفة عند ابن رشد.

وأما قول ديبور بأن العقل العربي لم يبتكر شيئاً في مجال الفكر يستحق التسجيل فيكفي لإبطال ذلك أن نورد هنا بعض الأمثلة من مختلف العلوم التي كان للعرب فضل السبق إليها والابتكار فيها، ولن يكون اختيارنا لهذه الأمثلة اختياراً عشوائياً وإنما سنورد أمثلة من العلوم التجريبية التي هي بحق مقياس النهضة الأوربية في عصرنا الحاضر.

١ - في العلوم الرياضية:

إن تاريخ الرياضات المعاصرة يدين بالفضل إلى حد كبير لتراث العرب وماخلفوه من مؤلفات في هذا العلم ظلت حبيسة المكتبات والمتاحف وفي بطون المخطوطات إلى وقت قريب، وللأسف الشديد فقد اهتم غير المسلمين وغير العرب بهذا التراث ونفضوا عنه غبار الزمن وفتحوا له صدورهم وعقولهم وأنشأوا لإحيائه المؤسسات والمراكز البحثية ورصدوا لطباعته ونشره الميزانيات الضخمة، بل إن العرب والمسلمين لم يعرفوا قيمة هذا التراث إلا

بعد أن وقف الغرب على نشره وتحقيقه الجهود الكبيرة ، ولعل من أكبر المهتمين بإبراز دور العرب في النهضة العلمية في أوروبا «جورج سارتون» في كتابه «تاريخ العلم»، و «ل ديورانت» في كتابه «قصة الحضارة» ، كما أفرد العالم الإيطالي «أولدو ميلي Oldo Mieli» مجلداً خاصاً لبيان فضل العرب في الرياضيات، وكذلك ينبغي ألا ننكر فضل «يوسكوفيتش» في كتابه « تاريخ الرياضيات » حيث عقد فصلاً خاصاً أسماه الرياضات العربية .

ولقد اطلع العرب على علوم الأمم الأخرى حيث امتزجت الحضارة الإسلامية بالحضارات المجاورة للأمم الأخرى في الهند وفارس وصارت بغداد بوتقة انصهرت فيها هذه الحضارات في مدرستي الكوفة، والبصرة، وفي بغداد العاصمة التي تأسست فيها مدرسة رياضية كبيرة تمت فيها ترجمة رياضيات «أرشميدس» و«بطليموس»، وانتقلت إليها نظريات «فيثاغورث»، في الهندسة.

ولم يقف جهد العقل العربي في الرياضيات على مجرد الاختراع فقط بل تعدى ذلك إلى الاختراع والابتكار:

أ - الأعداد :

وقف العرب على نظام الأعداد والترقيم للأمم المجاورة واستحسنوا فيها الأرقام الهندية فأخذوا بها وطوروها ونظموا أشكالها حيث لم تكن موحدة بالشكل الذي نعرفه الآن فوحدها العرب وهذبوها وتفرع عنها نوعان من الأرقام عرفت احداهما بالأرقام الهندية وهي التي يستعملها أكثر شعوب العالم العربي الآن. كما عرفت الثانية بالأرقام الغبارية أو الأرقام «الفاسية» نسبة إلى فاس بالمغرب واشتهرت هذه الأرقام الأخيرة ببلاد المغرب والأندلس ولازالت تستعمل بها حتى الآن، وهي التي تعرف في أوروبا بالأرقام

العربية، وكان أهم ما في هذه الأرقام الصفر الذي ساعد على وضع الأرقام في سلسلة مضاعفات العشرة والمئة والألف. ومن الجدير بالذكر أن كلمة صفر عربية وهي ترجمة للكلمة السنسكريتية sumga وتعني الفراغ.وأول تمثيل للصفر على شكل نقطة ظهر على قرطاس يرجع تاريخه إلى عام ٨٧٣م[١]، والصفر لم يكتشف في الهند إلا في القرن الثامن الميلادي ونقله العرب عنهم وبدأوا العمل به قبل أن يتقدم الهنود في استعماله ومن العجيب حقاً أن أول كتاب ألف بالعربية وظهر فيه الصفر مرسوماً نقطة كما نرسمه اليوم ظهر سنة ٢٧٤هـ الموافق ٨٧٤م بينما أول نقش هندي ظهر فيه الصفر يرجع تاريخه إلى سنة ٨٧٦م أي بعد استعمال العرب الصفر في كتبهم بعامين[٢].

ولاشك أن العالم عرف الأرقام العددية والصفر الهندي عن طريق العرب وليس عن طريق الهنود ولاتزال هذه الأرقام تحمل اسمها العربي إلى اليوم في أوروبا، وكذلك الصفر فإنه في الإنجليزية صيفر(Cipher) وفي الألمانية تسيفر(Ziffer) وفي الفرنسية شيفر(Chiffre) وفي الإيطالية شيفرا(Cifra) وبواسطة الصفر أمكن تحديد مراتب الأعداد وقيمتها حسب موضع الصفر منها يميناً أو يساراً ، والعرب لم يفهموا الصفر على أنه عدم كما يفهم الناس ذلك خطأ ولا كما فهمه الأوربيون أول أمرهم حين سموه (Nol)ويعنون به العدم، بل إن الصفر قيمة ما يطرأ بسببها تبدل أساسي على الأعداد المأخوذة معه حسب موضعه فيها.

ب - ولقد استطاع غياث الدين الكاشي في أول القرن التاسع الهجري أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها بصورة أدق مما نعرفه

---

(١) إسهام علماء الإسلام في الرياضيات ، عبد الله طحطاح، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ص٢٨٦

(٢) نشرة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٦٨م

عليها اليوم[1].

جـ - وأول من ألف في الجبر هو المفكر العربي «الخوارزمي» صاحب كتاب حساب الجبر والمقابلة، واستطاع أن يحل معادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة، واستطاع عمر الخيام المتوفى٥١٧ هـ حل المعادلات من الدرجة الرابعة وهذا أرقى ما وصل إليه علماء الرياضيات في عصرنا الحاضر.

د - كما سبق العرب إلى اكتشاف النظرية القائلة بأن مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً وهذا هو أساس النظرية التي اشتهر بها الرياضي الفرنسي «بيبر» المتوفى سنة ١٦٦٥م ، وفضل العرب على علم التفاضل والتكامل لا ينكره أحد.

٢ - في العلوم الطبيعية:

اهتم العرب بهذه العلوم في فترة مبكرة من التاريخ ، فلقد اشتغل خالد بن يزيد الملقب بحكيم آل مروان بعلم الكيمياء في القرن الأول للهجرة وانتدب لذلك جماعة من مدرسة الاسكندرية بمصر سنة ٦٨٣م ، وأمر أحدهم وهو اصطفن الاسكندري بنقل كتب الكيمياء إلى العربية حتى يقف العرب على حقيقتها، ولعل هذه أول ترجمة حدثت في الإسلام، ثم جاء جابر بن حيان فبلغ في ذلك شأناً عظيماً، على أن مجهودات البيروني وابن الهيثم والكندي في هذه العلوم لا يجهلها أحد من المشتغلين بها ، ويكفي أن كتاب «المناظر في البصريات» لابن الهيثم في قوانين الضوء يعد جزءاً من العلم الحديث إلى اليوم خاصة إذا علمنا أن كتب ابن الهيثم ترجمت إلى اللاتينية في زمن متقدم على النهضة الحديثة، ولقد أفاد منه روجر بيكون سنة ١٢٩٢ وجون بكام سنة ١٢٩١هـ ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن عالماً متقدماً

---

(١) المنطق الحديث ، د. قاسم: ٣٣

كابن الهيثم قد راودته فكرة بناء السد العالي للانتفاع بنيل مصر قبل تنفيذ هذه الفكرة بما يزيد على الألف عام.

ومن الذي يستطيع أن ينكر فضل العرب في الطب بعد أن ذاعت شهرة الأطباء العرب في أوروبا كلها عبر العصور الوسطى، فلقد عرف العرب الطب والتشريح وعلوم الصيدلة في وقت مبكر من التاريخ ابتداء من الكندي والرازي وعلي بن العباس، كما ظهرت المؤلفات الطبية في الفكر العربي، أما كتاب القانون لابن سينا فأشهر من أن يشار إليه، فلقد اعتبرته الجامعات الأوربية أهم مرجع في الطب في العصور الوسطى ، فكان يدرس في مدارسها وجامعاتها على حد سواء، ولقد ترجمه إلى اللاتينية (جيزار الكريموني المتوفى سنة ١١٨٧م) في طليطلة، ولم تكد طبعته اللاتينية تظهر في حوالي سنة ١٤٧٣م حتى لقي الكتاب شهرة كبيرة فنقل إلى اللهجات المحلية، وأول من اعترف بالقانون كمرجع أساسي في الطب هي جامعة بولونا في القرن الثالث عشر للميلاد، حيث انشئت كلية العلوم في تلك الجامعة سنة ١٢٦٠م ومنذ ذلك التاريخ بدأ قانون ابن سينا يغزو جامعات أوروبا وانجلترا واسكتلاندا وأصبح هذا الكتاب يمثل نصف المقررات الطبية في أواخر القرن الخامس عشر.

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أن مؤلفه قد عرض فيه الكثير من الأمراض ووصف علاجها مع ملاحظات مبتكرة في تشخيص نوع المرض ووصف العلاج له، ومن ابتكارات ابن سينا في هذا الكتاب تعرضه لخصائص العدوى في أمراض الرئة والأمراض التناسلية والاضطرابات العصبية والنفسية عن طريق تحليلاته النفسية التي يعد مذهبه فيها منهجاً قائماً بذاته

٣ - في مناهج العلوم:

لعل من أحدث الدراسات التي يعنى بها الآن، هو دراسة المناهج للعلوم

المختلفة وتطبيقاتها، وإذا كان المختصون بدراسة مناهج البحث في العلوم يولون أهمية كبرى لما يجدونه من تحديد دقيق لهذه المناهج لدى مفكري أوروبا المحدثين فمن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أصول لهذه المناهج في تاريخ الفكر الإسلامي حتى ينسبوا الفضل إلى أهله، ولقد قام المرحوم الدكتور محمود قاسم بإلقاء بحث هام عن دور العرب في تحديد مناهج العلوم الإنسانية كشفت فيه زيف ما يدعيه المستشرقون من أن العرب ليس لهم فضل يذكر في هذا المجال.

ولا يتسع المجال هنا لعرض تفاصيل ما قام به العرب من دور هام في تحديد مناهج العلوم، لأن هذه المناهج كانت مطبقة فعلاً في العلوم العربية والإسلامية فالإمام الشافعي قد عرف القياس والإستقراء وطبقهما في مذهبه الفقهي، وكذا علماء الفقه والأصول واللغة فضلاً عما قام به علماء الحديث في هذا المجال، ويكفي أن نشير هنا إلى نموذجين مختلفين من مفكري الإسلام كابن تيمية وابن خلدون لنرى أن عناصر المنهج العلمي الحديث كانت واضحة لديهما تمام الوضوح.

أولاً : أما ابن تيمية فإنه يعكس في تراثه كله العقلية المنهجية بوضوح كامل، رغم تشدده مع خصومه من الفلاسفة وعلماء الكلام والمتصوفة، ولقد هاجم هذا المفكر الفلسفة الأرسطية المتمثلة في تراث الفارابي وابن سينا كما هاجم الغزالي والرازي في كثير من كتبه ، لكنه كان يعتمد في موقفه من هؤلاء وأولئك على الإستقراء الكامل لرأي مخالفيه في المشاكل الفلسفية المتعددة، فيجمع العناصر الفرعية لآرائهم كل على حدة ثم يربط بينها ويستنتج منها الحلول والأحكام التي يصدرها على هؤلاء ، ويشير المرحوم الدكتور قاسم في بحثه المشار إليه إلى أن هذا المنهج الذي طبقه ابن تيمية قد هداه إلى اكتشاف أوجه النقص في المنهج اليوناني وفي منطق أرسطو بالذات، ووضع لكشف أخطاء المنطق الأرسطي كتابين هما «نقض المنطق ،

والرد على المنطقيين»، وكشف ابن تيمية في هذين الكتابين عن قواعد منهجية كبرى وجدناها مطبقة لدى مفكري أوروبا في القرن السابع عشرة فمثلاً نقض ابن تيمية الفكرة التي سادت في أوروبا عصوراً طويلة وهي القائلة بأن منطق أرسطو هو الأداة أو المنهج العلمي الذي يجب تحصيلة كشرط ضروري لكسب المعرفة في مختلف فروع الدراسة، ويقول ابن تيمية «إن الحاذقين في العلوم الطبيعية والطبية لم يستعينوا بالمنطق وأبو الطب أبقراط له كلام مقبول من جميع الأطباء وقد وجدنا مصداق قوله بالتجارب ومع ذلك لم يستعن بشيء من هذه الصناعة (المنطق).

كذلك فطن ابن تيمية إلى أنّ منطق أرسطو ليس في الحقيقة إلا تحصيل حاصل بمعنى أنه لا يضيف جديداً من المعارف إلى من يأخذ به ، وأحسن ما يقدمه المنطق أنه يستخدم في عرض المعلومات التي تكون قد اكتسبناه بخبرتنا السابقة.

ويقرر ابن تيمية أن علماء الطب والحساب والنحو وأهل العلوم المختلفة لا يستعينون في مؤلفاتهم بالحدود المنطقية، وأن القياس المنطقي الذي وضعوه وحددوه لا يعلم بمجرده شيء من العلوم الكلية الثابتة في الخارج، وينتهي ابن تيمية إلى تقرير حقيقة منطق أرسطو حين يقو «أما بعد فإني كنت دائماً أعلم أن المنطق اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به الغبي، ولكني كنت أحسب أن قضاياه صادقة لما رأيته من صدق الكثير منها، ثم تبين لي فيما بعد خطأ طائفة من قضاياه.

وإذا تركنا موقف ابن تيمية من منطق أرسطو لنرى ما يقول ديكارت في القرن السابع عشر عن هذا المنطق لم نجد لديه أكثر مما قال ابن تيمية قبل ذلك بثلاثة قرون، لقد قال ديكارت أن القياس يستخدم بالأحرى لكي يفسر المرء للآخرين الأشياء التي يعلمونها بدلاً من أن يكشف لهم عن تلك التي

يجهلونها ، ولذلك فمن واجب المفكرين أن يقلعوا عن استخدام القياس على النحو الذي كان يفعله أتباع أرسطو حتى القرن السابع عشر وأوجست كونت كان يردد في القرن الماضي ما قاله ابن تيمية عن منطق أرسطو أما في القرن الثالث عشر الذي كانت علوم العرب تغزو فيه أوربا فإننا نجد روجر بيكون يدعو معاصريه ألا يصبوا لعناتهم على الرياضة والملاحظات والتجارب بدعوى أنها علوم عربية وإسلامية ، بل عليهم أن يفسحوا المجال لها إيماناً منه بأن دلك هو الطريق إلى منهج جديد وروجر بيكون هذا هو الذي لقبه رينان بأنه الأمير الحقيقي للفكر والأوروبي في القرن الثالث عشر[1] .

ثانياً : أما ابن خلدون فبالإضافة إلي أنه أول من أسس علم الاجتماع على منهج علمي سليم قائم على استقراء أحوال البلاد وظروفها الطبيعية فإنه قد اهتدى إلى أن هناك نوعين من الاستقراء أحدهما فطري والآخر علمي. وهذه الفكرة وجدناها عند كلودبارنارد في القر التاسع عشر وشرح كل من هذين المفكرين لهذين النوعين من الاستقراء يكاد يكون واحداً. فرغم اختلاف الاستقراء الفطري عن الاستقراء العلمي في الدرجة إلا أن كلاً منهما طريق صحيح لكسب المعلومات الجديدة التي لايمكن الوصول إليها عن طريق القياس اليوناني، و ابن خلدون يشرح الاستقراء الفطري بأنه عبارة عن المعاني التي يستخدمها المرء في التطبيق العملي دون أن يشعر بها لأنها من المعاني التي اكتسبها عن طريق الخبرة الزمنية، وهذه المعاني لا تبعد عن الشعور ولا يلتفت إليها المرء ليتعمق فيها ، يقول ابن خلدون «بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفاد ، لأنها معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريباً من الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها .

وفي هذا النص نجد أن خطوات المنهج الاستقرائي الفطري محددة وواضحة حيث يجمع المرء الوقائع الجزئية عن طريق التجارب اليومية ثم

---

(١) عبقرية العرب : عمر فرج ، صـ٦٤

يضع فروضاً تكاد تكون غير شعورية ثم يتحقق من صدقها أو كذبها بالواقع.

وما سماه ابن خلدون بالاستقراء الفطري هو ما اطلق عليه كلود بارتارد بالخبرة العملية غير الشعورية التي يكتسبها المرء بمباشرة الأشياء ومع ذلك فمن الضروري أن تكون هذه المعرفة المكتسبة بهذا الطريق مصحوبة بتفكير تجريبي غامض يتم بطريقة غير شعورية يقوم بها الإنسان دون أن يدري، وفرق ابن خلدون بين الاستقراء الفطري والعلمي، فإن الاستقراء العلمي يتم بطريقة شعورية للوصول إلى غاية محددة ، وذلك بأن ينتقل الباحث بطريقة مقصودة من دراسة الأمثلة الجزئية حتى يصل إلى القاعدة العامة.

هذه بعض النماذج التي ذخر الفكر العربي بالكثير منها في وقت كانت أوروبا تقف فيه من هذا التراث موقف التلميذ المتلقي، ولا أدل على ذلك مما كتب في دائرة المعارف البريطانية[1].

لايستطيع أحد أن ينكر ما اتصف به التفكير الغربي في العصور الوسط من البعد التام عن العلم وعن النقد. أن وجود شخص واحد مثل روجر بيكون في عصر ما لا يبرئ ذلك العصر من تهمة الجهل «ولقد أبدى بيكون إعجابه في أكثر من موقف من الرجل الذي يريد أن يبحث في الفلسفة دون أن يعرف اللغة العربية[2] ، وهذا يعتبر اعترافاً صريحاً من روجر بيكون بقيمة الزاد الحضاري الذي أمكن أن تقدمه هذه اللغة في تراثها، ولا يخفى أن هذا المفكر نفسه قد أفاد من هذه اللغة وتراثها بحيث اعتبره الأوروبيون أباً للفكر الحديث.

(١) ج ١٧/ ٤١٠ ط ١١
(٢) انظر فروخ ١١٥ Addison. 46

بين الاستشراق والاستعمار:

يعتبر الاستشراق من أهم الوسائل التي مهدت للاستعمار العسكري وغزو الشرق ثقافياً وعسكرياً، والاستعمار الحديث يعتمد على المستشرقين بصورة فعالة في دراسة نفسية الشعوب، وعاداتها، وتقاليدها، وأفضل الوسائل للسيطرة عليها بأقل قدر ممكن من التكاليف، والذي يتابع أحداث القرن التاسع عشر والقرن العشرين (وهما أكثر القرون في النشاط الاستعماري)يعلم مدى الصلة القوية بين الاستعمار والاستشراق، ومن هنا فإننا نجد في كثير من سفارات الدول الاستعمارية مستشرقين عاملين بها، ويقع على عاتق هؤلاء المستشرقين مهمة الاتصال بالعقول المفكرة في البلاد التي يريدون السيطرة عليها ثقافياً أو عسكرياً وكذلك الاتصال بكبار العاملين في المناصب القيادية في مجالات الثقافة والإعلام والتعليم العام والجامعي، ولا تنقصهم الوسائل المناسبة في محاولة احتواء هذه الشخصيات عن طريق الصداقة أو المشاركة في أعمال ثقافية أو تقديم الخبرة لهم، أو .. أو .. إلخ، وعن طريق هذه الشخصيات يستطيعون تنفيذ خططهم في غزو البلاد فكرياً ثم عسكرياً إذا اقتضى الأمر، وقد استطاع الاستعمار الحديث أن يغزو معظم البلاد الإسلامية فكرياً وثقافياً عن هذا الطريق، كما استطاع أن ينفذ خططه في السيطرة على عقول كثير من المفكرين في بلادهم ليكونوا هم الأداة لتنفيذ برامج الاستعمار في هذه البلاد.

وبلغ الأمر في ذلك مبلغاً خطيراً ، حتى إن كثيراً من المشتغلين بالثقافة جعلوا أنفسهم بمثابة وكلاء عن المستشرقين في توزيع أفكارهم والدعوة إلى تبني آرائهم في الفكر الإسلامي وقضاياه، فهذا مندوب عن ماركس والشيوعية، وذاك مندوب عن الوضعية والوضعيين، وثالثهم مندوب الوجودية والوجوديين ، وآخر يدعوا إلى القول بتأنيس الأله أو تأليه

الإنسان.. إلخ وامتلأت المؤسسات الثقافية في مصر والشام وشمال أفريقيا بوكلاء معتمدين لتوزيع الفكر الاستشراقي على المؤسسات العربية، وشحذ الوجدان العربي بمفاهيمهم تحت مقولات مضللة كالتنوير والتقدمية والنهضوية .. إلخ .

ولقد عمد هؤلاء إلى إثارة الفتنة حول بعض القضايا الخلافية في الفكر الإسلامي وعملوا على إحياء الخلافات حولها.

فلقد آثاروا فتنة كبيرة حول ما أسموه بقضايا المرأة في الإسلام ، مثل قضية الطلاق ، وتعدد الزوجات والعصمة. وتعدد زوجات الرسول .. إلخ ، ونقلوا إلى العالم الإسلامي مشكلات دخيلة لا وجود لها أصلاً في الإسلام وإنما هي موجودة في الغرب بحكم ثقافتهم وديانته، وشغل المسلمون أنفسهم بهذه المشكلات ، وبالبحث عن حلول لها ، وكان هذا مجالا واسعاً للفرقة والتعصب والتحزب للرأي ضد الرأي الآخر ومازال المسلمون يكتوون بنار هذه الفرقة إلى الآن.

وكان من الآثار الخطيرة التي ترتبت على إثارة هذه القضايا أن فريقاً كبيراً من المثقفين العرب قد انقادوا وراء هذه الضجة وأخذ البعض يتولى نيابة عن المستشرقين -إثارة هذه الفتن بين صفوف المسلمين ، ويتبنى آراءهم ويدعو إلى الأخذ بأفكارهم ، وبدلاً من أن يكون الخلاف دائراً بين المسلمين كوحدة متماسكة والمستشرقين كجبهة مضادة انتقلت المعركة إلى أرض المسلمين أنفسهم لتفرق صفوفهم وتمزق وحدتهم، فأصبحوا جبهات متعارضة بين مؤيد ومعارض، بين رافض للفكر الاستشراقي وموقفه من الإسلام، ومؤيد ومبرر له تحت دعوى التنوير والتقدمية ، وهذه الفرقة في الصف الإسلامي هي في حد ذاتها تمثل هدفاً وغاية سعى المستعمر لتحقيقها خلال جهود المستشرقين في ذلك، وكان شغل المسلمين بعضهم بعضاً حول هذه

الخلافات التافهة واستنفاذ وقتهم وجهدهم في ذلك وانشغالهم عن قضايا مستقبل أمتهم الذي يعبث غيرهم به كان ذلك كله تحقيقاً لأهداف سعي المستشرقون من ورائها إلى السيطرة على عقول نخبة كبيرة من المشتغلين بالثقافة العربية في بلادنا، واستطاعوا من خلال السيطرة على هذه العقول أن ينفثوا سمومهم في حاضر الثقافة العربية بالتشويه أحياناً وبالتشكيك أحياناً أخرى ، وسوف أعرض بإيجاز شديد لبعض النماذج الفكرية التي تبنت هذا الفكر الاستشراقي ودعت إليه.

١ - ففي مطلع هذا القرن نادى سلامه موسى بوجوب التخلص من الغيبيات حتى نستطيع أن ننهض كما نهضت أوروبا « .. أي النظر إلى هذه الدنيا كأنها الغاية التي ليس وراءها غاية تخدم ، وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آداب وفلسفات وعلوم لا تمت بأي صلة إلى الغيبيات، إن علينا أن نعتمد على أنفسنا في تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها وألا نزهد فيها إيثاراً عليها للعالم الثاني كما هي النظرة الغيبية .. والنهضة الأوروبية التي أخرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى لا تعني شيئاً آخر غير ذلك »[1]

ثم يصرح في موضع آخر بضرورة التخلص من العقائد الدينية والاعتماد كلياً على العقل.« .. إذ ليس في الكون كله ما يعتمد عليه سوى العقل، وليس للإنسان خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه أن يطمع في تحقيق سعادته فيه .. وأن الانحطاط لم يعن في القرون الوسطى. وهو لا يعني الآن في الشرق أو الغرب سوى قصر الذهن البشري على خدمة ما وراء الطبيعة ونشدان السعادة والهناءة في غيرهذه الأرض[2] ».

ولا يألو سلامة موسى جهداً في تكرار القول بوجوب محاكاة الحضارة

---

(١) سلامه موسى ، ماهي النهضة ، ص ١٥ بتصرف.

(٢) نفس المرجع ، ص ١٦

الأوربية حتى نحيا حياة كريمة «إذ لا يمكن لإمة أن تحيا إذا خالفتها .. ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون»[1]

٢ - وكتب قاسم أمين قبل ذلك كتابه عن تحرير المرأة أثار فيه مشكلات لا وجود لها إلا في ذهن المستشرقين ونادى فيه بوجوب أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة في أوروبا وفرنسا بالذات شبراً بشبر ، وأن ترفع صوتها رافضة قضية تعدد الزوجات، وحقها في الطلاق .. إلخ.

٣ - أما علي عبد الرازق ، فألف كتابه عن «الإسلام وأصول الحكم» ليعلن فيه أن الإسلام دين لا دولة. عقيدة لا شريعة، وحي لا دستور، وليس في الإسلام نظام لسياسة الدولة[2] والكتاب من أوله إلي آخره يعرض الآراء التي استقاها المؤلف من كتابات المستشرقين عن الدين دون أن يدركوا الفوارق الأساسية بين مفهوم كلمة الدين المسيحي كما عاشوه في أوروبا والدين الإسلامي كما هو في الكتاب والسنة، وقد آثار هذا الكتاب ضجة كبيرة بين علماء الأزهر الشريف، حيث قرر الأزهر منع تداول الكتاب وعدم طباعته، وفصل صاحبه من سلك القضاء الذي كان يعمل به ..

٤ - كما سار على نفس النهج طه حسين في كتابه عن «الشعر الجاهلي» الذي حاول فيه أن يطبق مقاييس منهج ديكارت في الشك على نصوص القرآن الكريم، وطبقاً لهذه المقاييس النقدية فإنه لايكون هناك شيء مقدس فوق النقد ومن خلال تطبيقه لهذا المنهج النقدي، قال بأن قصة إسماعيل الذبيح الذي ينتمي إليه الغرب، قصة خيالية حيث «كانت قريش مستعدة لقبول هذه الأسطورة وأمر هذه القصة واضح قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي.

---

(١) نفس المرجع ، ص ٩٠

(٢) راجع الإسلام وأصول الحكم ، على عبد الرازق ، ط . القاهرة سنة ١٩٢٥م.

كما صرح بما هو أخطر من ذلك حيث يقول: ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه، ولا آمن به بعضهم ، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر»[1]

كما صرح طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» بضرورة محاكاة الغرب فننام كما ينامون .. ونأكل كما يأكلون، ونتكلم بلغتهم كما يتكلمون . وهذا ما نادى به سلامه موسى وغيره .. وهذه قضية كبيرة لا تحتاج في مقامنا هذا إلى تفصيل ولكن أردت من ذكر هذه النماذج أن أضعها أمام القراء حتي لا نخدع أنفسنا بشعارات زائفة تحت شعار التنوير والتقدمية .

وهناك نماذج أخرى كثيرة لم يكن لديها قدر كاف من المعرفة الدقيقة بالثقافة الإسلامية وخصائصها لأنه بدأ حياته على موائد الغرب الثقافية واكتفى بعضهم بأن يكتب -ساخراً- عن تطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ الحدود في السارق والزاني وشارب الخمر، ويقول على سبيل السخرية: من الذي يتولى قطع يد السارق الجزار أم رئيس الجمهورية . وحاولوا من خلال مراكزهم الاجتماعية في وسائل الإعلام أن يكتبوا المسرحيات والمسلسلات التلفزيونية التي تسخر من رجل الدين ورجال اللغة العربية وتنال منهم كرموز للفكر الإسلامي والقائمين على حراسته، وكم من مسرحيات أو مسلسلات كتبها أصحابها لهذا الغرض وكان أثرها في نفسية المجتمع أشد وأعظم من وقع الحسام على الرقاب ، وترتب على ذلك أن تغيرت نظرة المجتمع إلى معلم الدين ومعلم اللغة العربية وتراجعت مكانة كل منهما عن الصدارة الاجتماعية ليحل محلها الرجل (المودرنيزم) الذي صنعه الاستشراق على عينه وتعهده وكلاء الاستشراق في بلادنا بالمناصب القيادية المؤثرة في توجيه الرأي العام في المجتمع ليقول للناس : ما أريكم في وسائل إعلامكم إلا

(١) راجع في الشعر الجاهلي لطه حسين ، ص ١٨ -٣٠

ما أرى .

ولقد كان للبلاد الإسلامية نصيب موفور في هذا الشأن ، وكانت الوسائل الاستعمارية التي نادى بها الاستشراق في العالم الإسلامي تهدف كلها إلى إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب ، وتعمل على بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد ليسهل بعد ذلك السيطرة عليها ، كما روج المستشرقون كذلك لبعض القضايا التي كان لها أخطر النتائج في ازدياد عوامل الفرقة بين صفوف المسلمين ، فمن ذلك مثلاً:

١- العمل على إحلال العاميات محل اللغة الفصحى في مصر وغيرها بدعوى أن الفصحى ليست قادرة على مسايرة الكشوف العلمية المتطورة، وكان أول من نادى بها في مصر المستشرق الألماني (ولهلم سبيتا) وكان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ووضع كتابه (قواعد اللغة العربية العامية في مصر) سنة ١٨٨٠م مجد فيه اللغة القبطية في مصر، ودعا دول العالم العربي إلى الأخذ بالعاميات بدلاً من الفصحى، ولا يخفى ما في هذه الدعوى من الخطر على الإسلام ولغة القرآن .

ثم تابع نفس القضية (اللورد دوفرين) في تقرير وضعه سنة ١٨٨٢م أعلن فيه أن العامية هي سبيل النهوض والتقدم في مصر، وجاء بعده المستشرق الألماني(كارل فولرس) مدير دار الكتب المصرية بعد «ولهلم» فوضع كتابه (اللهجة العامية الحديثة) دعا فيه إلى هجر الفصحى وحث العرب على استخدام الحروف اللاتينية بدلاً من العربية، ثم تتبع القضية في مصر سلامة موسى النصراني في مطلع هذا القرن، ومازلنا نسمع صداها إلى الآن ونقرأ ذلك في كتابات بعض المشتغلين بالشؤون الثقافية والتربوية.

٢- أما القضية الثانية: تتلخص في تلك المحاولة التي يقوم بها

المستشرقون ومن تأثر بهم،حيث يقولون أن سبب تأخر الشرق الإسلامي مادياً علمياً يرجع إلى تمسكهم بالدين الإسلامي وتعاليمه، ولا مناص للشعوب الإسلامية إذا أرادوا أن يتغلبوا على هذا التخلف الحضاري إلا أن يتخلصوا من تعاليم دينهم أولاً، وأن ينحوا الإسلام بعيداً عن شؤون حياتهم اليومية، ليكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه وشعائره إذا أراد ذلك في بيته أو في المسجد وكفى، ويقارن هؤلاء بين تقدم الغرب وتأخر الشرق، ويطرحون على الشباب هذه المقارنة الظالمة ليبينوا فيها إن تقدم الغرب كان سببه هو التخلص من الدين عموماً، والتمسك بمنطق العلم فقط، وليس أمام الشرق إلا أن يسلك مسلك الغرب في ذلك لأنه النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر وهذه القضية من أخطر القضايا المطروحة الآن في الساحة الثقافية وهي بؤرة الحوار أو الصراع بين العلمانيين والإسلاميين.

ولقد جند المستشرقون كثيراً من حملة الأقلام وسخروهم للترويج لهذه الأكذوبة في البلاد الإسلامية ، وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية - للأسف الشديد- بعض المحترفين للكتابة من المسلمين نيابة عن الاستعمار، فعل ذلك بعض حملة الأقلام في مصر، والشام، والعراق، وتونس، والجزائر، والمغرب، كما شغلت الدعوة لهذه القضية كثيراً من وقت أجهزة الإعلام صحافة وإذاعة وتلفازاً، وعقدت من أجلها الندوات، وأقيمت المؤتمرات والمناظرات، ووصل الأمر بها أن تسللت إلى بعض قاعات الدرس الجامعي تحت ستار التنوير، والمعاصرة، واستغل بعضهم الوضع المتردي للمسلمين ليفهم الشباب أن سبب هزائمهم المتكررة، هو التمسك بالإسلام. وتناسى هؤلاء أن للنصر أسبابه وللنهضة أسبابها، وأن للهزيمة أسبابها، وللتأخر أسبابه كذلك، وأن إقحام الدين في ذلك تضليل وافتراء، ولا يحتاج الأمر في توضيح هذه الأسباب إلى عناء كبير.

لماذا لم يقارنوا بين نظم الحكم في الغرب ونظيرها في الشرق؟!

لماذا لم يقارنوا بين ما يتمتع به الغرب من حرية وديمقراطية ، وما هو واقع في الشرق من استبداد في الحكم لا نظير له في أي بلد في العالم. ؟!

إن أسباب التقدم تكمن في احترام هذه الأسباب وضرورة الأخذ بها واحترام العلماء الذين أفنوا أعمارهم في الكشف عنها والتنبيه إليها، ولقد نبه ابن خلدون إلى ذلك قديماً كما نبه إليه المفكرون حديثاً وأن السنن الكونية لا تتخلف آثارها إذا ما وجدت الأسباب سواء تعلق ذلك بالأفراد أم تعلق بالجماعات والأمم، فللنصر أسبابه وللهزائم أسبابها؛ كما أن لقيام الحضارات أسبابها ولانهيار الحضارات أسبابها، وتلك سنن الله في كونه لا فرق فيها بين أمة مسلمة وأخرى كافرة.

والقضية كلها تتمثل عندي في أسئلة محددة:

١ - هل حقيقة أن أوربا قد نفضت يدها من قضايا الدين فلم تعبأ به؟

٢ - وهل حقيقة أت رفضها للدين كان سبباً في تقدمها؟

٣ - وهل حقيقة أن سبب تأخر الشرق العربي يرجع إلى تمسكه بالإسلام وأخذه به؟

٤ - قبل الإجابة على هذه الأسئلة أجد هناك سؤلاً لابد من طرحه: هل الإسلام يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم العلمي والحضاري؟

وفي رأيي أن وضع القضية كلها في هذا الشكل يكون أكثر تحديداً وموضوعية بدلاً من التلاعب بالألفاظ بوضعها في غير موضعها الحقيقي، وبهذا التحديد نستطيع أن نضع النقاط فوق الحروف.

ولعل الإجابة على السؤال الأخير تعطينا المفتاح الحقيقي للإجابة على

الأسئلة السابقة، فإن الأخذ بالمفاهيم الدينية الصحيحة لا يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم، لأن العلاقة بينهما ليست علاقة تضاد أو تناقض حتى نظن أو نتوهم أن التمسك بالدين الصحيح سبب تأخر أهله، وإنما هي علاقة اشتمال وتداخل أو مايسمى في عرف المناطقة بعلاقة العموم والخصوص المطلق، فكل ما هو دين صحيح لابد وبالضرورة أن يكون فيه تقدم للبشرية وأمن وأمان لها وكلمة «صحيح» هنا مقصودة بذاتها، حتى لا يعد من الدين ما ليس منه، وحتى لا يرتكب باسم الدين ما لا يمت إليه بسبب ، كما أن التقدم الذي ينشده الدين لأهله ليس هو تقدم الأشياء في ذاتهافتكون الحضارة الناتجة عن هذا اللون من التقدم حضارة مادية أو هي حضارة شيئية لا تعنى بصانع الأشياء قدر عنايتها بالأشياء في ذاتها، ذلك أن هذا اللون من التحضر يوجه كل اهتمامه إلى الوسائل فيجعلها غايات في ذاتها ويهمل الغايات الحقيقية التي يجب أن يتوجه لخدمتها كما يتبع منها كل ألوان التقدم والتحضر.

والأديان كلها خلاف ذلك تماماً، فهي تجعل الإنسان غاية في ذاته لكل تقدم مقصود وماعدا الإنسان في هذا العالم يعتبر وسيلة له. ومن هنا نجد الأديان كلها قد وجهت عنايتها إلى الإنسان باعتباره غاية مقصودة، في الوقت نفسه لم تطلب من الإنسان أن يهمل الوسائل باعتبارها مرآة وجوده وعنوان تحضره ، وهذا هو الفرق الدقيق بين موقف الأديان من معنى التحضر وموقف أولئك الرافضين للدين بدعوى أنه يعوق التقدم ، فإن أولئك يهتمون بتقدم الأشياء في ذاتها على حساب التقدم الإنساني، فإن تقدم الإنسان في ذاته شيء وتقدم الأشياء المحيطة به شيء آخر. وهم بذلك يهتمون بالوسائل على حساب الغاية، وهذا عكس الموقف الديني الذي يهتم بالغاية في ذاتها ولا يهمل الوسائل.

ولعل بوادر الافلاس لبعض الحضارات المادية قد بدت واضحة في معظم

دول أوروبا، حيث ظهرت حركات التمرد التي تعبر عن روح الشباب الثائر على كل شيء أمامه لأنه لم يجد فيه ما يبعث روح الأمن والأمان اللذين هما غاية الإنسان وأمله في حياته.

وأوروبا لم تتقدم لأنها أهملت الدين أو نفضت يدها منه كما يزعم هؤلاء، بل تقدمت أوروبا لأنها أخذت بأسباب التقدم وملكت ناصيته، كما أن الشرق لم يتخلف بسبب تمسكه بالدين أو أخذه بمفاهيمه، وإنما يرجع تأخر الشرق لأنه أهمل الأخذ بأسباب التقدم ولم يسع إليها، وهذا قانون إلهي عام في جميع الأمم ينطبق على الأمة الإسلامي كما ينطبق على الأمم الكافرة، فمن يأخذ بالأسباب يصل ضرورة إلى النتائج إذا توافرت العوامل المساعدة، ومن يهمل الأسباب لا يمني نفسه بالوصول إلى نتائج، فالدين مفترى عليه في هذه المقارنة، وينبغي أن نتلمس أسباب تقدم الغرب وتأخر الشرق بعيداً كل البعد عن هذه الأكذوبة المقصودة.

أوروبا والمسيحية:

وإذا ألقينا نظرة سريعة على حقيقة موقف أوروبا من الدين، فإننا نجد ما يدعو إلى الدهشة والعجب، لأن موقف حكومات أوروبا يختلف تماماً عما يشاع عنها في منطقة الشرق والعالم الإسلامي بصفة خاصة، ولم نجد في العالم الإسلامي كله -وهو الهدف المقصود من هذه الحملة- حكومة تخطط وتعد البرامج لتنفيذ خططها لنشر دينها وحمايته مثلما عملت حكومات أخرى في أوروبا.

وسوف أضع أمام القارئ بعض المواقف لبعض دول أوروبا من هذه القضية ليعرف مدى ما وصل إليه دعاة هذه الأكذوبة من تضليل وتزييف في دعواهم أن أوروبا نفضت يدها من الأديان عموماً.

أولاً : لا يشك معاصر في تقدم الشعب الإنجليزي ولا في تحضره ، ورغم ذلك فإنه على المستوى الحكومي من أكثر الشعوب الأوروبية حفاظاً على دينه ومعتقداته، ولقد أثير في الثلاثينات من هذا القرن خلاف كبير حول قضية استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح وروحه، وهذه مسألة معروفه في الدين المسيحي، فاليمينيون يرون أنه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز إلى جسد المسيح وينقلب الخمر إلى دمه بناء على أن المسيح قد قال في العشاء السري لحوارييه أن هذا الخبز جسدي وأن هذه الخمر دمي وقدم لهم الخبز والخمر معاً. فالكاثوليك والمحافظون يقولون أنه كلما قدس الكاهن على الخبز والخمر ودعا بالدعاء الذي قاله المسيح ينقلب الخبز إلى جسده والخمر إلى دمه، وأما الوسط واليساريون فيرون أن هذه الأستحالة غير معقولة لأنها مخالفة للعلم، والخبز لا يكون جسداً للمسيح ولا الخمر دماً له بالمعنى الحقيقي، وأنه يقدس كل يوم ألوف الكهنة ، ولا نرى هذا التحول حقيقة، ولا يكون كلام المسيح في ذلك إلا رمزاً بحيث إذا قدس الكاهن يتذكر الناس جسد المسيح ودمه، واحتدم الخلاف بين اليسار واليمين حول هذه المشكلة في انجلترا واستدل اليسار بما في كتاب الصلاة الذي يمثل عقيدة الكنيسة الانكليكانية، وفي هذا الكتاب ما يدل على أن كلام المسيح ليس إلا رمزاً فقط وليس حقيقة، واعترض اليمين على النص المقدس وطلبوا تعديله أو حذفه من كتاب الصلاة، ولا يجوز تعديل أو حذف أي نص من كتاب الصلاة إلا بعد الرجوع إلى مجلس العموم البريطاني، ومن هنا دخلت هذه المشكلة إلى مجلس العموم ومجلس اللوردات، وشكلت الحكومة البريطانية لذلك مجلساً مؤلفاً من كبار المطارنة لحسم هذه المشكلة، ولكن هذا المجلس المؤلف قد انقسم على نفسه ولم يتفق على رأي موحد إلا بعد نقاش طويل حيث استقر رأيهم أخيراً على أن هذه الاستحالة حقيقية وطلب المجلس تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بهذه النقطة، وعند ذلك عرضت الحكومة هذه القضية على مجلس اللوردات وبعد مناقشات عنيفة قرر

المجلس تنفيذ قرار الأباطرة الذي كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربري أكبر أساقفة انجلترا، ولما كان لابد لتعديل كتاب الصلاة من موافقة مجلس العموم دخلت إليه القضية مرة أخرى، ووقف وزير الداخلية البريطاني معترضاً على قرار التعديل في الكتاب المقدس، فكتاب الصلاة هو دستور كنيسة انجلترا ولا يمكن تعديل شيء منه إلا بعد رأي الأمة بأسرها، وعند التصويت على هذه القضية كانت الأكثرية رافضة لقرار التعديل في كتاب الصلاة.

فهذه مسألة دينية صرفة كانت محور هذه المناقشات الطويلة في مجلس الشيوخ والنواب في أعظم دول أوروبا وأعلاها كعبة في المدنية والتحضر، فهل كانت انجلترا رافضة للدين حين شغلت نفسها بهذه المشكلة؟

ثانياً : لقد وضعت بلجيكا في برنامج حكومتها الرسمي العمل على تنصير زنوج مستعمراتها في الكونغو ، وتم لها ما أرادت فأصبح أكثر من نصف سكان الكونغو يدينون بالمسيحية بعد أن كانوا يعيضون حياة البداوة وذلك بجهد المبشرين بالمسيحية الذين أوفدتهم بلجيكا لتنفيذ برامجها هناك

ثالثاً : نجد إيطاليا بعد أن غلب عليها حكم الفاشية أعادت إلى المدارس الحكومية التعليم الديني الخاص الكاثوليكي وأقامت الصلبان في المدارس، وعدلت قوانين البلاد تعديلاً موافقاً لمبادئ الكنيسة، وأعلنت أنها دولة مسيحية كاثوليكية وأرسلت القساوسة والمبشرين إلى مستعمراتها، وزادت على غيرها من دول الاستعمار المسيحي أنها أخذت أطفال المسلمين قهراً من حجور أمهاتهم في ليبيا لكي تنصرهم على الكاثوليكية في إيطاليا نفسها، ولم تعبأ بما في ذلك من الاعتداء على أقدس حرية بشرية وهي حرية العقيدة وهذا شيء قد سجله التاريخ وهو خير شاهد على ذلك.

وجميع الدول البروتستانية في أوروبا تعلن كلها أنها دول مسيحية، وأن ثقافتها الجبلية ، وكثيراً ما أعلنت هذه الدول في برامج حكوماتها أمام

المجالس النيابية أنها ملتزمة بالثقافة الانجليلية وتعاليمها، ولا يخفى على من يقرأ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب أن وزير معارف هولندا افتتح مؤتمر المستشرقين في ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب صرح فيه بأن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة ، وإنما لنشر الدين المسيحي» كما صرح «شترزمان» وزير خارجية ألمانيا في كثير من خطبه أمام «الريخستاج» أن ثقافة ألمانيا قائمة على الدين المسيحي، وفي فبراير سنة ١٩٣٣ قدم هتلر رئيس الحزب القومي الإشتراكي الألماني -عندما تولى رئاسة الوزارة- برنامجاً لوزارته صدق عليه جميع وزراء ألمانيا المشتركين في الوزارة ، بدأه هتلر بقوله «أن أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الألمانية هو العمل لأجل الوحدة الروحية وإحياء العقيدة النصرانية في الأمة والتقاليد الجيدة الماضية «وهناك كتاب يسمى «الأديان في ألمانيا» ينبغي أن يقرأه أولئك الذين يتزعمون عن جهل- دعوى فصل الدين عن الدولة ليعلموا ما للدين من قوة في ألمانيا وكيف يقترن التعليم الديني بالتعليم المدني في مدارسها.

والمصلح المسيحي كلفين كان أساس برنامجه الإصلاحي هو «أن الدولة المسيحية رأسها هو الله» ولأجل أن يكون الإنسان تابعاً لهذه الدولة ينبغي له عدم الحيدة عن خطة الإنجيل، والمواظبة على إقامة الشعائر المسيحية ويتناول القربان أربع مرات في العام، ذلك أن الاشتراك في المائدة الإلهية هو عبادة الله رأس الدولة المسيحية، واليسوع المسيح رأس الكنيسة، فهاتان السلطتان الدنيوية والروحية باتحادهما معاً من شأنهما تنفيذ إرادة الباري رأس الدولة فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص إن لزم، كما أن السلطة الروحية لها حق الوعظ والتحليل والتحري، وكلا نوعى الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبنى على الكتاب المقدس، والملك الذي لا ينشر مجد الله فليس بالذي يقيم مملكة وإنما يقيم لصوصية، وعلى الحاكم أن يقبل مراقبة رجال الدين ويوطد بالتعاون معهم نظام دولته لا النظام المدني فقط،

بل الديني أيضاً».

وفرنسا قد اتفقت مع الفاتيكان على تحديد نوع العلاقة بين الدولة والكنيسة، وبمقتضى هذه العلاقة اعلنت فرنسا أنها حامية المسيحية في الشرق ولاسيما المذهب الكاثوليكي، ومن يقرأ تاريخ الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا يعلم حقيقة موقف فرنسا من الدين المسيحي وجهودها الدائبة لنشره، ولا يخفى على أحد أيضاً ما فعله الكردينال «لافيجري» والآباء اليسوعيون في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر ،فلقد تحولت مساجد كثيرة إلى كنائس علقت فيها الصلبان وتحول الكثير من البربر إلى كاثوليك بفعل الآباء، وتعمدت فرنسا إلغاء الشريعة الإسلامية في الجزائر على يد المسيو(لوسيان سان) الذي دعا إلى عقد مؤتمر ديني كبير للكاثوليك نتج عنه حظر التجول للفقهاء المسلمين في البلاد، ومنع حفظه القرآن الكريم ومشايخ الطرق الصوفية، كما منع زعماء البربر من إرسال أبنائهم إلى العواصم لحفظ القرآن أو تعلم العقيدة الإسلامية وذاكرة التاريخ لا تنسى شيئاً من ذلك. ولا أريد أن أستطرد في ذكر العديد من النماذج الأوروبية التي يحلو للبعض أن يقارن الشرق بها، ولكن أصبح من المؤكد الآن أن الذي دعت إليه فرنسا في الجزائر والمغرب هو بعينه ما يدعو إليه هؤلاء العلمانيون من أبطال العمل بالقانون الإسلامي وفصل أمور السياسة عن أمور الدين. وما أردت بذكر هذه الأمثلة إلا أن أضع أمام حكومات العالم الإسلامي وأمام القارئ حقيقة الموقف ليعلم الكل كم يخدعه هؤلاء المضللون في زعمهم بأن أوروبا قد نفضت يدها من قضايا الدين وأنها لا تعني بالمسيحية في شيء وأن النشاط الديني لا يبارح الكنيسة.

وأول من نادى بهذه الضلالة وروج بها في الشرق هو مصطفى كمال أتاتورك رئيس تركيا، وكان وراء ذلك جهد كبير وجهاد مستمر من الاستعمار الذي غذى هذه الأكذوبة وعمل على شيوعها في هذه المنطقة لكي

يمكن لنفسه من خيراتها، وكانت الخلافة العثمانية تمثل في نظر الاستعمار حجر عثرة يجب التخلص منها، وذلك لا يمكن إلا بالتخلص من العقيدة الإسلامية نفسها باقتلاعها من نفوس أصحابها بوسيلة أو بأخرى وفي سبيل ذلك أشاعوا كذباً وبهتاناً أن الدين ضد المدنية والتحضر، وأن تأخر الشرق يرجع إلى تمسكه بالدين و.. و.. إلخ. هذه الأكاذيب والأضاليل التي استأجروا للترويج لها أقلاماً ورجالاً مازلنا نسمع صوتهم إلى اليوم، وإذا كان أتاتورك قد سلخ تركيا عن العقيدة الإسلامي بقانون وبرنامج وضعت خطواته في أندية أوروبا، فإن الشعب التركي لم يلبث أن عاد وسريعاً إلى العمل على بناء ما تهدم وتعمير ماخرب، وأصبح يجتذب إليه أنظار العالم الإسلامي كله فيعقد المؤتمرات الدولية باسم الإسلام ويكون الأحزاب الإسلامية التي وجدت لها مكاناً في السلطة السياسية، وأصبح ما فعله أتاتورك بتركيا عملاً سجله التاريخ في كتبه ولم يؤثر في عقيدة المسلم التركي في واقع الأمر، والقضية كلها أصبحت قضية تاريخية لا واقع لها.

تبشير أم تنصير

من الأفضل أن نسمي الأشياء بأسمائها الصحيحة، ولذلك فإننا نرى أن استعمال كلمة التنصير هي أكثر دلالة على المطلوب من كلمة التبشير التي استعملها بعض الكتاب للتعبير بها عن ذلك الجهد الذي يبذله المتخصصون من النصارى في بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين وغيرهم بهدف تنصيرهم وتحويلهم من الإسلام إلى النصرانية واتباع تعاليم الإنجيل بدلاً من القرآن والولاء للكنيسة بدلاً من المسجد.

وقد يكون مفيداً للدارسين لهذه القضية أن يعلموا أن سهاسة التنصير والعمل على بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين ليست جديدة وإنها ليست وليدة هذا العصر، بل هي قديمة قدم الإسلام نفسه، ويمتد تاريخها إلى عصر النبوة ثم عصر الخلفاء الراشدين وبني أمية ولازالت مستمرة إلى يومنا هذا.

وأقدم وثيقة سجلت لنا تاريخ الحوار المسيحي الإسلامي هو القرآن الكريم وما جاء فيه من آيات سجلت لنا ماكان يدور بين الرسول وأهل الكتاب في المدينة المنورة، وهذا الحوار كان يشتد أحياناً ليأخذ شكل الصراع الذي يذهب إلى مستوى الكيد والتدبير لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يهدأ في بعض الأحيان فيأخذ شكل الحوار العقلاني، ولقد سجلت لنا سورتان كريمتان من سور القرآن الكريم ما كان يجري من حوار بين الرسول وأهل الكتاب وهما: (سورة آل عمران وسورة المائدة) والذي يتدبر آيات الحوار الواردة في هاتين السورتين يقف على حقيقة هذا الصراع وحقيقة القضايا العقدية التي كانت تمثل موضوع هذا الحوار، وكيف فضح القرآن سرائر

النصارى حين بدلوا وحرفوا ما أنزل الله على عيسى النبي وبين أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، واستمرت موضوعات هذه القضية موضوع الحوارالديني خلال عصور الإسلام،المتوالية تصدى لها علماء الإسلام عبر هذه القرون العديدة فوضع الجاحظ رسالته في الرد على النصارى، وكتب القاضي عبد الجبار كتابه في دلائل النبوة ونبه كل منهما على أساليب النصارى ومنهجهم في بث الدعاوى الإنجيلية بين المسلمين .

كما تصدى لنفس القضية ابن حزم في كتابه العظيم «الفصَل» والشهرستاني في كتابه «الملل والنحل» وعلى بن ربن الطبري في رسالته الرد على النصارى وابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم في كتابه «هداية الحيارى في الرد على النصارى» وكذلك القرافي في كتابه الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة والقرطبي في كتابه الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام .. وكثير من الرسائل التي لا تكاد تحصى في هذا الغرض.

وفي العصور المتأخرة ، كتب -رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوي- كتابه «إظهَارُ الحَق» الذي يعتبر من أهم الكتب الحديثة التي عرضت لهذه القضية بأسلوب رصين ومنهج علمي رائع أفاد من كتب السابقين. وأخذت هذه القضية تحتل مكاناً بارزاً في اهتمامات المفكرين المعاصرين وفي الأقسام الأكاديمية للفلسفة الإسلامي والعقيدة في الجامعات العربية والإسلامية، ولعلها تمثل الآن أهم قضايا الحوار القائم بين المسيحية والإسلام في المؤتمرات المتعددة التي احتلت بؤرة الصراع القائم بين أهل الديانتين عبر التاريخ وتحولت لغة الصراع إلى لون جديد من الحوار كمظهر جديد من مظاهر العلاقة بينهما.

وسوف نجعل هذه الدراسة ترتكز في مقدماتها ونتائجها على نصوص المبشرين أو القائمين على سياسة التنصير أنفسهم وكذلك على التوصيات التي يوصون بها في مؤتمراتهم المتعددة ليكون كلامهم شاهداً لنا بما نريده من دراسة هذه القضية من حيث الغاية والهدف من جانب وليكون في نفس الوقت رداً عملياً على الذين يرددون كلامهم ويتشيعون لمنهجهم تحت ستار المدنية والحضارة وما إلى ذلك من مسمياتهم الكثيرة التي يتسترون خلفها لبث أفكارهم بين المسلمين من جانب آخر.

ولقد نشطت المؤسسات التنصيرية في العالم الإسلامي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر والقرن العشرين مما لفت أنظار المفكرين المسلمين أن يتنبهوا لخطورة هذه القضية وسوء عاقبتها مما دعا البعض إلى رصد هذه الموسسات وتتبع تاريخ هذا النشاط التنصيري في القرنين الأخيرين.

وتكاد تتفق معظم المؤلفات الحديثة على أن أول من مارس هذه المهمة في العالم الإسلامي الحديث هو «ريمون لول ١٢٩٩-١٣٠٠» المفكر الأسباني الذي استطاع أن يحصل على إذن الملك يعقوب صاحب أرغونة ليقوم بمهمة التبشير في مساجد برشلونة بين صفوف المسلمين محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا[1]. وذلك بعد أن فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أحلام الغرب وعودة بيت المقدس إلى السلطة الكنسية وانتزاعه من أيدي المسلمين.

وكان قبل ذلك قد تأسس في سوريا وبلاد الشام جماعة (الإخوة الكرملية) أسسها أحد الصليبيين ٥٥٢هـ سنة ١١٥٧م وأطلق عليها اسم جبل الكرمل.

وفي أوائل القرن الثالث عشر تأسست مدرسة الآباء الفرنسيسكان

(١) راجع التبشير في منطقة الخليج، صـ ٢٠١/٢٠٣، الخنجي.

والدومنييكان، وأنشأت كل منهما لنفسها فروعها المختلفة في أنحاء سوريا وبيروت .

وفي أعقاب الحروب الصليبية كتب أسقف «دومينكاني» وهو «وليم الطرابلسي» رسالة بشئون المسلمين يوصي فيها باستخدام المرسلين (يعني المنصرين) بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة[٢].

ولقد أشار فيليب حتى إلى هذه الوثيقة الخطيرة في كتابه عن تاريخ سوريا وفلسطين ، وأوضح القول في العلاقة المتبادلة بين الاستشراق والتنصير وأن هدف الفريقين واحد، وإن اختلفت الوسائل. فالمبشرون يستفيدون من دراسات المستشرقين لخصائص البلاد وأحوالها وعاداتها وإمكاناتها للتقرب إلى أهلها بأيسر السبل، والتعاون قائم بين الفريقين لاستقطاب أهل الرأي في المنطقة للسيطرة عليها بكل الوسائل المتاحة.

ولقد ركزت حملات التنصير في العصر الحديث على أطراف العالم الإسلامي والمناطق النائية في شرق وجنوب شرق آسيا وبصفة خاصة في أندونيسيا ووسط أفريقيا والمناطق الاستوائية، مستعينين في ذلك بالخدمات الاجتماعية التي يقدمونها لأهالي هذه المناطق كالمعونات الاقتصادية والخدمات الطبية ودور الأيتام وكبار السن وتأسيس المدارس بمراحلها المختلفة، ومما يلفت النظر حقاً أنه رغم كل هذه الجهود المضنية فإن النتائج التي حصلوا عليها كانت مخيبة لآمالهم مما دعاهم إلى معاودة النظر في الأسلوب والوسيلة مرات ومرات، ولعل أبرز ما تم الاتفاق عليه في مؤتمر كلودادو سنة ١٩٧٨م هو محاولة خلق البيئة الملائمة للمسلم الذي يراد تنصيره، فبدلاً من التركيز على تنصير الفرد أخذوا يركزون على تنصير

---

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ٢٦٣/٢ ، دار الثقافة بيروت، نقلاً عن أ.د. عبد العظيم الديب ، التعبئة الثقافية ، بحث نشر في ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م

البيئة والجماعة كوحدة متكاملة يراد تنصيرها حتى لا يشعر الفرد بالغربة أو العزلة إذا ترك دينه منفرداً. أما إذا كانت الجماعة كلها محور العمل التنصيري فإن الفرد لا يحس فيها بالغربة أو العزلة، لأنه حينئذ سيكون فرداً في جماعة متكاملة. وهذا ما سعى المنصرون لتحقيقه في كثير من المناطق النائية الآن. ولعل من أبرزها ما يجري في أندونيسيا وأفريقيا.

بين الاستشراق والتنصير:

ومن الملاحظ أن أهداف سياسة التنصير قد تلتقي مع أهداف حركة الاستشراق في كثير من الأمور، خاصة ما يتصل منها بالأهداف الدينية والثقافية وإجماع الطرفين (المستشرقون والمنصرون) على القول بمركزية الحضارة الإنسانية وارتباطها بأوروبا وشعوبها، وهذا ما تجده واضحاً في كتابات المستشرقين والمنصرين ومن دار في فلكهم من الكتاب العرب الذين يقومون بدور الطابور الخامس في تحقيق أهداف المستشرقين في القول بأوربة الفكر الإنساني قاطبة» والقول بضرورة الأخذ بالنموذج الأوروبي واقتفاء أثره إذا أراد المسلمون أن يعيشوا عصرهم وحضارته[٣]

وقد يكون مفيداً للقارئ أن ننبه هنا إلى أن هاتين الظاهرتين وجهان لعملة واحدة، هي موقف الغرب من الإسلام والمسلمين، وماذا يريد الغرب من الشرق الإسلامي لذلك لا غرابة أن نجد بينهما وحدة في الهدف أحياناً ووحدة في الوسائل أحياناً أخرى، فقد يكون بعض المستشرقين مشتغلا بعملية التنصير، وقد يكون المنصر مستشرقاً وهذا واقع معروف في عصرنا وفي كثير من بلادنا. وهذا يفسر لنا ما قد يجده الدارس أحياناً من تداخل أحياناً في قراءة الأسباب والأهداف لكل من هاتين الظاهرتين.

ولكن ينبغي أن ننبه هنا إلى أهم ما بينهما من فروق في

---

(٣) من هذه النماذج على سبيل المثال: عبد الله العروسي ومحمد أركون بالمغرب

الوسائل والمناهج:

١ - يركز الاستشراق في وسائله على الجانب العلمي، كالبحث والكتاب والمقال والندوة والمؤتمر والمحاضرة، فنشاطه علمي وبحثي، مجاله العلوم الإسلامي بفروعها المختلفة ، فقد تجد بينهم المشتغل بالنحو أو التاريخ أو التفسير أو علوم الحديث والفلسفة والتصوف .. إلخ .. أما التبشير فغالباً ما يركز على الجانب الاجتماعي كوسيلة مؤثرة في تحقيق أهداف: مثل بناء المستشفيات والملاجئ والنوادي والمؤسسات التربوية والتعليمية.

٢ - يركز المستشرق في نشاطه على مخاطبة المثقف بعد اكتشاف ميوله والتعرف على مزاجه النفسي، وكذلك المشتغلين بالسياسة ووسيلتهم في ذلك الكتاب والمقال والندوة والصداقات الشخصية مع كبار المسئولين عن القرار السياسي والثقافي، والعائدين من البعثات التعليمية بأوروبا وغالباً ما تؤتي هذه الصداقات ثمارها في تنفيذ أهداف المستشرقين ولعل النظرة السريعة إلى خريطة توزيع الوظائف المؤثرة ثقافياً في وطننا العربي تؤكد لنا صدق هذه القضية ، فمعظم العائدين من البعثات خاصة من فرنسا يتبوأون مراكز القيادة الثقافية في بلادهم ومن موقعهم الوظيفي يملكون اتخاذ القرار وتنفيذه.

أما المبشرون فيركزون في خطابهم على الطبقات الدنيا والفقيرة في المجتمع، الطبقات التي لاحظ لها من الثقافة أو التعليم لتسد رمقها وتروي ظمأها، والطريق إلى مخاطبة الفقير والجائع هو لقمة العيش وحفنة المال.

٣ - لا يلجأ المبشر إلى الطعن في الإسلام بطريق مباشر، وإنما يبدأ حواره مع المسلم بالحديث عن الجوانب الاجتماعية التي تشغله والتي هي نقطة الضعف في حياته ويعاني منها، عكس المستشرق فإنه يلجأ في

مؤلفاته إلى النيل من الإسلام ومن الرسول بشكل مباشر تحت ستار البحث العلمي والموضوعية في البحث ، ويعلن رأيه بشكل مباشر وصريح فيطعن في نبوة الرسول والقرآن ويثير المشكلات التي مازالت تؤرق المفكر المسلم إلى الآن.

ويمكن أن نعرف التنصير من أقوال أصحابه القائمين به بأنه: منهج يسلكه المختصون لتنصير العالم وتقديم تعاليم الإنجيل إلى غير المسيحي بوسائل مختلفة ولقد أفصح الدكتور(هاريسون) عن هذا الهدف بوضوح في تحديده مهمة الإرسالية العربية الأمريكية بدول الخليج في قوله:«إننا نريدهم أن يصبحوا مسيحيين»[٤] مستدلاً علَى ذلك بما جاء في الإنجيل «فلتذهب إليهم وليكن لك اتباع بين جميع الأمم[٥]، ويجب أن يعم الإنجيل كل الأمم.

ومحاولة تحقيق هذا الغرض هو ما يطلق عليه لفظ التبشير، الذي يعني عند النصاري «العيش والعمل والحديث من أجل المسيح».

ومهمة التنصير بين المسيحيين ضرورية، ولا بد أن يتعاون للنهوض بها الأفراد والمؤسسات، وبلغ اهتمامهم بها حداً كبيراً جعل بعضهم يعلن صراحة عن طبيعة المبشرين بقوله «لقد أرسلناه لا للوعظ الاجتماعي ، ولكن للخلاص، لا للحديث عن الاقتصاد بل للتبشير، لا للتقدم بل للصفح، لا للنظام الاجتماعي الجديد بل للمولد الجديد ، لا للثورة بل للإنبعاث الروحي .. لا للتغني بالديمقراطية بل للإنجيل، لا للحضارة بل للمسيح، إننا سفراء ولسنا سياسيين ».

ويتفق المسيحيون على أن التبشير ركن أساسي من أركان الكنيسة الحديثة، وله النصيب الأكبر من الميزانية السنوية في أموال الكنيسة.

---

(٤) التبشير والاستشراق : مستشار عزت الطهطاوي ، ص١٥٨-١٥٩

(٥) Dang. 13 نقلا عن التبشير والاستعمار : فروخ.

أهداف التبشير ومناهج المبشرين:

من الممكن أن تترك هذه النقطة دون إشارة إليها لولا أن بعض المشتغلين بالكتابة يحاول أن يحمل أعمال المبشرين في العالم العربي على أنها أمور اجتماعية، الغرض منها المساعدة المالية والاجتماعية للفقراء والمرضى واليتامى، ويدعي أن هذه أعمال إنسانية ولا ينبغي التشهير بها أو حملها على غير مراد أصحابها، وهذا مادعاني الى التعرض لهذه النقطة لنبين أغراض المبشرين من كتاباتهم هم ومن على ألسنتهم دون تدخل منا للتفسير أو التأويل.

يقول الدكتور (إرهاس) طبيب الإرسالية التبشيرية في طرابلس: فإنه يجب على طبيب الإرسالية التبشيرية ألا ينسى أبداً لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك:

ولقد خطب القسيس «هاريك» في جموع المبشرين مبيناً لهم كيفية التعامل مع المسلمين قائلاً: إن ترجمة الإنجيل وكتب التبشير إلى اللغات الإسلامية أكثر فائدة وأتم نفعاً، لأنه بمجرد شراء المسلمين لكتب المبشرين ومطالعتهم لها تتبدد أوهامهم القديمة عن المسيحية، وأما الجدل والمناظرة فيبعدان المحبة التي لها وقع كبير على قلوب الغير وتأثير مضاد على نشر النصرانية، فالمحبة والمجاملة هما آلة المبشر لأن طريق الاعتقاد غايته دائماً القلب، ويجب على المبشر أن يتحلى دائماً بمبدأ المسيحية قبل أن يتغنى بالأمور النظرية، كما يظهر للمسلم أن النصرانية ليست عقيدة دينية ولا دستوراً سياسياً بل هي الحياة كلها.. إنها تحب العدل والطهر، وتمقت الظلم والباطل، ونفتح للمسلم مدارسنا ونتلقاه في مستشفياتنا، ونفرض عليه محاسن لغتنا، ثم نقف أمامه منتظرين النتيجة بصبر ونتعلق بأهداف الأمل. إذ المسلم هو الذي امتاز بين الشعوب الشرقية بالاستقامة والشعور بالمحبة

ومعرفة الجميل، وبهذه الطريقة فقط يمكن للمبشر أن يدخل إلى قلوب المسلمين[٦].

وسبق أن قلنا إن أهداف الاستشراق قد تلتقي مع أهداف التبشير في كثير منها لكن ذلك لا يعفينا من التنبيه إلى أهم أهداف التبشير في العالم الإسلامي عموماً وفي منطقة الخليج بصفة خاصة.

١ - تحويل أهل الجزيرة العربية عن الإسلام إلى المسيحية، ويتضح هذا الهدف من برنامج عمل الإرسالية الأمريكية التي تأسست سنة ١٨٨٩م فقد جاء فيه مايلي: «نحن الموقعون أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيري رائد في البلاد الناطقة باللغة العربية وبخاصة من أجل المسلمين والعبيد مقرين بالحقائق التالية. إن الحاجة بالغة لهذا العمل التبشيري وضرورة تشجيعية في العصر الحالي.. ولذلك فقد اقترحت اللجنة المؤسسة لها، ضرورة البدء السريع في هذا العمل، وأن يكون ميدانها الجزيرة العربية وأعالي النيل.

٢ -ومما يقوي الهدف السابق، مايدعيه «زويمر» أحد مؤسسي الإرسالية السابقة من وجود حق تاريخي للنصرانية في الجزيرة العربية، وأن إعادتها إلى النصرانية كسابق عهدها أمر غير مستحيل، وقد أكد ذلك «زويمر» في قوله: «إن للمسيح حقاً في استرجاع الجزيرة العربية، وقد أكدت الدلائل التي تجمعت لدينا في الخمسين سنة الأخيرة، على أن المسيحية كانت منتشرة في هذه البلاد في سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هنا، ولهذا فإن واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية[٧]. وكان لسقوط الأندلس في أيدي الصليبيين وانتهاء عهد المسلمين بها أثر في تفكير «زويمر» في الدعوة إلى استرجاع هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية .

(٦) الخالدي : صـ ١٠٤-١٠٦

(٧) التبشير في منطقة الخليج ، عبد الملك التميمي ، صـ ٢٤٦

٣ - الالتفاف حول المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة ، وهذا الهدف قد أعلنه كثير من المبشرين في مؤلفاتهم ، فلقد أعلن «هانوتو» أن هذه الرموز المقدسة هي رمز وحدة المسلمين وسر قوتهم، وأن المسلمين حين يلتقون حولها في الكعبة أو في المدينة يجددون نشاطهم ويستعيدون قوتهم الروحية التي يستمدون منها معنى التحدي على مواجهة المشكلات.

ولم ينس رؤساء المؤسسات التبشيرية أن يعلنوا صراحة أهدافهم التبشيرية على مسامع الأفراد المسلمين الذين يتعاملون معهم في المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات التي أنشأوها في البلاد الإسلامية لهذا الغرض، تحت ستار نشر التعليم الحديث بين أبناء الشرق. فلقد أقيمت الجامعة الأميريكير في بيروت ١٨٦٥م، ليكون مديرها مبشراً وجميع المدرسين بها من المبشرين كذلك، وكان من مبادئ تولي التدريس بالجامعة أن يقسم المدرسون بها على أن يوجهوا جميع أعمالهم نحو هدف واحد هو التبشير، ولم يقبل منهم أن يكونوا نصارى فقط، بل يجب عليهم أن يقوموا بمهمة التبشير أيضاً، وكانت تحرص الجامعة أن تظهر أساتذتها بمظهر المبشرين وكانت تجبرهم الجامعة أن يحضروا مؤتمرات المبشرين، ولما أحست الجامعة بنوع من الحرج في مواجهة الدولة العثمانية في أوائل هذا القرن ألغت مبدأ القسم المطلوب من الأساتذة.

ولقد قرر مؤتمر القدس المنعقد ١٩٣٥م أن يستغل كل درس علمي في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم، كالتاريخ وعلم النبات[٨]. وكان دخول الكنيسة عملاً إجبارياً على كل تلميذ بالجامعة، ولما احتج أولياء أمور الطلاب على ذلك اجتمع مجلس الجامعة وأصدر منشوراً بهذا الخصوص جاء في مادته الرابعة مايلي:

---

(٨) الخالدي ، ص١٠٤-١٦

إن هذه كلية مسيحية، أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشترو الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وه أنشأوا المستشفى وجهزوه، ولا يمكن للمؤسس أن تستمر إذا لم يساندها هؤلاء وكل هذا قد فعله هؤلاء ليوجدوا تعليما يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ، وهكذا نجد أنفسنا ملزمين أن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ.. وأن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف سبقاً ماذا يطلب منه ، ث أعلن مجلس الأمناء للكلية: أنها لم تؤسس للتعليم العلماني .. ولكن ر أول غاياتها أن تعلن الحقائق الكبرى التي في التوراة وأن تكون مركزاً للنو المسيحي ، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وأن توصيهم به.

وهذه المؤسسة التعليمية ببيروت قد تأسس لها نظائر في سائر البلا الإسلامية والعربية على وجه الخصوص، فهناك الجامعة الأميريكية بمصر وجامعة غوردون بالخرطوم، وكذلك في استامبول بتركيا، بالإضافة إلى المدارس اليسوعية التي لا حصر لها في البلاد العربية وقراها، ولا يخفى على من يراجع المناهج التعليمية في هذه المؤسسات أن التبشير هو مرك الدائرة في كل أنشطة هذه المؤسسات.

والدور التبشيري الذي قامت به الجامعة الأمريكية، في بيروت التي أسست سنة ١٨٦٥ قامت به جميع الكليات التبشيرية الأخرى التي أسست لنفس الغرض وفي شتى بقاع العالم الإسلامي ويستوي في ذلك الجامعة الأمريكية في وسط القاهرة ، والجامعة الأمريكية في استامبول ، والكلية الفرنسية في لاهور وهذه الجامعة الأخيرة قامت بدور خطير جداً في جنوب وجنوب شرق آسيا.

وتحت ستار نشر التعليم والثقافة في بلدان العالم الثالث حول المبشرون دور التعليم بمراحله المختلفة وكذلك المؤسسات الثقافية المختلفة إلى حقول

خصبة لزرع تعاليم الإنجيل ونشر تعاليم المسيحية بين أبناء المسلمين ابتداء من سن الطفولة في دور الحضانة وانتهاء بالتعليم الجامعي، حيث أسسوا مدارس ومعاهد تعليمية لكل هذه المستويات وزرعوها زرعاً في معظم البلاد الإسلامية.

وكذلك المؤسسات الثقافية والإعلامية كانت بمثابة منابر يعملون من خلالها على نشر تعاليمهم ، ولم يجدوا غضاضة في الإفصاح عن ذلك صراحة حتى إن واحداً منهم يعلن صراحة «أن المبشرين استغلوا الصحافة المصرية بصفة خاصة للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر منها في أي بلد آخر، حيث ظهرت مقالات كثيرة في الصحف المصرية إما مأجورة في أغلب الأحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة[9].

الوسائل والمؤسسات التبشيرية:

أ - الإرسالية الأمريكية في دول الخليج:

هي إرسالية بروتستانتية ذات أهداف تبشيرية في شبه الجزيرة العربية، قام بتأسيسها الدكتور لانسنج Lansing أستاذ اللغة العربية في معهد اللاهوت في نيوبرونسك New Brunswick الخاص بتدريب المبشرين التابع لكنيسة الإصلاح الديني بأمريكا. ولقد ساعد لانسنج في تأسيس هذه الإرسالية ثلاثة من تلامذته وهم جيمس كانتين ، وصموئيل زويمر، وفيليب فيلبس ، وكان والد لانسنج يعمل مبشراً في بلاد الشام وخاصة سوريا لمدة طويلة في النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أطلق لانسنج ومساعدوه على هذه الإرسالية اسم الإرسالية العربية سنة ١٨٨٩م. استجابة لطلب رسمي مقدم إلى هيئة الإرساليات الأجنبية للسماح بالقيام بعمل تبشيري في البلاد الناطقة باللغة العربية، وبدأت هذه الإرسالية تباشر نشاطها في الجزيرة

(٩) البهي ص ٤٢٩، الخالدي وفروخ ص ٢٠٧

العربية وخاصة في المناطق المطلة على الخليج العربي، وكانت كنيسة الإصلاح الأمريكية بولاية نيوجرسي هي التي تتولى الإشراف والتمويل لهذه الإرسالية كما كانت تمدها بالمبشرين الجدد الذين أتموا تدريبهم بما وأصبحوا مؤهلين للقيام بالعمل التبشيري، وكان من خطة هذه الإرسالية العمل على نشر الإنجيل المسيحي في المكان الذي نشأ فيه الإسلام، ولقد أحست هذه الإرسالية بصعوبة المهمة المكلفة بها خاصة في منطقة الجزيرة العربية مهد الإسلام والتي يتمتع أهلها بالولاء الكامل والغيرة الشديدة على الإسلام، لذلك فكروا في وضع خطة مكتوبة يوافق عليها أعضاء الإرسالية لتكون هذه الخطة ورقة عمل لهم في هذه المنطقة وفي غيرها. ومما جاء في هذه الخطة.

نحن الموقعين أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيري رائد في البلاد الناطقة باللغة العربية وبصفة خاصة من أجل المسلمين والعبيد مقرين منذ البداية بالحقائق التالية:

١ - الحاجة البالغة لهذا العمل التبشيري وضرورة تشجيعه في العصر الحديث.

٢ - عدم وجود مثل هذا العمل التبشيري تحت إشراف مجلس الإرساليات الأجنبية في الوقت الحالي.

٣ - عدم قيام أي مجهود يذكر حتى الآن في المجالات آنفة الذكر ولتحقيق الأهداف المرجوة فإننا نتقدم من المجلس وبتأييده إلى الكنيسة عامة بالمقترحات التالية:

(١) الشروع بهذا العمل بأسرع وقت ممكن.

(٢) أن يكون ميدان العمل الجزيرة العربية أو أعالي النيل.

وجاء في المادة الأولى من دستور هذه الإسالية «سيكون اسم هذه المنظمة: الإرسالية العربية» وفي المادة الثانية : سيكون هدف هذه المنظمة القيام بالعمل التبشيري في الجزيرة العربية أو البلاد الناطقة بالعربية.

ولا شك أن اختيار الجزيرة العربية كمركز رئيسي لهذه الإرسالية له أهدافه البعيدة التي يخطط لها المبشرون ويعملون على تحقيقها على المدى البعيد، ومن أهم هذه الأسباب التي أعلنوها هو الادعاء بأن الجزيرة العربية كانت في سابق عهدها موطناً للمسيحية قبل الإسلام،ومحاولة ارجاعها إلى سابق عهدها المسيحي أمر ضروري ، وقد أكد صموئيل زويمر على هذه الأهداف في قوله: إن من بين الدوافع للعمل في الجزيرة العربية الأسباب التاريخية، إن للمسيح حقاً في استرجاع الجزيرة العربية، وقد أكدت الدلائل التي تجمعت تحت أيدينا في الخمسين سنة الماضية على أن المسيحية كانت منتشرة في هذه البلاد في سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هناك، ولهذا فإن من واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية[١٠].

وبعد دراسة أحوال المنطقة سياسياً وجغرافياً واجتماعياً قرر الجنرال «هيج Heig » في رحلته إلى الجزيرة العربية، أن كل الجزيرة العربية بدرجات متفاوتة مهيأة لاستقبال الكتاب المقدس بذراعين مفتوحين»[١١].

ب - وقد أنشأت هذه الإرسالية عدة مراكز في لها في كل من بيروت، البصرة، البحرين، وكانت البحرين أهم مركز لها حيث أنشأت الإرسالية مكتبة للكتاب المقدس بالبحرين سنة ١٨٩٣ وأصبحت البحرين مركزاً مستقلاً للنشاط التبشيري في المنطقة بعد أن كان تابعاً لمركزهم بالبصرة، وساعد على تكثيف النشاط التبشيري بها عوامل كثيرة أشار إليها المبشرون

(١٠) نفس المصدر السابق ، ص٤٨-٤٩

(١١) السابق، ص٥٠

أنفسهم، ومن أهم هذه العوامل، وضع البحرين السياسي حيث كانت محمية بريطانية وهذا العامل وحده كان كافياً لتوفير قدر من الأمن والأمان للمبشرين في المنطقة. ثم ابتدأ نشاط هذه الإرسالية إلى جنوب الجزيرة العربية فأنشأت لها مركزاً في عمان ومسقط ومن عمان امتد نشاط الإرسالية إلى شرق أفريقيا ووسطها.

جـ - وفي مطلع القرن العشرين أنشأ المبشرون مركزاً لهم في دولة الكويت حيث بدأوا في زيارتها سنة ١٩٠٠م للمرة الأولى وكانت زيارتهم الثانية لها سنة ١٩٠٣م حيث افتتحوا بها مكتبة لبيع الكتاب المقدس، ولكن رفض حاكم الكويت في وقتها وهو الشيخ مبارك أن تقوم هذه المكتبة بأي نشاط تبشيري في الكويت ثم أمر بإغلاقها.

ولكن أعين المبشرين لم تنصرف عن الكويت لما لها من أهمية كبيرة في نظر المبشرين، ولقد كتب «أرنولد ويلسون» عن أهمية الكويت بالنسبة للنشاط التبشيري فقال: «إن المزايا الاستراتيجية والتجارية لموقعها وقربها من مدخل دجلة والفرات وأن لها صلتها الوثيقة بمملكة ابن سعود في وسط الجزيرة العربية ، وكونها تسمح بالعبور إليها بسهولة، كل هذه الأمور تجعل الكويت ذات أهمية خاصة بالنسبة للمبشرين»[١٢]. وظلت المحاولات قائمة بين الإرسالية والشيخ مبارك حاكم الكويت إلى أن توصلت الإرسالية إلى الحصول على موافقة منه بفتح مستشفى سنة١٩١٣م وأعطاهم الشيخ قطعة أرض مجاورة لقصره ليقيموا عليها منزلاً لهم، وتدخل القنصل البريطاني ليكون وسيطاً لهم عند الشيخ بضمان الولاء وعدم المعارضة، وظلت هذه الإرسالية تباشر نشاطها بالمنطقة إلى وقت قريب.

د - ولعل أحدث مركز أنشيء للتبشير في هذه المنطقة هو في قطر،

---

(١٢) السابق ، صـ٦٣

حيث قدم إليها القس «جريت بينتجز والدكاترة هاريسون، وديم، وتوماس، والآنسة كورنيليا دالنبرج لتفقد معالم المنطقة ودراسة أحوالها، وفي سنة ١٩٤٥م حضر إلى قطر القس ج. فان بيرسم» لإفتتاح مستشفى وبعض المراكز الطبية في قطر ووجدوا في هذا فرصة جيدة لمزاولة نشاطهم، وطلب منهم الشيخ أن يضعوا تصميماً لمستشفى سيعهد بإدارتها إليهم وفي خريف سنة ١٩٤٧م، أصبح المستشفى جاهزاً للعمل، ولكن هذه الخدمات الطبية لم تستمر طويلاً في قطر ففي سنة ١٩٥٢م اضطرت الإرسالية أن تتوقف عن نشاطها تماماً في قطر حيث عادت المستشفى إلى حكومة قطر وأصبحت الإرسالية غير آمنة على نفسها فتوقفت عن العمل تماماً في هذا البلد[١٣]

هذه فكرة موجزة عن تاريخ التبشير بالمنطقة العربية خاصة منطقة الخليج العربية، ومن المعلوم أنه في عصر الاستعمار الحديث، نشطت عملية التبشير في الأقطار الإسلامية التي احتلتها دول الغرب، وفرضت سيطرتها السياسية والثقافية على أهلها، وجلب الاستعمارمعه كثيراً من المبشرين وسدنة الكنائس، يقول الأستاذ أحمد دنفر في كتابه التبشير في منطقة الخليج «.. في عام ١٨٧٠: وسعت البعثة التبشيرية التابعة للكنيسة الإصلاحية في أمريكا مجال نشاطها في العراق حيث كانت تباشر أعمالها إلى منطقة الخليج عن طريق تقديم الخدمات الطبية والتعليمية، كما أن الكنيسة الأنكليكانية ارتبط وجودها بالجيش البريطاني في منطقة الخليج، بينما وصلت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق الهند وأفريقيا الشرقية، وقد أسس عدد كبير من موظفي شركات النفط كنائس على المستوى المحلي، وآخر الكنائس التي أسست في الخليج العربي كانت تلك التي أسسها العمال المهاجرون من الهند وباكستان»[١٤].

---

(١٣) المصدر السابق ، صـ ٧٠

(١٤) التبشير في منطقة الخليج ، صـ ٥ ، أحمد نون دنقر.

أهم الوسائل :

١ - من أهم الوسائل التي يسلكها المبشرون في منطقة الخليج أنهم يركزون على الجوانب الاجتماعية لخدمة المنطقة، ومما ساعدهم على سهولة الأخذ بهذه الوسيلة أن المنطقة الخليجية قبل ظهور النفط فيها كانت تعيش حياة البداوة، فالجهل هو الصفة الغالبة على سكان المنطقة ، والفقر المتقع كان واقعاً يعيشه معظم السكان خاصة الذين يعيشون في البوادي أضف إلى ذلك الحالة الصحية والرعاية الطبية المتدنية، وهذا كله جعل النشاط الطبي وسيلة مناسبة وميسورة وبعيدة عن الشبهات، وعن طريق المستشفيات والعيادات العامة يسهل اللقاء المباشر مع سكان المنطقة المسلمين رجالاً ونساء، فكان المريض إذا ذهب إلى المستشفى لا يسمح له بلقاء الطبيب إلا بعد أن يؤدي الصلاة المسيحية بالكنيسة الملحقة بالمستشفى، ولا يصرف له العلاج إلا بعد لقاء مباشر مع الراهب أو الراهبة.وهذا جعل للهيئات الطبية بالمنطقة وضعاً ممتازاً بين سكان المنطقة، حيث كان المسلم والمسلمة هما اللذان يطلبان لقاء الطبيب والطبيبة، ويسعيان لمقابلتهما، والسماع منهما والجلوس إليهما حيثما كانا، وهذا جعل المستشفى والمستوصف من أخطر مراكز التبشير في منطقة الخليج، ولعل أكبر مثال على ذلك مستشفى بعثة الآتحاد الإنجيلي في الإمارات العربية المتحدة فإن نشاطها لا يقتصر على المرضى المقيمين بها فقط، وإنما تعدى ذلك إلى إقامة الندوات العامة التي تعقد في القاعة المعدة لذلك، كما أسست المستشفى مكتبة خاصة لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية، وفي كل غرفة منها تقدم اشرطة التسجيل للكتاب المقدس وسماع موعظة الأحد[١٥].

٢ - ومن وسائل المبشرين عموماً -وفي الخليج بصفة خاصة- العلاقات الشخصية والصداقات التي تتم بين الأفراد والعائلات في داخل المنطقة

---

(١٥) المرجع السابق ، صـ٣٧

وخارجها، ومن أبرز المبشرين المهتمين بهذا الجانب مجموعة صانعي الخيام، لوجودهم في أماكن العمل المختلفة، واحتكاكهم المباشر مع أصحاب الأعمال ومع العمال أيضاً.

٣- يأتي بعد ذلك دور المطبوعات في عملية التبشير وتوزيعها بالمجان، فهناك عدد كبير من المكتبات المسيحية تقوم بهذه المهمة، وهناك المطبوعات التي توزع على البيوت سراً وهي أشبه بالمواعظ الإنجيلية والترانيم اللاهوتية يجدها الشخص أمام بيته في الصباح أو ملصقة على الجدران.

٤ - الإذاعات التبشيرية المنتشرة حول العالم الإسلامي وفي داخله، وهي أكثر الوسائل الحديثة فعالية في الاتصال بالمسلمين، وهناك أجهزة إعلامية متخصصة في انتاج البرامج التبشيرية الموجهة إلى المسلمين، ولعل من أهم هذه الأجهزة شركات الانتاج الإعلامي الموجودة في لبنان وفرنسا وأسبانيا، وفي جزيرة سيشل، وبعض هذه الشركات تبث برامجها من راديو عبر العالم من موناكو ومن قبرص كما أن راديو الفاتيكان يبث برامجه التبشيرية باللغة العربية. ولعل أنشط هذه الشركات الآن راديو مونتوكارلو الذي يبث برامجه التبشيرية بعد الساعة الحادية عشر مساء عادة.

٥ - المؤسسات التربوية التعليمية ، مثل دور الحضانة والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعات الأميريكية المنتشرة في العالم الإسلامي، وهذه المؤسسات يختلف نشاطها قوة وضعفاً حسب المنطقة التي تعمل بها، فعلى سبيل المثال نجد أن أنشطة المدارس العاملة في دول الخليج مدارس كاثوليك في أبي ظبي، ودمرسة الإرسالية الأميريكية التي كانت تعمل في البحرين.

٦ - يضاف إلى ما سبق دور الصحافة والفنون والبعثات التعليمية وما

يترتب على ذلك من نشر أفكار لتزييف التاريخ الإسلامي أحياناً واستغلال الواقع المؤلم للعالم الإسلامي أحياناً أخرى ومحاولة ربط ذلك التخلف بالإسلام.

ولقد قامت الصحافة بأخطر الأدوار التبشيرية في المنطقة العربية والإسلامية على وجه العموم، فلقد هاجر إلى مصر كثير من الموارنة اللبنانيين بدعوى زائفة ومكشوفة وهي طلب الآمان في مصر بلد الحرية والنور. هكذا كانوا يبررون هجرتهم إلى مصر. ولازالوا . ولكن قد أثبت الواقع عكس ذلك تماماً. فقد كان الموارنة خريجي الأديرة والكنائس والمدارس التبشيرية الذين حملوا معهم بذور الفتن وأساليب التنصير في ربوع مصر، وأخذوا يباشرون نشاطهم تحت حماية الاستعمار الأجنبي الذي كان مسيطراً على كل مرافق الحياة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكان نشاط الموارنة المهاجرين شديد الأثر ، فلقد هيأ الوجدان المصري للاستعمار الثقافي، ولقد أشار إلى هذه الحقيقة المؤرخ الأمريكي بيترجران حيث قال : لقد سعت فرنسا إلى زرع فئة من التجار المارونيين الشوام في الاسكندرية ودمياط ورشيد، تحت حماية النفوذ الأجنبي، وكان لهؤلاء بعض الصحف التي أطلق عليها عبد الله النديم صحف الأجراء وكان يسمي ما ينشرونه بالقاذورات[١٦] .

وقام جرجي زيدان بتأسيس دار الهلال بمصر وهي مؤسسة تبشيرية خالصة وكذلك أنشأوا مجلة الكاتب المصري، وقيل أنها تأسست بأموال صهيونية.

أما جريدة الأهرام فتأسست بيد صليبية خالصة وكان من بنود تأسيسها ألا يعمل بهاإلا النصاري ولا يقوم بتوزيعها إلا النصارى، وكان من أكبر مؤسسيها بشارة تقلا وإخوانه الذين هاجروا إلى مصر سنة ١٨٧٣هـ تحت

(١٦) راجع بحث أ.د. عبد العظيم الديب ، الندوة العربية ، جامعة قطر ، سنة ١٩٩٣م

حماية الحملة الفرنسية، وكان صاحب دور كبير في تأليب الإنجليز ضد عرابي، وكان قلمه مدافعاً عن الإنجليز أحياناً، وعن الفرنسيين أحياناً أخرى، ولقد سجل عرابي في مذكراته كيف خدعه بشارة تقلا. فقد كان مؤمناً بمبادئ عرابي، أو هكذا كان يتظاهر، يقول عرابي:«وبعد ساعة جاء ليزورني بشارة تقلا محرر جريدة الأهرام، وظننت أنه قدم ليعزيني ويبدي عواطفه نحوي لأنه قد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وأنه يعمل لحرية وطننا ... ولكنه لما دخل عليَّ نوقح أشد التوقح، ثم قال: أي عرابي : ماذا فعلت وماذا حل بك ورأيت أن الرجل خائن لا محالة» هكذا يقول عرابي عن بشارة تقلا مؤسس جريدة الأهرام.

والدور الذي لعبه تقلا ورفاقه لا يقل عنه ما قامت به مؤسسة جرجي زيدان في مصر، فتحت ستار التنوير والنهوض والتقدمية، زلزلت كثيراً من ثوابت القيم في الشارع المصري الحديث واستطاعت أن ترسخ في وجدان الأمة العربية كثيراً من الأحاديث وتعمل على الترويج لها، مثل قولهم بأن الحملة الفرنسية هي بداية عصر النهضة في مصر، أو أن الخلافة العثمانية تمثل عصر الظلام، وأن اتصالنا بفرنسا هو الذي علمنا معنى الحرية وأخذ بينا في سلم الحضارة .. إلخ..[١٧]

العمالة المهاجرة في ظل الكنيسة:

لعل منطقة الخليج العربي أهم مناطق العالم المعاصر بالنسبة لجذب العمالة من الخارج نظراً لظروفها الاقتصادية والاجتماعية، ولقد عقد في بيروت سنة ١٩٧٩م مؤتمراً نظمته إحدى الهيئات التبشيرية عن أوضاع

(١٧) راجع البحث القيم الذي كتبه أ.د./ عبد العظيم الديب، في ندوة الثقافة العربية ، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م

منطقة الخليج ودور العمالة المهاجرة إليها، ولاحظت هذه الهيئة(MECC) أن ٨٠٪ من سكان هذه المنطقة هم في الأساس من العمالة المهاجرة وأن أوضاع هذه العمالة تدعو للقلق والاهتمام بها وبدورها الإيجابي في تغيير الشكل السكاني للمنطقة، وترتب على هذا الموقف أن أعدت هذه الهيئة دراسة للشكل السكاني ومحاولة التعرف على نسبة العمالة المهاجرة ودياناتها وقام بعض القسس بتنظيم زيارات عدة لدول المنطقة والعمل على تأمين العمل لبعض القسس والمربين المسيحيين الذين يتكلمون اللغة العربية لقيادة العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة.

ولقد أعدت أمانة السر المنبثقة عن مؤتمر الكنائس العالمي وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها، وبناء على دراسة هذه الوثائق أعلن مؤتمر الكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس أن تدافع عن حقوق هؤلاء العمال المهاجرين وتسعى لتحسين أوضاعهم، ولقد أنشأ هذا المؤتمر لجنة لمتابعة أحوال هذه العمالة ومتابعة تنفيذ قراراته بشأنها، وأجرى عملية استطلاع للرأي العام الكنائسي حول الأمور الآتية:

١ - مدى استجابة الأسرة الدولية لنداء مؤتمر الكنائس المنعقد في أفريقيا وفي آسيا وفي الشرق الأوسط بشأن حقوق هذه العمالة.

٢ - أيسر السبل لمتابعة أحوال العمالة المهاجرة في الخليج والوقوف على ما يلاقونه من صعوبات.

٣ - كيف يمكن للكنائس البروتستنتيه والكاثوليكية والأرثوذوكسيه أن تؤمن رسالة العمالة في منطقة الخليج[١٨].

وقدرت هذه الهيئة عدد العمال المسيحيين المهاجرين إلى المنطقة رجالاً

---

(١٨) راجع التبشير المسيحي في منطقة الخليج، بقلم أحمد فون دنقر، ص٣٢-٣٥

وإناثاً في جميع مستويات العمالة يتراوح بين ٢,٥-٣ مليون مسيحي معظمهم من دول آسيا وأفريقيا، ولقد أعدت هيئة الأمانة العامة للهجرة في مؤتمر الكنائس العالمي وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها، وقد قرر المؤتمر العام للكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس المختلفة خاصة التي لها فروع في بلاد الخليج العربي أن تدفاع عن حقوق العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة والعمل على تحسين أحوالهم.

ولقد صدر حديثاً كتاب عن منظمة عالمية مسيحية تعمل في باكستان عنوان «صل يومياً pray day by day » لنشر المسيحية في منطقة الخليج ولتقوية الكنيسة بين العمال المهاجرين وخاصة القادمين من باكستان، ومن بين الصلوات المطلوبة أن يصلوا من أجل فتح مركز للدارسين للإنجيل بالمراسلة من الباكستانيين والهنود في الخليج العربي ولتنمية برامج الإذاعة.

ومما سهل للمبشرين عملهم في المنطقة أنهم يعتمدون في تنفيذ برامجهم على هذا العدد الضخم من العمالة غير المسلمة، بالإضافة إلى أن آخر احصائية لعدد المبشرين في الشرق الأوسط قد بلغ ١٣٠٠ ويذكر الإنجيليون أن عدد المبشرين في منطقة الخليج حوالي ٨٠ مبشراً بروتستانيا معظمهم يعمل في المراكز الطبية.

كما أن هناك عدداً كبيراً منهم يعملون في المجالات الفنية والصناعية دون أن يعلنوا عن هويتهم وليس من السهل التعرف على طبيعة نشاطهم.

نشاطهم في مصر :

ونجد أن الاستعمار البريطاني بعد أن استقرت له الأمور في مصر لم يغب عن ذهنه هذا الدور التبشيري، وكان من أبرز الشخصيات التي كان لها الدور الرائد في محاربة الإسلام والمسلمين بمصر «اللورد كرومر» المندوب

السامي البريطاني ، وكان يتميز بالدهاء والعداء للإسلام ولغته العربية، فعمل منذ أول عهده بمصر على تغريب الحياة الثقافية والسياسية والتعليمية ومناهجها، وكان له الدور الأكبر في تثبيت دعائم الإسنعمار بمصر وقد وضع «كرومر» مخططه التبشيري والإستعماري معاً في كتابه «مصر الحديثة» الذي ضمنه آراءه وأهدافه من الوجود البريطاني في مصر، ومن أهم القضايا التي أثارها «كرومر» في هذا الكتاب ما يأتي:

١ - التركيز على إظهار أن سبب تأخر المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالإسلام، لأن تعاليمه تتنافى مع المدنية الحديثة، والحضارة والعلم.

٢ - ليس أمام المسلمين من طريق إلى المدنية الحديثة إلا بالتخلص من الإسلام وتعاليمه..

٣ - محاولته الدؤوب ارجاع كل مشاكل التخلف الموجود في العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى تعاليم الإسلام.

وقد امتد نشاط «كرومر» إلى لغة القرا الكريم، حيث نادى بضرورة إلغائها والأخذ باللغة العامية، وجعل لغة القاهرة هي اللغة الرسمية وإحلالها محل اللغة الفصحى في الكتابة والدواوين الحكومية، وهذا الرأي قد عارضه الرأي العام بمصر في وقتها، غير أنه قد وجد عند بعض المستغربين أذناً صاغية فنادوا بالعامية من خلال الصحف خاصة صاحب «المقتطف» وألف المستشرق «ولمور» أحد قضاة المحاكم المختلطة بمصر كتاب «لغة القاهرة» فوضع قواعد اللغة العامية القاهرية ونادى بوجوب إحلالها محل لغة القرآن ، ثم انتقلت هذه الدعوة المسمومة إلى المستر«وليم ولكوكس»المهندس البريطاني الذي كان بوزارة الري والزراعة بمصر، فدعا إلى هجر الفصحى وإحلال العامية محلها، وكادت هذه القضية أن تجد لها مكاناً في بعض المكاتبات الرسمية: لولا وقوف الرأي العام في وجهها وفطنة المسؤولين إلى

خطورة هذه الدعوة المسمومة في القضاء على أهم رابطة بين المسلمين والعرب وهي لغة القرآن الكريم.

وبما هو جدير بالذكر هنا، الإشارة إلى ما قام به القسيس «دانلوب» المستشار البريطاني لوزارة المعارف الذي حاول جاهداً أن يجرد مناهج التعليم في مصر من سماتها الإسلامية في كثير من المواد الدراسية، فأنشأ عدداً كبيراً من المدارس الإنجليزية تدرس جميع موادها بلغة المستعمر، وكانت هذه المدارس تبدأ نشاطها المدرسي كل يوم بالصلاة في كنيسة المدرسة وأوصى «دانلوب» أن تكون حصص المواد الشرعية واللغة العربية في المدارس الحكومية في نهاية اليوم المدرسي، بعد أن يكون التلميذ قد أصابه الملل والسآمة، وظلت المناهج الدراسية التي وضعها دانلوب لوزارة المعارف المصرية تعمل عملها في تخريج أجيال مبتوتة الصلة بالإسلام وقضاياه إلى وقت قريب، والتقت أهداف «كرومر» و«دانلوب» في محاولة إبعاد الحياة الثقافية والتعليمية في مصر عن روح الحياة الإسلامية وحاول كل منهما جذب بعض الشخصيات إلى هذا التيار العلماني الصليبي ولكن هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل في معظم الأحيان..

مؤتمرات التبشير:

يعقد المبشرون كثيراً من المؤتمرات في العالم الإسلامي لرسم الخطط التبشيرية المناسبة وتقويم العمل في الفترات السابقة ومحاولة معالجة ما شابها من قصور أو تقصير، هذا بالإضافة إلى وضع المؤلفات المستقلة التي ألفها المبشرون لوضع خريطة كبرى للتبشير العالمي على مستوى جميع الشعوب غير المسيحية، ومن أهم هذه المؤلفات ذلك البحث الخطير الذي كتب مقدمته المسيو «شاتيليه» وضمنه مجلة «العالم الإسلامي» الفرنسية المصورة فأصدرت هذه المجلة عدداً ضخماً سنة١٩١١م ليس فيه غير هذا البحث

الضخم الذي وضعه شاتيليه وكان يدور كله حول ما تقوم به الإرساليات التبشيرية البروتيستانية في العالم الإسلامي وتضمنت هذه المقدمة الدور الذي تقوم به كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت في نشر تعاليم الإنجيل في سوريا ولبنان، ثم جاء كتاب تاريخ التبشير للمستر «أدوين بلس» البرتستانتي الذي تضمن تاريخ التبشير في العالم الإسلامي حتى أواخر القرن التاسع عشر، ومن أهم الشخصيات التي برزت في تاريخ التبشير الحديث القسيس صمونيل زويمر. الذي كتب بحوثاً متعددت عن التبشير ووسائله في جزيرة العرب وقد بين زويمر في بحوثه أهمية الالتفاف حول جزيرة العرب التي هي مهد الإسلام وأشار إلى ضرورة الربط بين مصالح المبشرين في بيروت وسوريا ومكةً والمدينة لأن ذلك سوف يمهد للمبشرين النفاذ إلى هاتين المدينتين المقدستين عند المسلمين، كما لفت زويمر نظر المبشرين إلى أهمية الانتشار في جزر مالَيزيا وأندونيسيا ليمكن تخليصها من قبضة المسلمين وأشار إلى ضرورة عقد مؤتمر لمراجعة أعمال المبشرين والتعرف على المشاكل التي يواجهونها، ووضع الخطط المناسبة في المستقبل.

١ - مؤتمر المبشرين بالقاهرة سنة ١٩٠٦م:

اجتمع في هذا المؤتمر معظم الإرساليات التبشيرية في المنطقة برياسة «زويمر» وافتتح المؤتمر بتاريخ ٤ أبريل سنة١٩٠٦م، وكان عدد مندوبي الإرساليات التبشيرية قد بلغ ٦٢ مندوباً رجالاً ونساء، وتم انتخاب زويمر رئيساً عاماً للمؤتمر ، وكان من أهم المسائل التي طرحت على هذا المؤتمر الأمور التالية:

١ - احصاء لعدد المسلمين في العالم.

٢ - وضع الإسلام والمسلمين في شرق وجنوب شرق آسيا.

٣ - منهج التعامل مع المسلمين المثقفين والمسلمين العوام.

٤ - دور المرأة وشؤون النساء المسلمات.

وقد جمعت أعمال المؤتمر في كتاب مستقل نشر باسم «وسائل التبشير بالنصرانية بين المسلمين» جمعه القسيس فلمنج الأمريكي وكتب عليه من الخارج عبارة «نشر خاصة» ليكون الكتاب قاصراً في تداوله على فئة خاصة من المشتغلين بالتبشير.

وضمن هذا الكتاب بعض التوصيات التي رفعها إلى الحكومات المعنية، ومن أهم هذه الاقتراحات محاولة الالتفاف حول الأزهر في مصر لأنه مفتوح لكل الطلاب من العالم كله وأنه لا يخضع في تمويله لأي حكومة لأن أوقاف الأزهر تدر دخلاً كبيراً يساعد العالم والمتعلم فيه، ولابد من العمل على تقليص دوره، ولنبدأ ذلك بإنشاء جامعة نصرانية تشارك في الإنفاق عليها جميع الكنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها لأن في التخلص منه مصلحة لجميع الكنائس بلا استثناء ، ولقد قام زويمر بعمل خريطة أسماها «خريطة تنصير العالم الإسلامي» في هذا العصر ووزع أعداداً كبيرة منها على كبار المسؤولين في الحكومات الغربية وكتب على كل نسخة نداء إلى المسؤولين لعله يجد صدى له في أوربا وأمريكا، وعرض هذه الخريطة على المؤتمر وضمنها كتابه «العالم الإسلامي اليوم» وكأن من أهم ما نصح به زويمر في كتابه هذا إثارة بعض المشكلات الاجتماعية وطرحها في الندوات واللقاءات الثقافية كمشكلة الطلاق والتعدد، وإرث المرأة ولماذا يكون نصف الرجل، كما أوصى بالعمل على أن يجتهد المبشرون في إيجاد أصدقاء لهم من المسلمين يقومون بنشر هذه الأفكار بين المسلمين ليتحولوا فيما بعد إلى مبشرين بتعاليم المسيح نيابة عن النصارى ومن أهم أعمال زويمر التبشيرية:

١ - تقرير أهداف التبشير الذي قدمه المؤتمر الذي عقد بالهند سنة١٩١١ وصرح فيه بأن هدف التبشير ليس هو تنصير المسلم فقط وإنما

الأهم من ذلك التنكر لتعاليم الإسلام.

٢ - التقرير الذي نشره في ١٢ أبريل سنة ١٩٢٦م ويشير فيه إلى تلك المجهودات الكبيرة التي بذلها المبشرون والمصاريف الباهظة التي انفقوها ولم تؤت ثمرتها ولذلك يجب التفكير في تطوير وسائل التبشير ومناهجه ، ومما جاء في هذا التقرير قوله: .. وعندي أنه قبل أن نبني النصرانية في قلوب المسلمين يجب أن نهدم الإسلام في نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتي بعدنا أن يبنوا النصرانية في نفوسهم.

٢ - مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م :

عقد هذا المؤتمر تحت حماية الاحتلال البريطاني لفلسطين وكان أبرز المتحمسين فيه بالعداء للإسلام «زويمر» وألقى خطبته على الحاضرين من المبشرين، ومن المهم للقارئ أن أضع أمامه نص هذا الخطاب ليعرف كيف تلتقي مصالح التبشير والاستعمار مع مصالح اليهود في فلسطين ليجمعهم هدف واحد هو التخلص من الإسلام: قال زويمر:

أيها الإخوان الأبطال: والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد في سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل ولقد أديتم الرسالة التي نيطت بكم أحسن الأداء .. إنني أقركم أن الذين دخلوا حظيرة المسيحية من المسلمين ليسوا بمسلمين حقيقيين ، لقد كانوا كما قلتم ثلاثة.

إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ماهو الإسلام،

أو رجل مستخف بالأديان لا يهتم بغير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش،

وثالث يبغي الوصول إلى غاية شخصية .. إن المهمة التي ندبتكم إليها دول المسيحية في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن في هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية ، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنئكم عليه وتهنئكم عليه دول المسيحية .. لقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقبة من الدهر .. على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها دول أوروبا وأمريكا.

أيها الزملاء : إنكم أعددتم في ديار الإسلام شباباً لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار لا يهتم بالعظائم، ويحب الراحة والكسل ولا هم له في دنياه لا الشهوات..

فإذا تعلم فللشهوات، وإذا جمع المال فللشهوات، وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهوات، وفي الشهوات يجود بكل شيء .. باركتكم المسيحية ورضي عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم ، لقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الرب»[19].

---

(١٩) من كتاب : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف، صـ٥٨-٥٩، نقلاً عن : قوى الشر المتحالفة: محمد الدهان صـ١١٢-١١٥

العلمانية

المصطلح وظروف النشأة

١ -المصطلح:

درج الباحثون على استعمال مصطلح العلمانية على أنه ترجمة لكلمة Secularism الإنجليزية، وتنطق بفتح العين علمانية بمعنى الدنيوية أو اللادينية، وينطقها البعض بكسر العين نسبة إلى العلم وهو خطأ إذ لا علاقة للكلمة بالعلم، وتستعمل في النسبة إليها بزيادة الألف والنون فيقال علماني مثل روحاني جسماني وهي نسبة على غير قياس.

أ- وقد تناولت المعاجم اللغوية ودوائر المعارف هذا المصطلح بالشرح والتحليل لتوضيح معناه وبيان مضمونه، ففي دائرة المعارف البريطانية مادة Secularism أن العلمانية: حركة اجتماعية يقصد بها صرف الناس عن الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بالدنيا وحدها، ذلك أن الناس كانوا في العصور الوسطى يركزون اهتمامهم في حياتهم على اليوم الآخر والتأمل في الله مشتغلين بذلك عن الاهتمام بالدنيا وشئونها مما نتج عنه انتشار الفقر والجهل وكان السبب في ذلك توجيهات وأوامر رجال الكنيسة، فظهر الاتجاه العلماني لكي يقاوم هذه النزعة ويوجه الناس إلى الاهتمام بالدنيا بدلا من الاهتمام بالآخرة والبحث في شئون الإنسان بدلاً من التأمل في الله، وتنمية النزعة الإنسانية وتحقيق رغبات الإنسان في الدنيا القريبة بدلا من الإيمان بالوعود التي تدعو الناس إلى الإيمان بأن هذه الرغبات سوف تتحقق لهم في الآخرة، ثم تطور هذا الاتجاه خلال مسيرته التاريخية في أوربا وعرفت العلمانية على أنها حركة مناهضة للمسيحية"[١].

---

(١) راجع وباء العلمانية د/ سفر الحوالي ص ١٢.

ب- جاء في قاموس العالم الجديد لـ"ويستر" أن العلمانية نظام من المبادئ والتطبيقات، وتنادي بأن الدين أو الكنيسة لا دخل لهما في إدارة شئون الدولة أو نظام الحكم ولا علاقة لهما بوسائل التربية ومناهج التعليم والثقافة.

ج- وفي معجم أكسفورد: إن العلمانية هي الرأي أو الاتجاه الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق أو التربية.

د- وفي المعجم الدولي الثالث أن العلمانية: اتجاه في الحياة (الثقافية والاجتماعية والسياسية) يقوم على مبدأ أن الدين أو الأوامر الدينية يجب ألا تتدخل في شئون الدولة ونظام الحكم واستبعاد كل معنى ديني من شئون السياسة، وهو نظام اجتماعي يقوم على أساس أن القيم الاجتماعية والسلوكية تقوم على التضامن الاجتماعي دون النظر إلى الدين [1].

هذه هي أهم التعريفات لمعنى العلمانية كما هو مدون في معاجمهم وفي دوائر المعارف،وقد شاع استعمال المصطلح بهذا المعنى بين الباحثين فهو يعني إقصاء الدين عن شئون الحياة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا ونلفت النظر هنا إلى أن المعنى المقصود من هذا المصطلح هو إبعاد الدين عن شئون الحياة كلها على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة وليس كما يقول البعض: إنها إبعاد الدين عن نظام الحكم والسياسة فقط والفرق كبير بين المعنيين. فهي ليست فصل الدين عن السياسة ولكنها إقصاء الدين عن نظام الحياة كلية بما فيها الشئون السياسية،ولو كان المعنى هو فصل الدين عن نظام الحكم لكان الخطب أهون، لكن المعنى الحقيقي للمصطلح هو إقصاء كل معنى ديني أو إيماني عن المشاركة في حركة المجتمع للفرد أو الجماعة على سواء.

---

(١) راجع وباء العلمانية د/ سفر الحوالي ص ١٢.

ولما كان تطبيق هذا المعنى له خطورته في حياة الشعوب فإن موقف الدول قد تفاوت في تطبيق العلمانية، فبعض الدول قد تطرف في التطبيق فأقصى الدين تماما عن شئون الحياة ولم يكتف بذلك وإنما أضاف إلى هذا الموقف أنه أقام المؤسسات التي جعل مهمتها محاربة الدين والتدين والعمل على نشر الإلحاد بين الشعوب التي خضعت لسلطان هذه الدول. وهذا الموقف المتطرف نجده واضحًا في النظام الشيوعي والدول التي خضعت لسلطانه فكان من أول ما فعلته في هذه الدول التي احتلتها هدم المساجد ودور العبادة ومطاردة رجال الدين والقضاء على التعليم الديني في هذه البلاد وازدحمت السجون والمعتقلات برجال الدين من كل ملة وأشاعت بين مثقفيها أن الدين أفيون الشعوب ووسيلة لتسلط الكنيسة على رقاب الكادحين.

وكانت هناك صورة أخرى لتطبيق العلمانية في دول أوربا الرأسمالية حيث اكتفت بإقصاء الدين عن شئون الحكم ونظامه وتركت للأفراد حرية الاعتقاد والأخذ بما تشاء من أوامر الدين، ولكل فرد الحق في أن يحدد موقفه من الكنيسة قبولا أو رفضا إيمانا بها أو كفرًا بمبادئها وفي داخل هذا الإطار المعتدل نسبيًا كانت مواقف الدول أيضا متفاوتة. فبعضها حدد للكنيسة مجال نشاطها وهو العمل على تنمية الجانب الروحي والإيماني وشجعتها على التبشير بالإنجيل وتعاليمه بين الشعوب التي لا تدين بالمسيحية ورصدت لها الميزانيات الضخمة وباشرت نشاط الكنيسة التبشيري وشجعته، وأكبر مثال لهذا الاتجاه هو موقف فرنسا التي أعلنت نفسها حامية للمذهب الكاثوليكي في العالم ولا نبالغ إذا قلنا إن هذا موقف دول أوربا وأمريكا الآن في القرن الحاضر.

فلا نجد دولة إلا ولها مؤسساتها التبشيرية في العالم شرقا وغربًا وتؤكد المفاهيم على المعنى السابق لمصطلح العلمانية، فهو ليس نسبة إلى العلم إنما هو

وثنية في مقابل الدينية، أو النظام اللاديني في مقابل النظام الديني والمراد بلفظ الديني هنا هو النظام الكنسي وليس الدين بالمعنى العام، وترتب على شيوع هذا المصطلح أن أوربا فصلت فصلا تامًّا بين ما هو كنسي، وما هو دنيوي، وجعلت سلطة الكنيسة مقصورة على ممارسة حقها في السلطة الروحية فقط ولا شأن لها بأمور الدولة أو إدارة شئونها السياسية والاجتماعية وسار الفصل بين السلطتين الدينية والدنيوية أمرًا واقعًا في أوربا.

ولعل من المفيد أن ننبه هنا إلى ضرورة التفرقة بين التسلط الكنسي الذي ترفضه العلمانية والدين المسيحي بصفة عامة، ذلك أن الدول التي رفضت التسلط الكنسي لم ترفض الدين المسيحي كعقيدة يؤمن بها الأفراد أو يرفضونها حسب حريتهم الشخصية فإن معظم دول أوربا على هذا النحو الذي أشرنا إليه سابقًا فهي لم تحارب المسيحية ولكنها أقصتها عن نظام الدولة، وهذه التفرقة مهمة جدًا؛ لأن بعض الباحثين يرى أن العلمانية اتجاه محايد وليس مناهضًا للدين ويستدل على رأيه بموقف دول أوربا من المسيحية فهي لا تحارب المسيحية ولكنها لا تأخذ بها في نظام الحكم، والعلمانية عند أصحاب هذا الرأي لا تعني اللادينية ولكنها تعني – كما سبق أن أوضحنا – أنها ليست إقصاء الدين عن نظام الحكم فقط ولكنها إقصاء الدين عن نظام الحياة كلها، حياة الفرد وحياة الجماعة، سواء في ذلك الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ولقد ترتب على هذا الفصل بين الديني والدنيوي أن ظهرت الازدواجية في شئون الحياة كلها فظهرت المدرسة المدنية بجانب المدرسة الدينية، والحكم الديني بجانب الحكم العلماني الدنيوي والدولة الدينية في مقابل الدولة المدنية.

٢ -ظروف النشأة وأسبابها:

كان المجتمع الأوربي يعيش في العصور الوسطى حياة تحيط بها ظروف معيشية قاسية، فالفقر والجهل كانا صفتين لازمتين لسكان هذه المناطق، وكان الناس يخضعون في سلوكهم وعلاقتهم الاجتماعية لعادات وتقاليد أشبه بالجاهلية الأولى، فحياة القبيلة والتعصب لها والتعبد بعاداتها والخضوع لتقاليدها والقتال دونها كانت كلها الشغل الشاغل لسكان هذه المناطق، أما بالنسبة للدينية الرسمية التي كانوا يعتقدونها فقد فرضت عليهم الإمبراطوريات المتعاقبة عبادة المسيح بدلا من عبادة الله أو بدلا من عبادة الإمبراطورية وظلت أحوال أوربا تنتقل من سيء إلى أسوأ في الاعتقاد والسياسة والاجتماع إلى مطلع عصر النهضة وكان من الطبيعي للإنسان الذي يعيش تحت هذه الظروف، أن يؤمن بكل ما يلقى عليه ويخضع لكل ما يطلب منه ولم يكن هناك من سلطة تفرض على الناس أوامرها وتطلب منهم تنفيذها إلا سلطة رجل الدين، وأدى ذلك إلى نوع من التسلط الذي تعاملت به الكنيسة مع الناس فأذلوا رقابهم ونهبوا أموالهم تحت اسم الدين وسوف نركز على نقطتين مهمتين كانا من أهم العوامل التي ساعدت على ظهور العلمانية وشيوعها.

أ -طغيان الكنيسة وتسلطانها:

لقد ساعدت الظروف التي عاشتها أوربا على خلق طبقة من الطغاة تستروا باسم الدين وفرضوا على الناس مجموعة من العقائد والأوامر التي لم يترل بها وحي ولم يقرها عقل ولا يقبلها الواقع ففرضوا الضرائب الباهظة على الناس وجمعوا الأموال وملكوا الإقطاعات الكبيرة وسخروا الناس في العمل بها بلا أجر مقابل وعود مزعومة سمعوها من رجال الكنيسة، وادعى هؤلاء لأنفسهم الحق الإلهي في تنصيب الإمبراطور وعزله عن الحكم، وكان هذا الزعم الخاطئ سببًا

في خلق نوع من التحالف بين رجال الكنيسة من جانب والإمبراطور الذي يقومون بتنصيبه حاكما من جانب آخر، فكان الإمبراطور وكيلا عن الكنيسة في تنفيذ أوامر رجالها وفرضت الأتاوات وجمعتها نيابة عنهم من الناس وبالتالي كان رجال الكنيسة يباركون كل فعل يقوم به الإمبراطور وكل أمر يفرضه على الرعية، وكان هذا التحالف سببًا في إيجاد نوع من الكراهية الشديدة لرجال الدين والإمبراطور معًا.

وظهر في المجتمع الأوربي طبقتان متميزتان هما طبقة النبلاء والحكام وطبقة رجال الدين وما عدا هاتين الطبقتين فكانوا رقيقا وعبيدًا يعملون في خدمة الطبقتين السابقتين سخرة بلا أجر، وزاد طغيان الكنيسة فحرمت على الناس ما أحل الله لهم.

- فحرمت عليهم الختان بعد أن كان حلالاً.
- وحرمت زواج رجال الدين بعد أن كان حلالاً.
- وفرضت عقيدة التثليث التي لم يقبلها عقل المفكرين والعلماء.

ثم حدث نوع من انصراع الدفين بين رجال الكنيسة من جانب والإمبراطور من جانب آخر وأخذ كل منهما يتربص بالآخر ويتحين الفرصة للخلاص منه فقد ضاق الإمبراطور ذرعًا بطغيان الكنيسة ومحاولة السطو على سلطته والتدخل الكثير في شئون السياسة والدولة، ومع هذا الشعور بالكراهية فإنه لا يملك حق الرفض لأوامر الكنيسة لأنه –حسب زعمهم– ينفذ أوامر الله وأن خضوعه لسلطانها ليس اختياريًا ولا تطوعًا منه ومن هنا كان رجال الكنيسة يهددون الإمبراطور بالطرد والعزل عن الحكم كثيرًا،ويذكر التاريخ أن بعض رجال الكنيسة وهو "جريجوري السابع" قال: إن الكنيسة جديرة بأن تكون صاحبة السلطة العالمية، ومن حق الباب أن يخلع الملوك غير الصالحين وأن

ينصب ويؤيد من يراه من البشر صالحًا للحكم حسب مقتضيات الأحوال، وقد مارس" جريجوري" هذا الحق عمليا مع إمبراطور ألمانيا "هنري الرابـع" حـين اختلف معه في بعض المسائل، فأعلن الإمبراطور خلع البابا وعزله عن الكنسة وكان الرد على ذلك أن أعلن البابا خلع الإمبراطور وعزله عن الحكـم وزاد على ذلك أن حرمه من رحمة الكنيسة وعين أحد خلفائه في مكانـه وأخـذت الفجوة تتسع بين الكنيسة والإمبراطور تدريجيًا حتى أعلنت الإمبراطورية الفصل التام بين السلطتين بين السلطة الدينية والسلطة المدنية وذلك بعد شيوع الاتجاه العلماني وتطبيقه.

ب -بين حقائق العلم وخرافات الكنيسة:

لقد ادعى رجال الكنيسة لأنفسهم حق تفسير الظواهر الطبيعية، وأقحموا أنفسهم وأقحموا المسيحية معهم في مجالات علمية لا علاقة لهم بها وليس للدين فيها رأي لا سلبا ولا إيجابًا وإنما ترك تفسير الظواهر العلمية لأهل المعرفة بها من العلماء كل في مجال تخصصه، وكان مطلب الدين من المؤمنين بـه أن يؤمنـوا بالموجود على ما هو عليه في الوجود على أنه آية دالة على خالقه، وترك تفسير هذا الوجود بظواهره المختلفة للعلماء به عن طريق الكشف عن قوانينه وترابط الأسباب بمسبباتها، ولم يحدد الدين رأيًا معينًا ألزم الناس به لا في حركة الأفلاك ولا في تفسير الظواهر ولا في أصل الكون وإنما ترك للعقل أن يبحث ويطـرح الأسئلة ويبحث عن الإجابات ولكن رجال الكنيسة ادعوا أنهم وحدهم يملكون حق تفسير الظواهر وأنهم وحدهم أصحاب الرأي القاطع في هذه المسائل، ومما زاد الطين بلة أن هذه الآراء وتلك التفسيرات التي قالوا بها نسبوها إلى الـدين وادعوا لها العصمة فخلطوا بين نصوص الوحي وآراء الرجال، وطلبوا من الناس أن يؤمنوا بآرائهم على أنها وحي منزل معصوم من الخطأ وأن الخروج على هذه

الآراء كفر وإلحاد يعاقب صاحبه بالطرد والحرمان من رحمة الكنيسة، ولقد سيطر على عقول أوربا في العصور الوسطى بعض النظريات الخاطئة حول الأفلاك وحركتها وأن الأرض هي مركز الكون كما قال بطليموس وبعض آراء أرسطو في النفس واختلطت هذه الآراء بأصول المسيحية وصارت أصلا من أصول العقيدة عندهم، حيث تبنتها الكنيسة وآمنت بها ودعت إلى الإيمان بها.

ثم بدأت أنوار عصر النهضة تزحف إلى أوربا مع الحضارة الإسلامية خلال منافذ ثلاثة في الأندلس وصقلية وجنوب إيطاليا، وبدأت أوربا تتعرف على مناهج البحث العلمي والتجربة العلمية من خلال تعرفها على تراث المسلمين في هذه المناطق الثلاثة خاصة الأندلس، وبدأ العقل الأوربي يستيقظ من سبات الجهل والغفلة ليتعرف على خطوات المنهج التجريبي الذي يبدأ بملاحظة الظاهرة والتساؤل عن أسبابها وافتراض مجموعة من الفروض التي يتوقع الإجابة في واحد منها، وأخذوا يتعاملون مع الظواهر الكونية بهذا المنهج التجريبي كطريق يقيني للمعرفة ورفضوا تماما الأخذ بآراء الكنيسة أو الخضوع لسلطانها لأنهم فتشوا في آرائهم فلم يجدوا فيها ما يقنع العقل أو يعبر عن الحقيقة وإنما وجدوها محض خرافة قدسوها باسم الدين والدين منها براء، غير أن العلماء لم يسلم لهم هذا المناخ طويلا فسرعان ما بدأ الصراع بين رجال الكنيسة ونادوا بمحاربة هذا الوافد الجديد –العلم– الذي تعلمه هؤلاء من الكفار (المسلمين) الذي جاءوا إلى أوربا، واعتبرت الكنيسة آراء العلماء وساوس شيطانية يجب محاربتها، ولو أنصفوا أنفسهم ودينهم لخضعوا لرأي العلماء ونادوا به ودعوا إليه لأنه حقائق العلم وما عداه زيف وخرافة.

وكانت بداية الطريق في هذا الصراع هي نظرية "كوبرنيق" (١٥٤٣م)

التي اكتشف صاحبها أن الأرض ليست هي مركز الكون كما تدعي الكنيسة، وكما قال بطليموس وأن الأفلاك لا تدور حول الأرض، ووضع "كوبرنيق" كتابه عن "حركة الأجرام السماوية" شرح فيها نظريته تفصيلاً وبين آراءه في حركة الأفلاك وكانت على النقيض تماما مما تدين به الكنيسة فأعلنت الكنيسة الحرب على "كوبرنيق" ولم يفلت من العقاب إلا بسبب موته قبل طباعة هذا الكتاب، وأعلنت الكنيسة أن كل ما جاء في هذا الكتاب مخالف لروح الإنجيل وأنه وساوس شيطانية.

غير أن نظرية هذا العالم لم تمت بموته فقد جاء بعده من أحياها من بعده وأعلن أن ما فيها هو حقيقة العلم الذي يجب قبوله ورفض ما عداه وكان هذا العالم هو "جرادنوا برونو" الذي قدمته الكنيسة للمحاكمة حيث قضت عليه محكمة التفتيش بالحبس ست سنوات ولما لم يتراجع عن رأيه أمروا بإحراقه (١٦٠٠م) ليكون عبرة لغيره، من العلماء الذي يخرجون على سلطة الكنيسة.

ثم جاء "جاليليو" الذي اخترع التلسكوب وأثبت بالتجربة العلمية صحة نظرية "كوبرنيق" واعتنق رأيه ورفض رأي الكنيسة، وكان جزاؤه أن قدم لمحكمة التفتيش وقضي عليه سبعة من الكرادلة بالسجن وأمروا بتلاوة مزامير التوبة والندم في كل أسبوع لمدة ثلاث سنوات، ثم أعلن توبته وهو راكع على قدميه أمام رئيس المحكمة.

هذه نماذج قليلة من العلماء الذين واجهوا مصيرهم المؤلم أمام رجال الدين بسبب رفضهم لخرافات الكنيسة وتمسكهم بحقائق العلم الذي توصلوا إليه خلال بحوثهم وتجاربهم العلمية، وإذا كان الصراع في هذه الفترة قد اقتصر على بعض الشخصيات من العلماء والمفكرين فإنه قد اتخذ شكلا آخر في القرن

السابع عشر والثامن عشر فبعد أن كان الصراع قائمًا بين الكنيسة و"جاليليو" أو "كوبرنيق" أو "برونو" فإنه أصبح فيما بعد صراعًا بين الدين والعلم، بين الدين الذي تدعيه الكنيسة والعلم الذي توصل إليه العلماء أو بين الوحي والعقل.

وبدأ العلماء في القرن الثامن عشر نهضتهم العلمية وهم متربصون بكل ما هو ديني رافضون له، متمردون عليه باسم العلم أحيانا، وباسم العقل أحيانًا، وباسم حقائق الطبيعة أحيانًا أخرى ولم يعد هناك نص يستحق أن يوصف بأنه نص مقدس يعلو على نقد العقل، أو يمثل مرجعا يعودون إليه كمصدر للمعرفة بل أصبح الكتاب المقدس نفسه موضعًا للنقد والشك معًا؟

وارتفع صوت العلماء ينادون بتقديس العقل والعلم ومحاربة الدين ورفضوا النص ونبذوا كل القيود التي تعوق حركة العقل في سبيل الكشف عن الحقائق الكونية وقوى من هذه الدعوة الكشوف العلمية التي وصل إليها العلماء فيما بعد أمثال "نيوتن" وقانون الجاذبية وأسهمت كل هذه الاكتشافات في زلزلة أركان الكنيسة وارتفاع صوت العلم والعقل خلال القرن السابع عشر والثامن عشر بحيث جاءت الثورة الفرنسية ١٧٩٧م كمطلب ضروري لحسم هذا الصراع لصالح العلم والعقل في مواجهة الكنيسة وخرافاتها، وفتحت هذه الثورة الباب على مصراعيه لتنقل الصراع إلى العوام من الناس بعد أن كان مقصورًا على طبقة المفكرين من الفلاسفة والعلماء فقط، وأصبح الأرقاء والعبيد وعوام الناس هم رواد الثورة على الكنيسة وعلى الحكام في آن واحد وتمخضت الثورة الفرنسية عن نتائج كان لها أثرها في سيادة منطق العلمانية في مواجهة الدين والتدين.

فقد ظهرت في أوربا المسيحية لأول مرة في تاريخها دولة لا دينية هي فرنسا

تقوم فلسفتها في الحكم على الديمقراطية التي تحكم باسم الشعب وليس باسم الله، وتقوم عقائدها على حرية التدين بدلا من المذهب الكاثوليكي، وعلى الحرية الشخصية بدلا من الالتزام بالقيم الأخلاقية أو الدينية، وعلى دستور وضعي بشري بدلا من قرارات الكنيسة، وكان من أول أعمال هذه الثورة حل الجمعيات الدينية. وتسريح الرهبان الراهبات، ومصادرة أموال الكنيسة، وإلغاء كل الامتيازات الممنوحة لرجال الكنيسة وتحويل رجل الدين إلى موظف حكومي يعمل تحت رقابة الدولة بدلاً من أن تكون الدولة هي التى تعمل تحت رقابته.

وساعد هذا المناخ على شيوع الفكر اللاديني في أنحاء أوربا خاصة "فرنسا" وتبلور هذا الفكر اللاديني في اتجاهات فكرية متميزة أسهمت إلى حد كبير في نشأة المذاهب الفلسفية والعلمية التي تحارب الدين وتناهض التدين وتعتبر رجل الدين رمزًا للتخلف والجهل وداعية إلى الخرافة كالمذاهب الفلسفية الإلحادية، والوضعية المنطقية والطبيعية والاجتماعية، وأخذ علماء هذه المذاهب يدعون إلى تأليه العلم وعبادة العقل، وكان كتاب "جان جاك رسو العقد الاجتماعي" هو إنجيل الثورة الفرنسية المقدس حيث استبدل فيه مصلحة الوطن بالأخلاق والنظم الدينية وأحل عبادة الوطن محل عبادة المسيح، كما نادى أنصار المذهب الطبيعي بإحلال الطبيعة وقوانينها محل الدين، وصرح "فولتير" بأن "دين أهل الفكر دين رائع جدًا لأنه خال من الخرافات والأساطير...." وخال من العقائد التي تهين العقل".

ويمكن القول بأن الثورة الفرنسية قد حولت العلمانية من مبادئ نظرية إلى واقع عملي عاشته فرنسا وصدرت هذه المبادئ العلمانية إلى سائر أوربا فلم يعد هناك نص مقدس ولا دين يجب الأخذ بتعاليمه، وعم ذلك كل دول أوربا،

وجاء القرن التاسع عشر الذي شهد خضوع العالم الإسـلامي شـرقا وغربـا للاستعمار فاحتلت انجلترا وفرنسا معظم أقطار العالم العربي وكان مـن مهمـة الجيوش المستعمرة نشر هذا الفكر العلماني والعمل على تدعيم أركانه في سائر البلاد التي احتلوها وهي كلها بلاد إسلامية.

* * *

قضية التدين:

التدين من الأمور التي لا تحتاج إلى دليل لإثبات صحتها؛ لأنها قضية فطرية وغريزة إنسانية وحاجة نفسية، فإن الله تعالى قد فطر الإنسان على محبة الخير ومحبة الحق وتحصيلهما، والسعي إليهما، والاطمئنان لهما، ومن منطق هذه الغريزة الفطرية نجد كل إنسان -بل كل كائن حي- يسعى جاهدًا لما يظنه خيرًا له، وما يعتقد أنه الحق ويسعى في طلبهما وقد يقاتل دونهما. وهذا أمر يحسه كل منا في داخله بحيث لا يحتاج إلى برهنة أو استدلال، فأنت ترى الطفل حين يولد مدفوعًا إلى التقام ثدي أمه، دون معلم ولا مرشد كما لو كان مدربًا على ذلك من قبل،وليس هذا في طفل الإنسان فقط بل نجده في طفل الحيوان أيضًا، وذلك استجابة لتلك الغريزة الفطرية التي فطر الله عليها كل كائن حي، محبة الخير ومحبة الحق، وتحقيقا لما يظنه الإنسان خيرًا تجده مرتبطًا في أول عهده بالحياة بأمه التي يتغذى منها ويظن أنها مصدر الخير له، ثم تجده بعد ذلك يرتبط بوالده ثم بأستاذه ثم برئيسه في العمل وقد يظل ذلك الارتباط طويلا لغلبة الظن أن هؤلاء جميعا مصدر الخير له، فإذا ما تعرف الإنسان على ربه وآمن بأنه الخالق الرازق، والمعطي والمانع، والضار والنافع وأن كل هذه الوسائط أسباب مسخرة لتستقيم بها حركة العمران في الكون إذا ما تم له ذلك فإن قلبه يتعلق بالله تعالى باعتباره مصدرا لكل خير وصاحب كل نعمة، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾.

تراه قد اطمأن بذلك قلبه، وهدأت نفسه، وبدأ يتعامل مع الناس بل مع الكون كله على أنه وسائل سخر الله بعضها لخدمة البعض الآخر، فالكل في

خدمة الكل، وهذا قانون عام يجب أن يتنبه له الإنسان جيدًا، وهذه هي سنة من سنن التدافع في الكون، ونوع من قانون التسخير العام الذي نبهنا إليه القرآن الكريم.

وهنا أمر يجب أن ننبه إليه وهو أن قضية الاعتقاد في الرب الخالق قضية فطرية أيضا، فطر الله الجميع عليها كما قال (ﷺ): "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدع.." والفطرة المقصودة هنا هي الإسلام، هي دين جميع الأنبياء، هي الحنفية، ففي الحديث الصحيح الذي رواه الرسول (ﷺ) عن ربه: « خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين وأحلت لهم ما حرمت عليهم..» وهذه الفطرة هي الأساس النفسي الذي اعتمد عليه الأنبياء في مخاطبة أقوامهم بالإيمان بالله خالقًا وإلهًا معبودًا وخاطبهم الوحي مذكرًا لهم بهذه الفطرة الموجودة في نفوسهم سلفًا.

ومن هنا جاء خطاب القرآن في هذه القضية بأسلوب التذكير والتذكر، وحصر القرآن وظيفة الرسول (ﷺ) في هذه القضية ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾، ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾ وسمي القرآن نفسه تذكرة فقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾ والحديث في هذه القضية يحتاج إلى تفصيل ليس هذا موضعه ولكنا أردنا بذلك أن ننبه إلى أن كل إنسان قد فطره الله على الاعتقاد الذي هو جوهر الإيمان، وهذا الاعتقاد حاجة نفسية وضرورة إنسانية وحاجة النفس إلى الاعتقاد أكثر إلحاحًا على الإنسان من حاجته إلى الطعام والشراب، وقد يضل الإنسان أحيانًا في اعتقاده وقد يخترع الإنسان لنفسه من يتوسم فيه الخير فيطلبه منه ويعبده ويقصده ويتوجه إليه كما هو الشأن في أصحاب الأديان الوضعية والأساطير الشعبية وكانت من مهمة الأديان تصويب هذا الاعتقاد وتصحيح

مساره نحو الحق الكامل لإشباع هذه الحاجة النفسية ولتذكير الإنسان بربه الخالق فيعبده ويتوكل عليه.

وليس ذلك إلا لأن التدين أصيل في النفس الإنسانية والإلحاد عارض عليه، التدين فطرة والإلحاد شذوذ، التدين مطلب العقل الصحيح والإلحاد حالة طارئة لعلة مرضية وشبهة عارضة.

ولو تأملت تاريخ الحضارات الإنسانية شرقا وغربًا سوف تلاحظ أن الإلحاد في كل حضارة شذوذ وخروج على الأصل ولعل أكبر دليل على هذا أن تاريخ الحضارات الإنسانية يحتفظ بأسماء الملحدين في كل عصر وفي كل ملة وذلك لندرتهم وشذوذهم، ومن هنا فإن كل مذهب فكري أو سياسي أو اجتماعي جعل مهمته أن يحارب التدين أو يعارضه فإنه محكوم عليه بالفشل ويحمل معه دليل فساده ويكون هو برهانًا على زلل أصحابه.

وليس ذلك إلا لأن الإلحاد يناقض الفطرة الإنسانية ويعارضها، وكل أمر معارض للفطرة فإنه مرفوض في منطق العقل وتحكيم الواقع، ومن هنا كان التدين أمانا للنفوس واطمئنانًا للقلب، وحاجة النفس إلى التدين كحاجة الجسم إلى الطعام وكما أن المعدة لا ترفض الطعام إلا لمرض طرأ عليها فكذلك النفوس لا ترفض التدين إلا لعلة عارضة وشبهة طارئة وإذا زال المرض عادت النفس إلى حالتها من الصحة فتقبل التدين الذي هو مقتضى فطرتها.

وإذا رجعنا إلى تعريف العلمانية سوف نجد بينها وبين التدين تناقضا لا مجال لرفعه وإزالته وهذا التناقض قد اصطدمت به الحضارة الأوروبية إبان عصر النهضة، حيث لم تستطع أن تتخلص أبدًا من الإيمان بالمسيحية كعقيدة يؤمن بها الغرب وتدين بها شعوبه فتركت للناس حرية الاعتقاد بخلاف الدول

الشيوعية التي حاربت التدين وناصبته العداء، ولم يدم ذلك طويلا وكان مآلها الانهيار والخراب، وهذا الموقف جعل بعض الباحثين يذهب إلى القول بأن العلمانية في أوربا محايدة ولم تصطدم بالدين.

العلمانية في العالم الإسلامي:

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى تعريف العلمانية سوف نجد أن بينها وبين التدين خاصة الدين الإسلامي —تناقضًا لا مجال لإنكاره أو التهرب منه، ذلك أننا أمام أمرين:

الأول : أن العلمانية — كما سبق أن بينا– ترفض الدين كمصدر وأساس للحكم– وطبعا الدين المقصود هنا هو المسيحية– كما ترفض العلمانية أن يكون للدين أي أثر في توجيه حياة المجتمع لا سياسيًا وثقافيًا ولا اجتماعيًا وينبغي إقصاؤه عن مناهج التربية والتعليم.

وسبق أن عرفنا الأسباب التي دفعت أوربا إلى اتخاذ هذا الموقف من رجال الدين وسلطة الكنيسة والسؤال المطروح هنا.

هل هذه الأسباب موجودة في الإسلام؟

إذا كان تسلط الكنيسة على العلماء ورفضهم للعلم سببًا في ظهور العلمانية في الغرب فهل الإسلام يرفض العلم أو يحارب العلماء؟

وهل الإسلام هو الكنيسة؟

وهل رفضت أوربا التدين بالمسيحية أم رفضت تسلط رجال الكنيسة...؟

هل ادعى علماء الإسلام أنهم يملكون حق تفسير الظواهر الطبيعية كما ادعت ذلك الكنيسة...؟

هل ادعى أحد من علماء المسلمين أنه يملك حق المنح والمنع من رحمة الله كما فعلت الكنيسة...؟

هل ادعى أحد من العلماء أن بيده مفاتيح الجنة يعطيها لمن يشاء ويمنعها عمن يشاء؟

هذه أسئلة... وغيرها كثير – يجب طرحها على العلمانيين في بلاد المسلمين لأن هذه الأسئلة حاسمة في الموقف الثقافي بكامله، ولنعود هنا إلى سؤال آخر أكثر أهمية ما هي مبررات العلمانية في عالمنا الإسلامي....؟

إن موقف الإسلام من العلم والعلماء وشموله لنظام الحياة وسياسة الحكم سبق الحديث عنه بالتفصيل عند حديثنا عن المشروع الإسلامي للتنوير وسوف نوجز القول هنا عن:

آثار الفكر العلماني في بلاد المسلمين:

١– من المعلوم أن الثقافة الإسلامية بفروعها المختلفة في العقيدة والشريعة في السياسة والاقتصاد في الأخلاق والتربية في الاجتماع والحضارة، تأخذ كلها من معين واحد هو مصدر الإسلام، الكتاب والسنة، ومعنى ذلك أنها ثقافة دينية تدور في فلك الإسلام بأصوله وفروعه، الثابت فيها والمتطور، فهي نظام شامل ومنهج متكامل للحياة بأكملها على مستوى الفرد والجماعة، والنظام العلماني لا يسمح لأي فكر ديني أن يشارك في حركة الحياة أو يسهم في إدارتها سواء كان ذلك على مستوى الحكم والسياسة أو على مستوى الفكر والثقافة والتربية ومعنى ذلك أن مهمة الدين عندهم لا تتعدى ممارسة الشعائر على مستوى الفرد فقط، ولا يتعدى ذلك حدود علاقة الفرد بربه وذلك هو تفريغ الإسلام من محتواه وعزله تمامًا عن الإسهام في حركة الحياة كما هو الشأن في موقف أوربا من الكنيسة.

وفي هذه الحالة لابد من طرح سؤال ما نوع الثقافة المطلوب إحلالها محل الثقافة الإسلامية لتملأ على المجتمع فراغه الثقافي والفكري...؟

ما هو النموذج الثقافي المطلوب إحلاله محل الثقافة الإسلامية لننظم به شئون حياتنا...؟

والإجابة على هذه الأسئلة واضحة للجميع فإن النموذج المطروح علينا الآن والمطلوب منا الخضوع له هو النموذج الأوربي؛ لأن الثقافة الغالبة والمطروحة إعلاميا هي ثقافة الغرب العلمانية، علمانية في السياسة والحكم، في المال والاقتصاد، في التعليم والتربية والأخلاق، ومعنى هذا أننا سنجد أنفسنا يومًا ما في أحضان الثقافة الأوربية أو تحت سلطانها، وهذا هو التغريب المطلوب أو المفروض على العالم الإسلامي الآن، وقد بدأ الفكر العلماني يتسرب، إلى كثير من جوانب الحياة المعاصرة محل الشريعة الإسلامية في كثير من بلاد العالم الإسلامي، كما ظهر أثر العلمانية في كثير من مناهج التربية والتعليم في بلاد كثيرة وزاحم التعليم المدني الأزهر في مناهجه.

ولقد تبنى كثير من المتعصبين في العالم العربي الدعوة إلى العلمانية لا بمفهوم التخلص من سلطة رجال الدين ولكن بمعنى التخلص من الدين نفسه وبدأوا يخلعون على الإسلام ما خلعته أوربا على الكنيسة في العصور الوسطى دون أن يفطنوا إلى الفرق بين حقيقة الإسلام وموقف الكنيسة وصاروا يسمونه التنوير، وفي المقابل يصفون رجل الدين عندئذ بالتخلف والرجعية ويجعلون الدين أو التدين مرحلة تاريخية انتهى زمانها، ولكي تتقدم إلى الإمام فلابد أن نسلك مسلك الغرب، وقد يكون الأمر سهلا لو أنهم سلكوا طريق الغرب في الأخذ بأسباب العلم كمنهج للحياة، فإن ذلك مطلب شرعي لكنهم يدعون المجتمعات

الإسلامية إلى الإباحية باسم الحرية الشخصية، وإلى الإلحاد والتنكير للأديان باسم التنوير، وإلى التمرد على النصوص المقدسة كتابًا أو سنة باسم تحرير العقل وحرية التفكير، وكم ضيع المسلمون من موارثيهم ومقدساتهم تحت هذه الشعارات الزائفة.

* * *

الصهيونية

يرى كثير من الباحثين أن حركة الصهيونية هي الوليد الشرعي للماسونية العالمية كوسيلة يهودية للسيطرة على العالم، وتتخذ مركزها أرض فلسطين.

ويرجع المصطلح في أصل نشأته إلى حبل صهيون في القسم الجنوبي من القدس، الذي تقول أسفار التوراة إن الملك داود بنى بها الهيكل الذي يسمونه بيت الرب.

وتشرح دائرة المعارف البريطانية هذه الحركة الصهيونية فتقول: إن اليهود يتطلعون إلى افتداء إسرائيل واجتماع الشعب اليهودي في فلسطين واستعادة الدولة اليهودية وإعادة بناء الهيكل وإقامة عرش داود في القدس ثانية وعليه أمير من نسل داود [1]، ويذهب إلى نفس التحليل أصحاب دائرة المعارف اليهودية، وهي حركة سياسية عنصرية تستخدم العنف والاغتيال وسيلة لتحقيق أهدافها ومطالعها السياسية في الاستيلاء على الأرض، ويرى البعض أنها القومية اليهودية التي ينتمي إليها يهود الشتات وغيرهم، ولا علاقة لهذه الحركة العنصرية باليهودية الصحيحة لأنها تستمد عقائدها من التلمود وتحاول أن تجد لها نسبًا تاريخيًا بالتوراة عن طريق تحريف النصوص واختلاف الأسفار، وبعض المفكرين اليهود يحاول التخلص من هذه الحركة العنصرية.

وقد مر تاريخ هذه الحركة بمراحل متعددة ومتداخلة تاريخيًا، وسوف نكتفي في هذه الدراسة بالإشارة إلى مرحلتين فقط.

---

(١) دائرة المعارف البريطانية، ط ١، سنة ١٩٢٦م، ص ٢٧، ص ٩٨٦، عن جذور البلاء عبد الله التل ص ١٣٨.

المرحلة الأولى: وتدرج تحتها كل الجمعيات السرية والعلنية التي تنتمي إلى هذا الفكر الصهيوني المستمد من نصوص التلمود أحيانًا ومن أسفار العهد القديم أحيانا أخرى، ويمتد تاريخ بعض هذه الجمعيات إلى سنة ١٣٨ م مثل حركة (باركوخيا) الذي أثار الحماسة في نفوس اليهود وحثهم على السعي والتجمع في أرض فلسطين والعمل على بناء الهيكل في جبل صهيون، وذلك كرد فعل على انتشار الديانة المسيحية الجديدة في ذلك الوقت، ومثل حركة (دافيد روبين سنة ١٥٠١م) وحركة منشئة بنى إسرائيل ١٦٠٤- ١٦٥٧م، وحركة رجال المال بزعامة روتشيلد... إلخ.

وكل هذه الجمعيات أو الحركات العنصرية تحاول أن تجد لفكرها سندًا من أسفار التوراة أو العهد القديم لتجعل من الصهيونية عقيدة جديدة يدين بها يهود العالم وليحل التلمود محل التوراة.

فمن النصوص التوراتية التي يدينون بها والتي ورد فيها ذكر صهيون: "أخذ داود حصن صهيون، هي مدينة داود، أقام داود في الحصن، وسماه مدينة داود" ترنمي وافرحي يا ابنة صهيون لأني ها أنذا آتي وأسكن في وسطك. يقول الرب فيتصل بالرب أقم كثير في ذلك اليوم".

ابهجي جديد صهيون، اهتفي يا ابنة أورشليم، هوذا ملكك يأتي إليك وهو عادل ومنصور ووديع".

من أجل صهيون لا أسكت، ومن أجل أورشليم لا أهدأ حتى يخرج برها كضياء وخلاصها كمصباح فترى الأمم برك وكل الملوك مجدك وتتسمين باسم جديد يعينه فم الرب.

"الذين قهروك يسيرون إليك خاضعين، والذين أهانوك يسجدون لدى باطن قدميك ويدعونك مدينة الرب صهيون"

"الرب اختار صهيون، اشتهاها مسكنا له،هناك أتيت قرونا لداود أرتب سراجا لمسيحي".

"على جبل صهيون أمر الرب بالبركة حياة أبدية" [1].

هذه النصوص وغيرها كثير يدعونا إلى إعادة النظر في الموقف الصهيوني كاملا، وهل علاقة إسرائيل بالأرض الفلسطينية من منطلق سياسي أم من منطلق عقائدي ديني، وهل الحروب التي خاضتها إسرائيل ضد العرب كان الدافع سياسيا أم عقائديا.. ولعل الإجابة على هذا السؤال توضح الفرق بين الموقفين، بين موقف إسرائيل في حروبها مع العرب وهي حرب عقائدية خالصة من وجهة نظرنا وموقف العرب الذي يخوض معاركه مع إسرائيل تحت مسميات كثيرة ويحاول أن يغيب الموقف العقائدي.

رغم أنه – من وجهة نظرنا – جوهر الصراع مع الصهيونية.

ومن الملاحظ تاريخيا أن نشاط هذه الحركة يقوي حينما يخبو الوعي أو يغيب لدى دول أوربا ويضعف عندما يستيقظ وعي أوربا وتنتبه لها، ذلك إن هذه الحركة تستخدم المؤامرات والدسائس والوسائل اللاأخلاقية في الوقيعة بين الدول والأشخاص الذين ترغب في التنكيل بهم وأهم هذه الوسائل استخدامها للمرأة والمال في اصطياد الفريسة التي تريدها، وغالبا ما يلتفون حول الدول الكبرى في كل عصر ثم يختارون الشخصيات المهمة في هذه الدول لتنفيذ أطماعهم ويغرونهم بالمال وبالمرأة فإن استجابوا لهم وحققوا أطماعهم كان جزاؤهم أن يسخروا الإعلام في خدمتهم، وإذا لم يحققوا لهم أهدافهم كان التشهير بهم وإثارة الفضائح حولهم، أو القتل والتصفية الجسدية هي خاتمتهم.

---

(١) راجع هذه النصوص جذور البلاء –عبد الله التل ص ١٤١– ١٤٢.

وينبغي ألا يغيب عن أذهان المسلمين أن الصراع الإسرائيلي العربي صراع عقائدي بالدرجة الأولى، لأن الحركة الصهيونية تلتزم في موقفها بنصوص التوراة والتلمود وتنفيذ التعاليم الدينية حرفيا مع أن هذه التعاليم لم ينزل بها وحي ولا يقرها عقل ولا دين ونحن نبرئ نبي الله موسى عليه السلام من النصوص التي ينسبها إليه هؤلاء اليهود، فإن الله تعالى يقول في حق الكتاب الذي نزل به الوحي على نبيه موسى (عليه السلام): ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا ... ﴾ وقال في حق التوراة ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ﴾ هكذا يقول القرآن الكريم الذي جاء مصدقا لما في التوراة "إنها هدى ونور" والذي يحكيه هؤلاء فيما بين أيديهم من التوراة ليس فيه إلا الضلال والظلام وينسبونه كذبا وبهتانا إلى نبي الله موسى (عليه السلام).

إن التعصب الديني الذي يمارسه اليهود مع العرب اختلقوا له نسبا مدخولا إلى التوراة بالتحريف والتزوير كما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾ وتتضح براهين هذا التعصب الديني في كل مرحلة من مراحل هذا الصراع.

فإن كلمة "إسرائيل" التي هي شعار هذه الدولة هي اسم لنبي الله يعقوب(عليه السلام) واستعملت أول مرة علمًا على هذا النبي الكريم، وقد جاء ذلك صريحًا في التوراة في أكثر من موضع. فقد جاء أن ملاك الرب قد صارع يعقوب من أول الليل إلى مطلع الفجر، وتجلت قدرة يعقوب في مغالبة ملاك الرب، فخلع عليه ملاك الرب هذا النقب الذي اتخذته إسرائيل شعارًا لها وعلمًا عليها.

ولا يخفى ما في هذه التسمية من دلالة دينية يتعصب لها بنو إسرائيل هذا

الموقف العقائدي الذي لا نجد له نظير في العالم كله، فلا يوجد بلد على وجه الأرض تسمى باسم نبي الله واتخذته شعارا مثل إسرائيل.

وليس في العالم الإسلامي بلد يحمل اسم نبي الله محمد أو اسم أي خليفة من الخلفاء الراشدين كما تفعل إسرائيل، ومع هذا أخذت ترمي المسلمين بالتعصب وتسخر الإعلام العالمي كله لكي يظهر المسلمين بأنهم إرهابيون متطرفون وأن إسرائيل هي حمامة السلام في المنطقة ونجحت هذه الأكذوبة في بلاد الغرب إلى حد كبير بحيث أصبحت كلمة إرهابي تعني المسلم أو العربي.

وتنطلق الحركات الصهيونية في تعاملها مع العرب من النصوص المحرفة التي يؤمنون بها فأخذت تدعو إلى إبادة العرب في فلسطين لأنهم نفايات بشرية (هكذا يقولون في إعلامهم) ويجعلون إبادة غير اليهودى عبادة يتقربون بها إلى الله. ولما كانت إسرائيل تظهر في أجهزة الإعلام الغربي بوجه مزور غير حقيقي حيث تدعي أنها حمامة سلام في المنطقة وأن العرب إرهابيون أعداء السلام كان من الضروري أن نضع أمام الشباب بعض النصوص التي يدين بها اليهود ويتعاملون بها مع العرب في فلسطين.

إذ من المعروف أن مصادرهم الدينية هي:

١-التوراة بأسفارها المختلفة.

٢-التلمود. وشروحه، ويحتل التلمود عندهم مرتبة مقدسة ربما فاقت التوراة، ولو ألقينا نظرة سريعة على بعض هذه النصوص سوف نجد مصداق ما نقول من أن هذا الصراع القائم له أسسه العقائدية التي تدين بها الصهيونية.

فلقد أباحت تعاليم العهد القديم للإسرائيلي أن يسلب أموال غير اليهودي ونسبوا في التوراة هذا التصريح إلى موسى عليه السلام حين خروجه

من مصر [1]، وأباحت لليهودي أن يتعامل بالربا مع غير اليهودي، وأن يسرق غير اليهودي ولا يفعل ذلك مع اليهودي.

وقد حرموا على اليهودي أن يرد مالا اقترضه من غير اليهـودى تنفيـذًا لتعاليم التلمود الذي يقول: إن الله لا يغفر ذنبًا ليهودي يرد للأمي ماله المفقود وغير جائز رد الأشياء المفقودة للأجنبي، يذنب اليهودي ذنبا كبيرًا بـرد المـال للأمي لأنه بذلك يقوي الكفرة، ويظهر اليهودي بأنه يحب الوثنيين.

لا تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من إخوتك أما الأجنبي فيستثنى من ذلك.

أموال الأميين مباحة ولكل يهودي الحق في وضع يده عليها.

ويدعون أن الله قد منحهم أرض فلسطين كما صرحت بـذلك التـوراة ولابد من القتال للحصول عليها ويباح لليهودي أن يرتكب جميع الجرائم لكي يحتفظ بهذه الأرض التي تتسع حدودها لتشمل الوجه البحري من أرض مصـر، فقد جاء في التوراة:

"ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر له الرب وقـال لـه أنـا الله القدير.. أقيم عهدا بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًا..." "لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهـر الفـرات... أن جميع الأرض التي تنظر هي لك ولنسلك من بعدك..

وفي التوراة: تجندوا كما أمر الرب، قتّلوا كل ذكر، قتلوهم فوق قـتلاهم اسبوا النساء والأطفال، انهبوا الأموال، والبهائم، كل أملاكهم كمـا أمـركم

---

(١) سفر الخروج ١١- ١- ٦ عن عقائد وتيارات فكرية معاصرة ص ٢٨- ٢٩ تأليف محمد السيد الجليند وآخرين.

الرب، احرقوا المدن وجميع الحقول بالنار،ولقد أباحت لهم التوراة التمثيل بالقتلى والنشر بالمناشير فقد ورد في سفر صموائيل" وأخرج داود الشعب الذي فيهما ووضعهم تحت المناشير ونوارج من حديد وفؤوس من حديد وأحرقهم في آتون وهكذا صنع في مدن عمون.

وأما عن الأخلاق التي تأمرهم بها التوراة، وأما عن اعتقادهم في الله، في الرسل، في الملائكة، في اليوم الآخر فإن نصوص التوراة في ذلك هي دليل التحريف والتزييف وحاشا لله أن يترل وصية بهذه بالأباطيل وتلك الأكاذيب.

وأما عن تعاملهم مع غير اليهود فإن التلمود يوصيهم بالآتي:

١-إذا ضرب أمي إسرائيليا فإن الأمي يستحق الموت، لأنه بذلك ضرب العزة الإلهية.

٢-قريب اليهودي هو فقط جدير بالحياة، وباقي الناس حيوانات في صورة إنسان.

٣-إن روح اليهودي مصدرها الله، وروح غير اليهودي مصدرها الروح النجس.

٤-يجب أن يكون شعارهم الغاية تبرر الوسيلة. ولذلك فهم لا يحترمون العهد ولا يقدسون الكلمة.

٥-لليهودي الحق في اغتصاب الغير يهوديات لأن الفاحشة مع غير اليهوديات ليست بفاحشة.

٦-لا ضير على اليهودي إذا حلف كذبًا إذا تعارض الصدق مع مصلحته.

٧-إذا تضامن يهودي مع الأمي ضد يهودي آخر فإنه يحرم من الرحمة الإلهية.

٨-ليس لغير اليهودي حرمة فقتله مباح "اقتل الصالح من غير الإسرائيليين ومحرم عليك أن تنجي واحدًا من الأميين"

وقد أبرم هذا العهد لإسحاق من بعد "إبرام" وكذلك تجدد نفس الوعد ليعقوب ولإسحاق "ففي سفر التكوين" ذهب إسحاق إلى ملك الفلسطينيين وقال له الرب، لا تنزل إلى أرض مصر. اسكن في الأرض التي أقول لك، ولأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد.

وقيل ليعقوب" والله القدير يباركك... ويعطيك بركة إبرام لك ولنسلك لترث أرض غربتك التي أعطاها الله لإبراهيم.

ثم تجدد نفس العهد بين الله وموسى في نصوص كثيرة من التوراة التي ذكرت مدن فلسطين بأسمائها الحالية مثل أريحا. جبل الفسجة، جلعاد، أرض أفريم البحر الغربي (الميت) مدينة صوغر (صور الحالية) وفي سبيل الحصول على هذه الأرض قيل في التوراة: كل مكان تدوسه يكون لكم من البرية ولبنان من النهر – نهر الفرات – إلى البحر الغربي يكون تخمكم. لا يقف إنسان في وجهكم.

وجاء الأمر في التوراة أن يمتلك اليهود هذه الأرض ويجعلوها لنسلهم من بعدهم ولا يجوز عندهم أن يتركوا أي وسيلة ممكنة في سبيل تحقيق هذه الوعود التوراتية، فقد أباحت لهم التوراة إبادة كل حي، إحراق كل أخضر من أجل الحرب وقتل كل الأحياء من أجل تحقيق النصر، فقد جاء في سفر "العدد" الأمر بطرد جميع السكان في الأرض أو أسرهم أو نهبهم وألا يستبقوا منهم أحدًا حتى لا يكون شوكة في ظهور اليهود من بعد.

وإذا استملت لهم مدينة يكون اليهودي مخيرا بين قتل سكانها ونهب أموالهم أو اتخاذهم عبيدًا للسخرة.

٩- يباح غش غير اليهودي وأخذ ماله ونهب ممتلكاته وسرقة الأجنبي مباحة [(١)].

---

(١) راجع النصوص التوراتية والتلمودية في المرجع السابق وانظر أيضا (الكنز المرصود) ص ٧٥- ٨٩.

الصهيونية المعاصرة:

يبدأ تاريخ هذه المرحلة على يد تيودر هرتزل (١٨٦٠- ١٩٠٤م) الذي يسمونه (نبي الصهيونية) فلقد عقد هرتزل أهم وأخطر مؤتمر للصهيونية العالمية في مدينة (بال) بسويسرا وطرح فيه التصور العام لتأسيس دولة إسرائيل الكبرى ووضع التخطيط المرحلي لقيام هذه الدولة وبرامج تأسيسها وصرح في هذا المؤتمر بأن العالم سوف يرى دولة إسرائيل بعد خمسين عامًا، وأوصى في هذا المؤتمر بإحياء الآداب اليهودية وتعليم اللغة العبرية وإنشاء صندوق تمويل للمشاريع اليهودية، وقد توجه هرتزل وهو يحمل معه قرارات هذا المؤتمر ليطلب من السلطان عبد الحميد أن يمنحه أرض فلسطين لتكون نواة لتأسيس دولة إسرائيل وتكرر هذا المطلب على يد "هرتزل" وتكرر معه الرفض القاطع من السلطان عبد الحميد واستعمل وسائل الإغراء المختلفة لكي يثني السلطان عن موقفه، وقال له السلطان عبد الحميد كلمته التاريخية(إن ذلك لا يكون إلا على أجسادنا)

ثم بدأت الأحداث تتلاحق طوال القرن الحاضر بين مد وجذر حول قصة الصراع العربي الإسرائيلي حول أرض فلسطين، واستطاعت الصهيونية العالمية أن تجند لخدمة أغراضها كل وسائل الإعلام في العالم الغربي في الوقت الذي تسابقت فيه دول أوربا للقضاء على أهم رمز إسلامي يجمع حوله المسلمين شرقا وغربا وهو إسقاط الخلافة العثمانية وتفكيك أواصر الوحدة للأمة الإسلامية وتفرق المسلمين أيدي سبأ كما يقولون واستولت بريطانيا وفرنسا على معظم أقطار العالم العربي -قلب الأمة الإسلامية- وكان وعد "بلفور" ١٩١٧م إيذانا لميلاد هذه الدولة اللقيطة الذي اكتمل ١٩٤٨م، وتحقق بذلك كلام هرتزل ثم أخذت العلاقة بين الصهيونية والإسلام شكلا آخر من أشكال

الصراع حيث قطعت أمريكا عهدا بحماية أمن إسرائيل وحماية تفوقها على المنطقة كلها.

وأخذت تمدها بالمال والسلاح المتطور في الوقت الذي تعلن فيه وبلا خجل معارضتها للحق العربي في فلسطين وتطوق العالم العربي –عن طريق المخابرات الأمريكية– بالفتن والانقلابات التي لم يسلم منها بلد إسلامي ليظل العالم الإسلامي مشغولا بهمومه الداخلية وتنفرد إسرائيل بفلسطين تعبث بمصيرهم وتفرض عليهم الأمر الواقع الذي تسانده القوة الأمريكية، وأن ما يجري على أرض فلسطين من بناء المستعمرات وتهويد القدس واستعمال أمريكا حق الفيتو لتعارض به أي قرار يدين إسرائيل أكبر دليل على ذلك.

وإننا لندعو الله تعالى أن يكشف عن أبناء فلسطين هذه الغمة وأن يحرر القدس الشريف من رجس الصهاينة وأن يشد من عزيمة مصر وأن يسدد على طريق الحق ولاة الأمور ليعود القدس إلى أحضان الحرمين الشريفين عزيزا مكرمًا.

* * *

البهائية

النشأة والتاريخ

لقد ظهر في العقود الأخيرة بعض البهائيين الذين يطالبون بحق البهائية في مباشرة نشاطها والإعلان عن نفسها في مصر، والمعروف أن هذه الفرقة – إن جاز تسميتها بذلك – ليست من أصحاب الأديان السماوية الثلاثة الرسمية التي يعترف الدستور المصري بوجودها على أرض الوطن – اليهودية المسيحية والإسلام – كما أن هذه الفرقة ليست تابعة للإسلام، ولا هي من الفرق المذهبية التاريخية التي عرفناها كالمعتزلة والأشاعرة والماتريدية أو الشيعة والخوارج، كما أنها ليست مذهبًا سياسيًّا يريد الإعلان عن مبادئه في ظل الدستور المصري وحمايته، وإنما هم جماعة من بقايا البهائيين في مصر الذين صدر ضدهم كثير من الأحكام القضائية، وأصدرت الثورة المصرية إبان قيامها في أول النصف الثاني من القرن العشرين قرارًا ثوريًا بوقف نشاطها في مصر وتأميم ممتلكاتها لصالح الأمة؛ وذلك لما لاحظته الدولة من نشاط سياسي مشبوه، واتصالها بالصهيونية ومعاونتها لها خلال حرب ١٩٥٦ م .

ولا شك أن كثيرًا من شباب الجيل لا يعرفون شيئًا، وربما القليل عن البهائية وظروف نشأتها وسيرتها التاريخية في المنطقة العربية، وقد حاولت أن تطل برأيها في الآونة الأخيرة مستغلة ظروف الأزمات الراهنة التي يعيشها العالم الإسلامي، ومستعينة في ذلك بالضغط الأمريكي الصهيوني على مصر، والعالم العربي ؛ لتعمل على تفتيت الوحدة الإسلامية والوطنية في مصر بالذات كهدف استراتيجي للنشاط الصهيوني في المنطقة. وإحساسًا منّا بخطر هذه اللحظة التاريخية، وما يدبره الأعداء لمصر خصوصًا وللأمة العربية عمومًا وجب علينا

التعريف بنشأة البهائية ونشاطها وعلاقتها بالاستعمار الصـــهيوني ودورهـــا في المنطقة العربية، فما هي البهائية، وما هي الظروف التاريخية التي أفرزتها، وما هي عقائدها، وما علاقتها بالإسلام من جانب وعلاقتها بالاستعمار الصهيوني مـــن جانب آخر .

النشأة وظروفها التاريخية :

لقد تأسست البهائية في طهران في القرن التاسع عشر الميلادي في ظروف سياسية وثقافية ساعدت على إفراز كثير من الحركات الدينية المنحرفـــة الـــتي خرجت كلها من عباءة الشيعة الغلاة حيث الحضن الطبيعي لكل فكر متطرف ومنحرف، فهناك تجد في الجو الثقافي الشيعي المغالي كثيرًا من المعتقدات التي تبرأ منها المعتدلون من الشيعة مثل: عقيدة الرجعة، والوصية والعصمة، والـــوحي، وادعاء النبوة، وعقيدة المهدي، وادعاء الألوهية، وقائم الزمان ...إلخ .

ساعد على شيوع هذه المعتقدات التراث الفارسي نفسه وامـــتلاء البيئـــة الجغرافية بكثير من الخرافات التي تروج على العوام، وتسد فراغًا دينيًا يعيشونه صباحًا ومساءً في طقوسهم وشعائرهم التي فرضتها عليهم عقيدة الرجعـــة، أو ظهور الإمام الغائب الذي ينتظرونه ويقفون على باب قبره، ويدعون له بالفرج، وأن يعجل الله ظهوره .

وفي هذا الجو المشحون بالخرافات ظهر رجل يسمى (أحمد الإحســـائي)، وأخذ يكثر الحديث عن الإمام الغائب، وأن وقت ظهوره قد أوشـــك، وأخـــذ يعمل على تهيئة العقول لاستقباله وساعده على ذلك استعداد النـــاس ذهنيًـــا وعقليًا لتقبل هذه الخرافات، فالتف حوله مجموعة من الأتبـــاع أطلقـــوا علـــى أنفسهم أتباع الشيخ أحمد أو « الشيخية » بحيث أصبح لقب الشـــيخية علمًـــا على هذه المجموعة من الأتباع، وأخذ جماعة الشيخية يقفون عند عتبة السرداب

الذي اختفى فيه الإمام الثاني عشر من الشيعة وهو (محمد بن الحسن العسكري) ويبكون ويدعون له بسرعة الفرج والظهور .

ورغم ما قيل عن شخصية (أحمد الإحسائي)، وهل هو مسلم شيعي أو قسيس نصراني، فإن قد ترك أثرًا كبيرًا في نفوس أتباعه، خاصة فيما يتصل بعقيدة الحلول، وعقيدة الرجعة أو الظهور، وعقيدة التناسخ . وأخذ يعلم الناس أن الإمام الغائب قد حلت روحه في أحد الأتباع كما حلت روح الله في جسد المسيح، وراجت هذه الأفكار بين فرقة الشيخية، وكان من بينهم (ميرزا علي) الذي كان من أكثرهم نباهة ونشاطًا، والذي اعتنق دعوة الشيخية، وأخلص لها، وأفاد منها في الدعوة لنفسه، وتلقب بالباب، وظهر بين أتباع الشيخية باعتباره الوارث لمنصب (أحمد الإحسائي) ثم مؤسس الفرقة الجديدة التي قامت على أنقاض الشيخية، وهي فرقة البابية نسبة إلى مؤسسها (الباب : ميرزا علي) . وهنا ينبغي أن نتلمس البداية التاريخية لفرقة البابية والبهائية على سواء، فإن الباب (ميرزا علي) قد تربى في أحضان الشيخية، ونهل من عقائدها، فضلاً عن تأثره بالمناخ الفكري العام السائد في البيئة الشيعية، وكان من أبرز هذه الأفكار شيوعًا فكرة الظهور للإمام الغائب، وما يحيط بها من معتقدات تتصل بشخص هذا الإمام، ويجب أن نعلم أن البابية والبهائية توأم لأم واحدة هو الفكر الشيعي المغالي الذي جسدته فرقة الشيخية .

الباب والبابية :

يعود ظهور مصطلح الباب تاريخيًا إلى فرقة الإسماعيلية الذين كانوا يستعملون لفظ الباب على المعلم باعتباره بابًا للوصول إلى العلم،عملاً بالحديث القائل:«أنا مدينة العلم وعلي بابها». والنصيرية يطلقون لفظ الباب على سلمان الفارسي، والدروز يطلقون على الوزير الروحاني الذي يتمتع بالعقل الكلي[1].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية : ٢٢٧/٣ ، وانظر : البابية د. إبراهيم الجيوشي ١٦/١ .

شاع استعمال مصطلح الباب في التراث الشيعي بصفة عامة لأن كثيرًا منهم كان يدعي أنه باب العلم الخاص بالأئمة، وأن (ميرزا علي) قد أطلق على نفسه هذا المصطلح، وسمي أتباعه بالبابية ؛ لأنه ادعى أنه باب العلم الذي يختص به الإمام الغائب، الذي ينتظره الشيعة، وأنه المظهر للحقيقة الإلهية .

مولده ونشأته :

ولد ميرزا علي محمد في شيراز، إحدى مدن جنوب إيران، يوم ٢٠ أكتوبر ١٨١٩، كان أبوه يعمل في التجارة، وعلى جانب من الثراء، لكنه توفي وابنه ما زال طفلاً فكفله خاله الذي كان يشتغل بالتجارة أيضًا، وتربى الطفل في أحضان خاله حيث تعلم القراءة والكتابة وحصل على قدر من التعليم الأولي، ثم اشتغل بالتجارة مع خاله في مدينة « بوشهر» على شاطئ الخليج العربي، ثم تزوج في الثانية والعشرين من عمره، ثم أعلن عن نفسه كداعية لتأسيس فرقة البابية، وزعيمًا لها، وهو في الخامسة والعشرين، حيث ادعى أن الله قد اختاره لمقام البابية « كواسطة للفيوضات من شحص عظيم محتجب خلف ستار العزة، ومتصف بكمالات لا تعد ولا تحصى، وأنه متحرك بإرادته، ومتمسك بحبل ولايته » [1]، وكان الاعتقاد السائد بين جماعة الشيخية هو قرب ظهور الموعود الإلهي (الباب)، وما أن أعلن الباب عن نفسه حتى التف حوله جماعة الشيخية، وأطلقوا على أنفسهم اسم البابية، وبدأت شهرة الباب تنتشر في أرجاء إيران، شرقًا وغربًا، وانتهى بظهوره تاريخ الشيخية تمامًا لتحتل مكانها طائفة البابية .

---

(١) مقالة سائح : ص ٣، تأليف (الباب نقلاً عن بهاء الله للبروفيسود) أ- أسلمنت، وهو وثيقة تاريخية ألفها صاحبها عن البابية والبهائية، وراجعها قراءة على عبد البهاء الابن الأكبر للبهاء فأجازها ورضي عنها، وهي من أصدق الوثائق عن البهائية .

وجمع الباب حوله ثمانية عشر من أتباعه، أخذ يرسلهم إلى النواحي المختلفة للإعلان عنه وعن دعوته، وفي هذه الفترة أراد أن يذهب إلى الحرمين الشريفين في موسم الحج ؛ لبعلن عن نفسه أمام الحجاج الذين يفدون إلى تلك البلاد من شتى أنحاء المعمورة ؛ وليكون ذلك ظرفًا مناسبًا للإعلان عن دعوته بين الحجيج، وقيل إنه وصل إلى هناك في شهر ديسمبر سنة ١٨٤٤م، وأعلن عن نفسه أمام الناس، وكانت هذه المرحلة بمثابة الإعلان الرسمي عن دعوة الباب، فقام العلماء في إيران وفي غيرها بمهاجمته، وبيان ما في دعوته من الكفر والخروج عن الملة الإسلامية، وقد حوكم وسجن، وانتهى به الأمر إلى مقتله يوم ٩ يوليو ١٨٥٠، ولم يبلغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، وقتل باعتباره مرتدًا عن الإسلام داعية إلى الإلحاد والكفر . وبعد موته قتلاً، نقل أتباعه رفاته إلى مكان سري حتى يختفي عن أعين الرقباء، ثم نقلوه بعد ذلك إلى عكا، ودفن في جبل الكرمل، واتخذوا قبره مزارًا للتبرك به إلى الآن .

ترك الباب وراءه بعض الصحائف والمؤلفات التي نسبها أتباعه إليه، وكانوا يعتبرونها وحيًا سماويًا، ولقد نقل المستشرق (أ- أسلمنت) نصوصًا من مؤلفاته التي تدور في معظمها حول تفسير وتعلبقات على بعض الآيات القرآنية، وبعض المواعظ والأخلاقيات التي كان يبشر بها أصحابه على أنه « حرف من ذلك الكتاب الأعظم، وقطرة من ذلك البحر الذي لا ساحل له، وعند ظهوره تظهر حقيقتي وبواطن وأسراري، وألحاني، وينمو جنين هذا الدين في مراتب الوجود والعلا، وأنه جاء مبشرًا برسول يأتي بعده، وأنه جاء لتهيئة الطريق وتمهيده لشخص أعظم يأتي بعده، وكان ينادي بقرب ظهوره العظيم، وأن شمس الحقيقة ستظهر للناس في الهيكل البشري بالعظمة والإجلال » [1].

---

(١) راجع هذا النص وغيره : بهاء الدين : ص ٢٧-٢٨ وبعدها للمؤلف أ- اسمنت نقلا عن صحيفة الباب ص: ٣٤٩ .

ومن أهم مؤلفاته كتاب « البيان » الذي أودعه عقائد البابية وطقوسهم وشعائرهم في أسلوب ركيك ينقض آخره أوله، وتدعي البهائية أن هذا الكتاب لم يتم تأليفه في أيام الباب، وأن البهاء هو الذي أكمله، وأودع فيه عقائد البهائية أيضًا، وأن الكتاب قد تم فيه تعديلات بالحذف والإضافة بعد وفاة الباب، وهذا الكتاب قد جاءت فيه نصوص كثيرة تبشر بظهور البهاء، بعد مقتل الباب مما يدل على ما فيه من الأكاذيب المفتراة، والذي يدعو إلى الدهشة حقًّا ما جاء من حديث الباب عن نفسه، حيث قال :« كنت في يوم نوح نوحًا، وفي يوم إبراهيم إبراهيم، وفي يوم موسى موسى، وفي يوم عيسى عيسى، وفي يوم محمد محمدًا، وفي يوم علي عليًّا، ولأكونن في يوم من يظهره الله الآخر الذي لا آخر له قبل أول الذي لا أول له، كنت في كل ظهور حجة الله على العالمين » [1].

وتفوح رائحة الكفر من تعاليمه وتأويلاته الباطنية للقرآن وللعقائد الإسلامية، فلقد تأول القيامة على أنها قيامة الحقيقة الإلهية، وظهورها في مظهر بشري جديد وهو الباب، والبعث هو الإيمان المطلق بألوهية هذه الظهور الإلهي في البشر، ولقاء الله يوم القيامة على أنه لقاء الباب ؛ لأنه هو الله، والجنة هي الفرح الروحي الذي يشعر به المؤمن بالمظهر الإلهي في البشر، والنار هي الحرمان من معرفة الله في تجلياته في مظاهره البشرية[2]. كما جعل الباب القبلة علي البيت الذي ولد فيه بشيراز، ومدة الصوم عنده تسعة عشر يومًا، ويباح للصائم خمسة أيام من اللهو قبل شهر الصيام يفعل فيها ما يشاء من تحصيل لرغباته وأهوائه، كما ألغى نظام المواريث، واخترع نظامًا جديدًا

---

(١) راجع البهائية : عبد الرحمن الوكيل، ص : ١١٨، بهاء الله، ص ٢٧-٢٨ .

(٢) بهاء الله : ص ٢٥١، البهائية : عبد الرحمن الوكيل، ص ١١٩ .

يقتصر الإرث فيه على سبعة أنواع فقط من الوارثين، وأعلن نسخ جميع الأديان بدين البابية الجديد، وبعث برسالة إلى الشيخ محمود الألوسي صاحب التفسير المشهور (روح المعاني) يعلنه بدينه الجديد الذي يدعو إليه بقوله : إن من لم يدخل في دين الله (أي دينه الجديد) كمثل من لم يدخل في دين الإسلام . وكل من كان على شريعة الإسلام كان ناجيًا إلى ليلة القيامة، (وهي ليلة الخامس من شهر جمادى الأولى سنة ١٢٦٠ هـ) وهي الليلة التي أعلن فيها أنه القائم والمظهر الإلهي الجديد؛ ولهذا حرم على أتباعه قراءة القرآن من هذا التاريخ .

وأعلن على أتباعه أنه أفضل من النبي محمد، وأن قرآنه أفضل من قرآن محمد، وإذا قال محمد بعجز البشر عن الإتيان بسور القرآن، فأنا أعلن عجز البشر عن الإتيان بحرف مثل حروف قرآني، إن محمدًا كان بمقام الألف، وأنا بمقام النقطة، والنقطة تمثل عنده الأصل، والألف تمثل الصورة أو المثل [(١)].

وقد أوصى الباب قبل وفاته أن يتولى الدعوة من بعده (ميرزا حسين) ابنه الأكبر الذي لقب فيما بعد بالبهاء، وجعل وصيته له في الباطن ثم عهد إلى أحد إخوانه وهو يحيى (الملقب بصبح الأزل): في الظاهر حتى لا يقتتل الأخوان على رئاسة الفرقة .

وبهذه الوصية انتقلت الرئاسة الفعلية لطائفة البابية إلى (ميرزا حسين) الملقب بالبهاء بعد مقتل الباب، وأصبح لقب البهائية هو الاسم الجديد الذي استعمله المؤرخون علمًا على هذه الفرقة نسبة إلى البهاء (ميرزا حسين علي)

---

(١) تاريخ البابية : ١٦٥/٣، البهائية : عبد الرحمن الوكيل : ص ١٢٠-١٢١ .

البابية وعلاقتها بالاستعمار الروسي :

حاول الاستعمار الروسي أن يجد له أعوانًا في البيئة الإيرانية، لكي يستعين بهم في بسط سلطانه على الدولة الفارسية، وهذا مطلب روسي تكرر القيام به في محاولات كثيرة عبر تاريخ القيصرية الروسية وعلاقتها بإيران، وكان ظهور البابية بدعوتها الجديدة بمثابة الثغرة التي حاول أن ينفذ منها الروس للاستيلاء على الباب وأتباعه، واتخاذهم وسيلة سهلة لتنفيذ أغراضهم في بلاد الفرس، ولقد أثبتت الوثائق التاريخية التي دونها(المؤرخ الروسي كيتازد الغووروكي) في مذكراته أنه كان واحدًا من المكلفين بالبحث عن وسائل يسلكها الروس لإثارة الاضطرابات في إيران، وأنه وجد ضالته في طائفة الشيخية، ثم في البابية من بعدهم، يقول هذه المؤرخ : إنه كان يبحث عن وسيلة يضرب بها المسلمون بعضهم بعضًا ، تكون عاملاً في إثارة الفتنة والفرقة بين صفوف مسلمي إيران، وأن إثارة المشكلات الدينية وإثارة الشبهات حول العقيدة الإسلامية هي أيسر الطرق إلى ذلك ، فكانت البيئة الثقافية لطائفة الشيخية والبابية مناسبة لذلك، وكان أهم قضايا الخلاف التي أثارها هي معجزة الإسراء والمعراج، المهدي المنتظر، البعث، القيامة، وكانت الأسئلة التي يدور الحديث حولها تتعلق كلها بهذه القضايا، وكان (ميرزا علي محمد) الباب كثير الاستماع إلى هذا الرجل في حوزه مع الشيخية، وسمع الرجل يسأل عن المهدي المنتظر أين هو ..؟ فأجابه (الإحسائي) زعيم الشيخية : لعله موجود بيننا الآن .. ففكر الرجل طويلاً ثم نظر إلى الباب مبتسمًا، وتهلل وجه الباب . يقول المؤرخ الروسي فابتسمت له ابتسامة الظافر المنتصر، وعقدت عزمي أن أجعل من هذا الرجل المهدي المنتظر، وبدأت من هذا اليوم، لا أجد فرصة تسمح بالحديث معه إلا ألقيت في روعه أنه ذلك الرجل، أنه الموعود، أنه المهدي، أنه قائم الزمان،

وأخذت من يومها أناديه : يا صاحب الأمر، يا صاحب الزمان، وكان يظهر التأفف في أول أمره، لكنه لم يلبث إلا قليلاً حتى كان يتهلل بشرًا وسرورًا كلما ناديته بذلك، وحين مات الإحسائي، وجدت الميرز علي محمد يراسلني ويدعوني إلى اتباع مذهبه الجديد، وأنه الباب، وفجأة جاءني خطاب منه في مايو ١٨٤٤م، يدعوني إلى متابعته، فأجبته وأنا أول المؤمنين به[1] .

وقد نقل الدكتور إبراهيم الجيوشي في كتابه عن البهائية نصوصًا كثيرة يثبت بها دور الروس في تأسيس البابية وعلاقتهم بالباب ،وأنهم استعانوا برجل إيراني كان يعمل في بلاط الشاد ليمد الباب بالأموال التي يحتاجها للدعوة إلى مذهبه [2].

وقد نشرت مذاكرات هذا المؤرخ الروسي سنة ١٩٢٤-١٩٢٥، وحملت إلينا أسرار العلاقة القوية بين الباب والاستعمار الروسي، وقد عقب المؤرخ الروسي على مذكراته بقوله : الحمد لله أن سعيي لم يضع هباء، وأن جهودي التي أنفقت فيها الجهد والمال، قد أثمرت ثمرها، وآتت أكلها [3]، مما يدل على أن الرجل كان مكلفًا بمهمة شاقة، بذل في سبيل تحصيلها المال والجهد والوقت، وتعتبر هذه المذكرات وثيقة تاريخية هامة في التعرف على حركة البابية، وعلى مؤسسها .

---

(١) البابية : إحسان الهي ظهير : ص ٦٤١-٤٦٥، نقلا عن البهائية : د. إبراهيم الجيوشي : ١٧٤ .

(٢) راجع نفس المصدر: ص٣٤-٣٩ .

(٣) البابية والبهائية : د. إبراهيم الجيوشي : ٢/٤٨-٥٣ .

البهاء والبهائية :

كان مولد البهاء (ميرزا حسين علي) في يوم ١٢ نـوفمبر ١٨١٧ (٢ محرم ١٢٣٣ هـ) في طهران، وكانت أسرته على شيء مـن الثـراء وشـغلوا مناصب عليا في إيران فكان أبوه يشغل منصب وزير بالدولة، كما كان أفـراد عائلته يشغلون مناصب في المصالح الحربية، ولم يكن له حظ كبير من التعلـيم، فلم يذهب إلى المدرسة ولا إلى الكلية، بل تلقى تعليمه البسيط في المنزل على يد أبيه، مات والده وهو في سن الشباب، وعهد أبيه بشـئون أسـرته وأخواتـه، وعرضت عليه وظيفة الوزارة ليشغلها مكان والده فـرفض، وأراد أن يتفـرغ لدعوته الجديدة [1].

وكان البهاء قد اعتنق البابية وهو في السابعة والعشرين من عمره، وأصبح أحد المعروفين بالإخلاص والدعوة إليها، وصاحب كلمة نافـذة في سياسـتها، وحاول أن يكيد للشاه فدبر مؤامرة لاغتياله، وانكشف أمره، وحـوكم بهـذه الجريمة، وأودع السجن، وجرد من أملاكه، ولم يخرج من سـجنه إلا بواسـطة السفير الروسي الذي تبرع بشهادة زور أمام الشاه أعلن فيها أن ميرزا حسـين علي طاهر اليد، ولا علاقة له بهذه المؤامرة، فأصدر الشاه قرارًا بـالعفو عنـه، ونفيه إلى العراق .

وفي العراق لم يستقر به المقام فترة طويلة بسبب نزاع بينه وبين أخيه يحـيى على زعامة الطائفة، وفر هاربًا من العراق إلى السليمانية واشتغل فيهـا فتـرة بأوراد الصوفية، حتى جمع حوله بعض الأتباع، وكان يعيش فيها في حالة فقـر مدقع، ثم عاد ثانية إلى بغداد بناء على طلب بعض الأتباع .

---

(١) بهاء الله : ص ٣١ .

وفي عودته الثانية إلى بغداد بدأ يدعو إلى نفسه زاعمًا أن وحيًا نزل عليه في هجرته إلى السليمانية، وطلب منه نسخ بعض شرائع البابية، فثار عليه البابيون، مما جعل بالهاء يخفي ما أعلنه على الناس في دعوته الجديدة، ولجأ على الأسلوب السري في الدعوة، وأخذ يعمل على تنظيم لقاءات مع أتباعه في أماكن بعيدة عن أعين الرقباء، ، وكان يملي على أتباعه بعض الخطب والمواعظ بدعوى أنها وحي نزل إليه في خلواته .

ولما سنحت الظروف للبهاء للجهر بدعوته أعلن على الناس ما كان يخفيه وخاصة أمام الذين اشتدت صلتهم به ووثق بهم، فأعلن أنه الموعود بالظهور، الذي بشر الباب بظهوره . يقول (أ.أسلمنت) : واهتم اليهود والنصارى والزرادشتيون بالبهاء كاهتمام المسلمين به وبرسالته الجديدة، ولما علم قنصل إيران بنشاط البهاء ودعوته الخبيثة في بغداد أرسل إلى الشاه يخبره بواقع الحال التي عليها البهاء وأتباعه، وأنهم بمعاونة اليهود والنصارى والزرادشتيون يعملون على الإضرار بالديانة الإسلامية، وأن ذلك سوف يكون له الأثر السيئ في إيران، وطلب من الشاه أن يعمل على نفي البهاء إلى مكان بعيد عن إيران[1].

وفي هذه الفترة من تاريخ حياة البهاء، كتب بعض المؤلفات، ومن أهمها كتاب(الإيقان) الذي كتبه من (١٨٦٢ – ١٨٦٣) [2]، ثم طلبت الحكومة التركية أن ينتقل إليها البهاء بناء على رغبة من حكومة إيران، وقبل رحيله إلى تركيا، وبالتحديد في الفترة من ٢١ أبريل ١٨٦٣ م، إلى ٣ مايو ١٨٦٣، اجتمع البهاء بأفراد أسرته في حديقة أطلق عليها « حديقة الرضوان »، وأعلن

---

(١) بهاء الله : ص ٣٤-٣٥ .

(٢) نفس المرجع : ص ٣٧ .

على الحاضرين جهارًا أنه الموعود بالظهور الذي بشّر به الباب، وقد بشـر بـه جميع الأنبياء السابقين،وسميت هذه الحديقة التي أعلن فيهـا دعوتـه«بحديقـة الرضوان » تيمنًا بجنة الرضوان، وعرفت هذه الفترة التاريخية التي أعلن فيهـا دعوته (٢١ أبريل — ٣ مايو) بعيد الرضوان، واتخذه البهائيون عيدًا يحتفلون به كل عام، واستمرت رحلته إلى تركيا أربعة أشهر، وكان يتنقل فيها من مكان إلى مكان يدعو لنفسه وإلى دعوته إثناء رحلته إلى تركيا، فكلما مـر بقبيلـة أو مجموعة من الشيعة دعاهم إلى مذهبه الجديد إلى أن وصل إلى تركيـا، وأقامتـه الحكومة مع أسرته في « أدرنة » مدة أربع سنوات ونصف، وهناك أظهر دعوته للعوام، وظهر لقب البهائيين كمصطلح خاص بالبهاء وأتباعه[1]. وكان اختيار مصطلح البهاء والبهائية من عمل الصهيونية التي بدأ نفوذها يعلو ويسيطر على مقاليد الأمور في الدولة العثمانية ؛ لأن البهاء كان قد لقب نفسه بألقاب كثيرة قبل ذلك، ورضي أصحابه بهذه الألقاب مثل (الذكر، الطلعة المباركة، الجمال المبارك، جمال القدم) ؛ ذلك أن لفظ البهاء قد تـردد في التـراث الصـهيوني والشيعي كثيرًا، فإن بها الله صفة من صفات الجمال الإلهي، وفي سفر المـزامير وسفر أشعيا، ترددت ترنيمات كثيرة حول بهاء الله، وقد لقبته الصهيونية بهذه اللقب إرضاءً له وتوددًا إليه،وإشارة إلى القدر المشترك بـين دعوتـه وتـراث الصهيونية المقدس.

ولما ضاقت الحكومة التركية بنشاط البهاء نفته إلى عكا هو وأتباعه سـنة ١٨٦٨، وكان اختيار المنفى (عكا) بواسطة الصهيونية أيضًا .

وفي أرض فلسطين، أرض الميعاد كما تدعي الصهيونية نزل البهاء، وكـان معه سبعون رجلاً من أتباعه، وبدأت الصهيونية تنسج خيوطها العنكبوتية حول الرجل وحول ابنه من بعده (عبد البهاء) وحول دعوتهما الجديدة . فلم يمـض

---

(١) نفس المرجع : ص ٣٨ .

على إقامته في عكا أربعة أشهر حتى استطاعت الصهيونية أن تفك أسره مستعينة في ذلك بالرشوة لحكام إقليم عكا، وكان أول ما فعله البهاء بعد فك أسره أن أطاح بالجنود والأتباع الذين كانوا رقباء عليه من قبل السلطة، ولما افتضح أمره وانكشفت جريمته أودعته السلطة مع أسرته في منزل بعكا، وظل مقيمًا فيها إلى أن أصابته حمى وهو في الخامسة والسبعين من العمر ومات بها في ٢٨ سنة ١٨٩٢، حيث دفن جثمانه في عكا بجبل الكرمل على مقربة من المكان الذي دفن فيه الباب من قبل، وبذلك يكون جبل الكرمل في عكا قد ضم رفات كل من الباب والبهاء، وهذا يفسر لنا مكانة عكا عموما، وجبل الكرمل خصوصًا في تاريخ البهائية ومقدساتها .

وصية البهاء لابنه :

قبل أن يموت البهاء كتب لابنه (ميرزا عباس) عهدًا بوصيته، وأشار في كتابه (الأقدس) أن ابنه عبد البهاء (عباس) أكبر أبنائه هو خليفته من بعده، وأخذ يخلع على ابنه ألقابًا تضفي عليه أوصافًا مقدسة تثبيتًا لهذه الوصية والبهاء ما زال حيًا . فسماه : مركز العهد، الغصن الأعظم، والفرع المنشعب من الأصل القديم، وأحيانًا كان يدعوه باسم المولى، وطلب من الجميع أن يعاملوه باحترام، وأن يطيعوه في أمره ونهيه [١]، وبعد وفاة البهاء أخذ ابنه مباشرة مهام خلافته من بعده، وقد دوّن البهاء وصيته في مجموعة من الألواح أمضاها وختمها بخاتمه، ولم تفتح هذه الألواح إلا بعد وفاته بتسعة أيام بواسطة ابنه الأكبر (عباس)، وبحضور أفراد أسرته، وعرفت هذه الألواح بين أفراد الأسرة باسم العهد البهائي، وبمقتضى هذا العهد أصبح ابنه عباس مسئولاً عن تفسير أقواله وشرح آرائه، وتجديد مسيرة الدعوة البهائية [٢].

---

(١) بهاء الله : ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع : ص ٤٧ .

الثقافة البهائية :

لقد ترك البهاء أقواله وتعاليمه مدونة في صحائف ومؤلفات صغيرة أشبه بالرسائل والمتون الموجزة، التي يحتاج كل واحد فيها إلى شارح عارف بمصطلحات البهاء، وآرائه، ولذلك تعددت حولها الشروح والتفسيرات، وكان من أهم مؤلفاته كتاب (الإيقان)، و(كتاب الأقدس) .

١- وكتاب الإيقان عبارة عن مجموعة مقالات ورسائل وضعها البهاء ليؤيد فيها دعوة الباب، ويشير إلى مكانته العالية، فهو قائم الزمان، وهو المهدي المنتظر، وهو المظهر للحقيقة الإلهية، وهو النبي، إلى آخر هذه الدعاوي التي خلعها الباب على نفسه وأيده فيها البهاء .

٢- وله كتاب " الأقدس " بالفارسية، وهو أهم كتبه، وأكثرها شهرة، قد كتبه بلغة رمزية ملغزة، وبأسلوب أقرب إلى لغة المتصوف الفارسي الغنوص، حشد فيه كثيرًا من أفكار الإسماعيلية والزرادشتية، وإخوان الصفا، والباطنية، هو خليط من ثقافات مختلفة، أسلوبه ركيك العبارة، يصعب الوقوف على المعنى المراد منه، إلا لمن تدرب على لغة الرجل وتعرف على آرائه، ورموزه وألغازه .

وهذا الكتاب تلبية لرغبة أتباعه، بعد أن ادعى الألوهية، فرأوا أن يترك لهم كتابًا كما فعل جميع الأنبياء قبله، وكما أنزل الله على موسى وعيسى ومحمد كتبًا مقدسة يبين لهم تعاليمه فيها، فيجب عليه أن يترك لأتباعه كتابًا يبين لهم تعاليمه فأسرع بوضع هذا الكتاب وسماه الأقدس .

٣- وترك مجموعة من الألواح والرسائل الصغيرة أطلق عليها أسماء عديدة فهي أحيانًا تعرف بالألواح، وأحيانًا الإشراقات، الكلمات الفردوسية، الهيكل،

العهد، وكان يكتب أحيانًا بالفارسية، وأحيانًا بالعربية الركيكة، وأحيانًا كان يكتب للزرادشتية، وأحيانا للفرس، وأحيانًا للعرب .

ولقد اهتم أتباعه من بعده بنشر تعاليمه وآرائه وساعدهم على ذلك صلتهم بالصهيونية والاستعمار البريطاني بواسطة ابنه (عبد البهاء) من بعده، كما تولى عباس شرح ذلك فيما بعد، ثم كثرت الشروح، والتعليقات من بعده، وحاول أتباعه أن يعملوا على خلق علاقة بين هذه التعاليم البهائية ورسالات الأنبياء، عليهم السلام، وبين دور البهائي، ودور الأنبياء، وأن الرسالات لم تنقطع بموت محمد ﷺ ، بل هي مستمرة، وكل رسول يأتي لينتسخ شريعة من قبله، ويضع شرعًا جديدًا مناسبًا حسب حاجات الناس ورغباتهم .

عبد البهاء :

هو ابن البهاء الأكبر، ووصيه من بعده، وخليفته في أمر الدعوة الجديدة، ولد بطهران ليلة ٢٣ مايو ١٨٤٤، وهي نفس الليلة التي أعلن فيها الباب دعوته، امتاز بالدهاء والذكاء وعرف ذلك عنه منذ سن الصبا، رأدرك في سن مبكرة المترلة التي تنتظر والده في تاريخ البابية، وعرف أن والده هو الموعود الذي ينتظره البابيون، وقد سجل بنفسه ذلك كتابة في يومياته فقال : إني عبد للجمال المبارك (يعني البهاء)، ففي بغداد كنت طفلاً، وهناك علمني الكلمة فاعتقدت فيه، وبمجرد أن أعلن لي الكلمة ترامیت على قدميه المقدستين، وتضرعت له أن يقبل دمی فداء في طريقه ... فأي فخر اعتقد أعظم من أن أرى عنقي مسلسلاً من أجل أبي، أو أن أرى هذه الأقدام مقيدة لأجل محبته، فلو تكون حقيقة أحباءه الصادقين فيلزمنا أن نضحي حياتنا وهيكلنا على عتبته المقدسة[1] .

---

(١) يوميات ميرزا : يناير ١٩١٤ ، عن بهاء الله ، ص ٥٨ .

كان دائم الصحبة والملازمة لوالده ،وكان يتولى إجابة بعض الأسئلة نيابة عنه، فقد سأل بعض الصوفية والده عن الحديث المشهور (كنت كنزا مخفيا فأردت أن أعرفه فخلقت الخلق فبه عرفوني) فأحال البهاء الصوفي إلى ابنه عباس وهو في سن الخامسة عشر، فأجابه برسالة مطولة مشهورة بين أتباع البهائية.

تولى شئون البهاء بعد وفاة والده فكان هو المفسر والشارح لتعاليم البهائية، أقام في عكا بسفح جبل الكرمل، وكان يتردد على مساجدها، ويحاور روادها ،ويلقنهم تعاليم البهائية، وساعده في ذلك ذكاؤه وطول صحبته لأبيه، وكان من فرط ذكائه يحاور الملحد والوثني والزرادشتي والإسماعيلي فيمدح صاحب كل نحلة، ويظهر له أن على دينه فالتف حوله أصحاب النحل، والمذاهب المتضاربة كالبوذي والبرهمي، والزرادشتي والباطني الإسماعيلي ؛ لأنه وجدوا عنده بغية كل طالب، وفي الحقيقة فإن تاريخ البهائية يبدأ مرحلة جديدة على يد عبد البهاء، مرحلة تتسم بالنشاط السياسي والعلاقات الاستعمارية الصهيونية، وحاول العمل على زعزعة أركان العقيدة الإسلامية في نفوس أبنائها ؛ ولذلك فإن مرحلة التأسيس للبهائية قد تمت لى يد الباب والبهاء، أما مرحلة النشاط السياسي والاجتماعي فقد بدأت بظهور عبد البهاء كزعيم روحي للبهائية، فلقد وضع عبد البهاء يده في يد الصهيونية مستعينًا بها على نشر أفكاره المسمومة الداعية إلى محاربة الإسلام المعارضة له في أركانه وأصوله، وفي أحكامه وشرائعه .

عبد البهاء والصهيونية :

بدأ النشاط السياسي للبهائية على يد عبد البهاء، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، فالصهيونية كانت على بينة بالبهائية من أول أمرها، وهي التي خلعت

لقب البهاء على مؤسسها، وهي التي أشارت على الخليفة العثماني بنفي البهاء إلى عكا في فلسطين، وفي عكا توطدت هذه الصلة، وتعمقت دراسة الصهيونية بنفسية البهاء ونفسية ابنه من بعده، وكشفوا عن بواطن الأمور التي يخفونها ويتحلون أمام الناس بأضدادها، تعرفت الصهيونية على طبيعة عبد البهاء، ونفسيته التواقة إلى حب الظهور والشهرة وحديث الناس عنه في الصحف والمجلات، وعرف الاستعمار المداخل الطبيعية للاستيلاء عليه، وحسن توظيفه لتحقيق أهدافه بواسطة دعوته، وربما وجدت الصهيونية أن بينهما قاسمًا مشتركًا، ووحدة في الهدف، فلماذا لا يتعاونان معًا لتحقيق أهداف كل منهما، لم يمض وقت طويل على نفي عبد البهاء إلى عكا حتى بدأ يباشر نشاطه هناك فبدأ يشيد على جبل الكرمل بعض الغرف التي أعدها لاجتماعات البهائية ومجالس لأذكارهم، وبنى وفق الجبل ضريحًا للباب، ونقل رفاته إليه، وقد ورد ذكر جبل الكرمل هذا في الأسفار اليهودية مما جعل له قداسته في تراث اليهود، وجمع له الاستعمار أموالاً طائلة لمساعدته في هذه الأبنية، وبدأت الصهيونية تفتح أمام البهاء أبواب السفر إلى أوربا وأمريكا للإعلان عن نفسه هناك، وأخبرته بأن المناخ الأوربي مستعد لاستقبال دعوته والترحيب به، وبدأ عبد البهاء رحلاته إلى دول أوربا وأمريكا بمساعدة اليهود والاستعمار الأوربي. ومما ينبغي أن يعرفه المسلمون عن علاقة البهائية بالحركة الصهيونية العالمية أن مرحلة التأسيس الأولى للبابية كانت تضم بين صفوفها يهودًا من أقطار شتى، فكان من بين أعضائها ١٥٠ يهوديًّا من طهران، ١٠٠ يهودي من همدان، ٨٥ يهوديًّا من كلباكيان، ٥٠ يهوديًّا من كاشان، ولا أشك أن وجود هذه العدد من اليهود بين صفوف البابية كان له تأثيره البالغ في التوجيه الفكري والعقائدي لها، وقد أشار بعض الباحثين أن دخول هذا العدد في صفوف البابية كان تحت شعار

واحدة الأديان الذي كانت تنادي به الماسونية العالمية، التي كانت تتخذ من هذه المنطقة الجغرافية مركزًا لنشاطها في الشرق، وأن اختيار عكا وجبل الكرمل كمقر لنشاط البهائية، ومقبرة لزعمائها كان أمرًا مقصودا لذاته، بحيث يجعل من هذا المكان كعبة وقبلة للبهائية فيما بعد، وقد تحقق لهم ذلك ، فإن عكا كانت هي المركز الرئيسي العالمي للنشاط البهائي على مستوى العالم، وإليها يفد السائحون من جميع الأقطار الأوربية لزيارة هذا المعلم السياحي البهائي.

وبدأ عبد البهاء رحلاته إلى أوروبا بدعوة من الإنجليز فذهب إلى سويسرا سنة ١٩١١، ونزل في فندق يطل على بحيرة جنوا، وعقد له مؤتمر صحفي تكريمًا لوفادته إلى أوربا، وأعلن في هذا المؤتمر دعوته إلى وحدة الأديان فقال مخاطبًا الحضور (... ألستم أفنانًا وأوراقًا من دوحة واحدة، ألستم مشمولين بلحظات أعين الرحمانية، يا قوم البدار البدار إلى الألفة، .. البهائي يحب جميع العالم كأنهم إخوته، فإذا ضربه أحد فلا يعامله بالمثل، ... لقد نسي الناس تعاليم بني إسرائيل وتعاليم المسيح وغيره من معلمي الأديان فجددها البهاء، .. إن مغناطيس حبكم هو الذي جذبني إلى هذه المملكة، أنا عرفت الأمة الإنجليزية والذين قابلتهم هم أنفس طيبة يشتغلون للسلام والاتحاد، .. ثم أشار في خطبة له أخرى أن لندن ستكون مركزًا لنشر البهائية، وسافر إليها ومكث بها شهرًا .

وفي إحدى محاضراته في أوربا نال من المسلمين وعرب، وقد أعجب ذلك رؤساء الكنائس الحاضرين، وأخذ رئيس كنيسة ستي تمبل يعقب على محاضرة عبد البهاء في الكنيسة فقال : إنها في روحها مطابقة لجميع الخطابات الدينية التي تسمعونها كل أسبوع، ولقد تصافح هذه الليلة الشرق والغرب في هذه الكنيسة .

وحضر هناك مؤتمر الأجناس في لندن، وقال فيهم : إن أفكـــار بهـــاء الله الغربية مختلفة عن أفكار الأنبياء السابقين .. وقد أصبحت المدنية الغربية متقدمة عن المدنية الشرقية، وأصبحت الآراء الغربية أقرب إلى الله من آراء الشرقيين .. ولم تكن المدنية الشرقية يومًا ما أرقى مـــن المدنيـــة الغربيـــة، إلا أيـــام بـــوذا وزرادشت، ثم بدأت الأوهام والخرافات تفسدان على الشرقيين معتقداتهم على حين كان الغربيون يجتهدون في الترقي نحو النور[1].

وكان عبد البهاء يعقد جلسات له ولأتباعه هناك ليجيب عـــن أســـئلتهم، ويشرح لهم علاقة البهائية بالأديان الأخرى، وقد توجه إليه أحـــد الحاضـــرين بسؤاله التالي: أليس من المستحسن أن أظل على الديانة التي كنت عليها طـــول حياتي ..؟ قبل مجيئك إلى أوروبا؟ فأجابه عبد البهاء : ينبغي لك ألا تنفصل عنها فاعلم أن الملكوت السماوي ليس خاصًا بجمعية مخصوصة، فإنـــك يمكنـــك أن تكون بهائيًا مسيحيًا، وبهائيًا ماسونيًا. وبهائيًا يهوديًا، وبهائيًا مسلمًا[2] .

ثم زار مقر البراهمة في لندن، وقرر لهم أنه لا خلاف بين البراهمة والبهائية، ثم سافر من لندن إلى باريس، وخطب في كنائسها، وهناك وصف المســـلمين في الحروب الصليبية بأنهم كقطاع الطرق يقتلون وينهبون ويخربون الديار .

ثم زار أمريكا سنة ١٩١٢، وخطب فيهم في أماكن مختلفة، ففي نـــوفمبر ١٩١٢، خطب في ولاية (أوهايو)، وكان يتغنى بأمجاد أمريكا، ويقـــول : إن أمريكا أمة مجيدة، وهي حاملة لواء السلام في العـــالم، وتســـتنير فيهـــا جميـــع الآفاق....إن أمريكا والحمد لله هي في سلام مع جميع دول الأرض، وتســـتحق

---

(١) خطابات عبد البهاء: ص ٣١ وما بعدها، وانظر: البهائية، د. عبـــد الـــرحمن الوكيـــل : ص ١٦٥-١٧٠ .

(٢) نفس المرجع : ١٧٣ .

أن ترفع علم المحبة والسلام الدولي العام. فإذا ارتفع نداء السلام العام في أمريكا تصبح كل ملل الأرض قائلة : نعم، نقبل وستنضم إليها جميع الملل في اتباع تعاليم بهاء الله، التي نادى بها منذ خمسين عامًا[1]، وأعلن في خطابه لأمريكا أنه هو الله المقدس الذي يجب على أمريكا أن تتبعه، ولقد سجل ذلك صراحة في كتابه (الأقدس) فقال : ... يا ملوك أمريكا ورؤساء الجمهور فيها، اسمعوا ما تغنى به الورقاء على غصن البقاء، أنه لا إله إلا أنا الله الباقي الغفور الكريم، أجبروا الكسير بأيادي العدل، وكسر الصحيح الظالم بسياط أوامر ربكم الآمر الحكيم [2].

ولا نريد أن نستطرد في تفصيلات الوثائق التي دارت بين البهاء وابنه عبد البهاء من جانب وأوروبا والصهيونية العالمية من جانب آخر؛ لأن علاقة هذه الطائفة بالصهيونية العالمية لا تحتاج إلى دليل، أو برهين، فإن التعاليم والعقائد التي دونوها في ألواحهم كافية وحدها لترسيخ هذه العلاقة، فإن معظم آراء البهائية وعقائدها منسوخة من النصرانية المحرفة، ومن مبادئ الماسونية الصهيونية، ومن تعاليم بوذا وماني وزرادشت؛ ولذلك لا يعجب المرء أن يجد عبارات المدح والثناء لكل هؤلاء في تعاليم البهائية .

ولقد عبر الإنجليز عن احتفالهم بعيد البهاء، وأنهم يحفظون له دوره الذي قام به في الحرب العالمية الأولى أنه بعد أن استولت بريطانيا على عكا وحيفا في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩١٨ م، احتفل الإنجليز بذلك الانتصار، وطلب رؤساء الوحدات العسكرية أن يقابلوا عبد البهاء، وتم لهم ذلك، وكان إعجابهم به بالغًا، ولقد أنعم عليه رئيس الوحدة العسكرية البريطانية بنيشان الإمبراطورية

---

(١) انظر : خطب ومقالات بهاء الله وعبد البهاء في : بهاء الله، أ. أسلمنت . ص ٢٣٠-٢٣٦ .

(٢) بهاء الله : أ. أسلمنت، ص ٢٣٥ .

البريطانية في احتفال كبير بحديقة الحـاكم العسـكري لحيفـا في ٢٧ أبريـل سنة ١٩٢٠، ولم يعمر بعدها طويلاً، فقد وافته منيته يـوم ٢٨ نـوفمبر سـنة ١٩٢١ م .

ولقد حاولت الصهيونية أن تتخذ من البهاء قناعًا تتستر خلفـه لتحقيـق مكاسبها في أرض فلسطين، فلقد أوهموا البهاء أن الأسفار القديمة قد بشـرت بظهوره، وأن ملك بني إسرائيل لن يستقر إلا بعد ظهوره، وأن سـلطان بـنى إسرائيل إلى زوال إلى أن يظهر البهاء ؛ لأنه هو الرب الموعود عنـدهم، وأنـه الذي سيظهر على الجبل ويطلع من الشرق، وبشارات الأسفار تقـول لهـم : يظهر الرب القدير. ويطلع من المشرق جماله، وينزل في الأرض المقدسة، ويرتفع نداؤه من الجبل المقدس (جبل الكرمل) فيجتمع حوله شتات بـني إسـرائيل ويجلبهم من بين شعوب العالم ... فيصيرون مبروكين بعدما كـانوا ملعـونين، وغالبين بعد ما كانوا مغلوبين[1].

بدا أن الصهيونية تعتبره أحد المخلصين لإسرائيل؛ ولذلك خلعـت عليـه لقب بهاء الله، ولا شك أن التفاف الصهيونية الصليبية حول البهائية، واحتفالها بتعاليمها في شيكاغو بأمريكا يؤكد هذه الصلة التاريخية كما يوضح دور البهائية في زلزلة أركان الدولة العثمانية، وليس احتفاؤه بانتصار بريطانيا على الخلافـة العثمانية إلا مظهرًا واضحًا لذلك .

عقائد البهائية :

يجتمع البابية والبهائية حول مجموعة من الآراء التي اعتقدوها وجعلوها دينًا جديدًا يدعون إليه بدعوى أن كل نبي جاء لينسخ شريعة ما قبله من الأنبيـاء،

---

(١) الحجج : ص ١١٢ – ١١٣، عن البهائية والوكيل، ص ٣٢٧ .

وهم في سبيل ترسيخ هذه الآراء في نفوس أتباعهم لفقوا آراءهم من بعض الأحكام الدينية من الهيودية والمسحية والإسلام، كما اقتبسوا كثيرًا من آراء الإسماعيلية والزرادشتية والبوذية وأحيانًا من الغنوص المسيحي، وأحيانًا من الفلسفة الأفلاطونية المحدثة، ومزجوا هذه الآراء ببعض العقائد الفارسية القديمة ليخرجوا على أتباعهم بالفكر البهائي المزيج من كل هذه الآراء، وقد ساعدهم على ذلك أن البيئة الثقافية التي ظهروا فيها كانت تربة خصبة لإنبات مثل هذا الهجين الفكري الذي يرفضه الإسلام جملة وتفصيلاً، كما رفضته اليهودية الصحيحة والمسيحية الصحيحة أيضًا .

١ - ادعاء النبوة ثم الألوهية :

لقد تدرج الأمر بزعماء هذه الطائفة (ابتداء من الباب فالبهاء فعبد البهاء) فادعوا النبوة ثم الألوهية، وأحيانًا حلول الله فيهم، يقول البهاء عن نفسه، وعن ابنه في اللوح الخاص بالعهد[1] : إن لسان القدم يبشر أهل العالم بظهور الاسم الأعظم الذي أخذ عهده بين الأمم، إنه نفسي ومطلع ذاتي وتشرق أمري وسماء موهبتي، وفجر إرادي ومصباح هدايتي.. من توجه إليه فقد توجه إلى وجهي، واستضاء من أنوار جمالي، واعترف بوحدانيتي، وأقر بفردانيتي، ومن أنكره إنه محروم من سلسبيل حبي، وكأس رحمتي .. ولا يطلع عليه إلا من علمته ما نزل في الوحي المكنون، وإذا أراد الإنسان أن يعرف الله فعليه أن ينظر إلى عبد البهاء، أو البهاء، فمن مراياهم تنعكس شمس الحقيقة الإلهية[2]، ومن هنا كان البهائيون يقدسون البهاء، ويقدسون ابنه من بعده، فله يدعون وإلى قبره

---

(١) انظر : بهاء الله : ص ٧٤، (ترجمه عن الفارسية : ميرزا ولي الله خان) .

(٢) نفس المرجع : ص ٩٥ .

يحجون؛ لأنه قال لهم في كتابه الأقدس : من توجه إلي فقد توجه إلى المعبود، أما الذين يتوجهون إلى الله بعباداتهم فإنما يتوجهون إلى وهو وظنون[1] .

٢ - القول بوحدة الأديان :

يعتبر البهاء أن الخلاف القائم بين الأنبياء حجر عثرة في سبيل وحدة الأديان، وأنه بعث ليرفع هذا الخلاف؛ لأن ما يأمر به من الأنبياء يحرمه الآخر، فكيف يكون جميعهم على صواب، أو كيف يعبرون في ذلك عن إرادة الله الواحدة التي هي الحقيقة الواحدة؛ ولذلك يرى البهاء أن آراءنا القديمة تتبدل كلما مر الزمان بالفهم الصحيح والإدراك السليم، وقد مثل البهاء لذلك بأن الطفل يتلقى اللبن في أول عمره، حتى إذا ما ترقى وشب عن الطوق لا يصح له اللبن، وإنما يصح له الغذاء، كذلك طفولة البشرية تترقى في عمرها، ولا يصح لها الآن من الشرائع ما كان يصح لها في طفولتها، وإنما ينبغي أن تترقى الشريعة من نبي إلى نبي حتى تناسب رقي البشرية، وأن البهاء هو الذي جاء بشريعة راقية ناسخة لما قبلها من الشرائع . يقول البهاء (ففي تعاليم موسى ترى أكمام الزهر وفي تعاليم عيسى ومحمد نرى الزهر متفتحًا، وفي تعاليم البهاء تقطف الثمرة في الزهرة، ولأننا قصد بين الزهور، فدين الله واحد، وكل منها يتمم الآخر[2] .

عباداتهم :

١- الصلاة المفروضة عندهم تسع ركعات فقط يصلونها صباحًا ومساء، وظهرًا أي وقت طلوع الشمس، ووقت الغروب، ووقت توسطها في السماء؛

---

(١) البهائية د. الجيوشي : ص ٥١

(٢) بهاء الله : ص ١٢٧ .

لأن الصلاة عندهم ترتبط بحركة الشمس، وقد ورد النص بذلك في كتابهم الأقدس، فقد (كتب الله الصلاة تسع ركعات لله منزل الآيات حين الزوال، وفي البكور، وفي الآصال)، ولا نقرأ الفاتحة في الصلاة بل يرددون أدعية ،أوصى بها البهاء في قوله : « أي رب اجعل جمالك غذائي، وحضورك شرابي، وعلى وفق إرادتك اعتمادي، ووفق إرادتك أعمالي، إلهي : اجعل خدماتي مقبولة عندك، أشهد يا إلهي أنك خلقتني لعرفانك وعبادتك .. إلهي يا ربي الرءوف خلقت جميع البشر من أصل واحد، تابعين لدوحة واحدة، فالكل عبيد لحضرتك المقدسة ..إلخ»، والصلاة عندهم ليست مقصورة على صيغة معينة للدعاء، بل إنهم يرددون أدعية أخرى نص عليها البهاء في كتاب الأقدس[1].

٢- تقديس العدد: يقدس البابية العدد ١٩ لأنه يساوي حروف الباب، بينما تقدس البهائية العدد؛ لأنه يساوي حروف البهاء .

٣- كل شيء عندهم طاهر؛ لأنه حلت فيه روح الله .

٤- القبلة عندهم هي قبر البهاء في عكا، وكان بيته هو القبلة أثناء حياته .

٥- الصوم عندهم تسعة عشر يومًا فقط .

٦- الحج إلى قبر البهاء، وليس إلى بيت الله الحرام .

٧- القيامة عندهم نوعان : قيامة صغرى، وهي ظهور الروح الإلهية في شخص الأنبياء السابقين موسى وعيسى ومحمد، وقيامة كبرى، وهي ظهور الروح الإلهية في شخص البهاء .

---

(١) بهاء الله : ص ١٠٢-١٠٣

٨- الملائكة هم أئمة الهدى، أو أئمة الضلال، والملائكة المذكورون في القرآن في الآية الكريمة ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ هم التسعة عشر رجلاً الذين كفروا بالبهائية واتبعوا أخاه (يحيى الملقب بصبح الأزل .

٩- وحدة الوجود : يؤمنون بوحدة الوجود، وأن الأشياء المادية في كل مستوياتها ليست إلا مظهرًا من مظاهر الحقيقة الإلهية : « لأن للحقيقة الكلية والهوية اللاهوتية الظهور في جميع المراتب والمقامات ؛ لأن هذه المراتب ساطعة البرهان، فما حقائق الوجود المادي .إلا حروف وكلمات للحقيقة الإلهية ؛ولأن الحقيقة الإلهية غيب فلا بد أن تتعين في الموجودات المادية .

الوحي: هو انبثاق المعاني من قلب البهاء المظهر للحقيقة الإلهية بواسطة روح القدس في هيئة كلمات يفهمها الناس، بألفاظ بشرية والوحي عندهم لم ينقطع بوفاة الرسول محمد ﷺ بل ما يزال ينزل على البهاء ثم على ابنه من بعده .

ولا أريد أن أستطرد في ذكر معتقداتهم الفاسدة، ولكن كان لا بد من تجلية الموقف الحقيقي لهم أمام الشباب حتى يعلموا أن هذه الطائفة خارجة عن الإسلام، ولا تدين به ؛ لأن عقائدهم الباطلة تحكم عليهم بذلك، وليس هناك من وسائل تثقيفية تنهض بدورها في تبصير الشباب بأمورهم، وبيان خطرهم على الأمة؛ لأنهم يتسمون بأسماء المسلمين، ويقولون – كما سمعناهم – إننا نؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، وكذبوا في ذلك ؛ لأن من آمن بنبوة محمد يفهم يقينًا أنه خاتم الرسل، وأن القرآن آخر وحي نزل من السماء، وأنه ﷺ قال : « لا نبي بعدي..» .

نسخ شريعة الإسلام :

صرح البهاء وابنه بأن البهائية جاءت لتنسخ شريعة الإسلام، وما قبلها من أديان، فإن الإسلام في نظر البهاء يرتكز على القرآن الشريف كمصدر تشريعي لأحكامه، والقرآن في نظر البهاء « لا يزيد عن مجلد واحد كتبه محمد في ثلاث وعشرين سنة، ومحمد كان من قريش، وهم أعظم العرب فصاحة، وبلاغة، حتى عد أكثر العرب فصاحة بيانه، وبلاغة كلامه معجزة .. ولكننا فندنا هذا الرأي في كتبنا، وهكذا يقول عبد البهاء، والإسلام لم ينتشر في رأيه إلا في القرن الثاني والثالث، لكن البهائية انتشرت في أول أمرها، وأن الصحابة الـذي صـحبوا الرسول محمدًا ﷺ كانوا كذبة مرتشون دنسو الذمم[1].

ويصرح البهاء بقوله بنسخ الإسلام قائلاً : « لقد طويت سماوات الأديان، وارتفعت سماوات البيان، وأنزل لكم ما تبقى به أذكاركم وأسماؤكم في كتـاب لا يأخذه المحو ولا تبدله شبهات المغرضين، ضعوا ما عند القوم وخذوا ما أمرتم به من لدن آمر قديم ؛ الله سبحانه وتعالى قد قدر محو كل دين وإبطال كل ملـة عند ظهوره في صورة البهاء »[2].

من هذه النصوص التي قصدت الاعتماد عليها في هذه الدراسة يتبين لنـا بوضوح أن نحلة هذه الطائفة لا تمت لأي دين سماوي بصلة، وإنما هـي نتـاج عقلية مريضة أصابها العفن، فأخذت تمزج في فكرها بين المعقـول واللامعقـول لتظهر على الناس بمظهر النبي أحيانًا، والحقيقة الإلهية أحيانًا، وهذا ليس جديدًا على تاريخ الثقافة الإسلامية، فإن تاريخ البهائية ليس غريبًا عن الفكر البـاطني

---

(١) صحائف الحجج لعبد البهاء : ص ١١٩-١٢٠، نقلا عن البهائية د. الوكيل : ص ٢٤٨ .

(٢) نفس المرجع : ص ٢٥٣ .

والإسماعيلي، وليس غريبًا عن الغنوصية المسيحية، وليس غريبًا عن الـديانات المجوسية السابقة عن الإسلام، فهي خليط من هذه وتلـك، ولكـن ظـروف البيئة التي ظهرت فيها هذه الخرافات ساعدها على رواج فكرها بين أصـحاب العقائد المشوهة، واعتبر الاستعمار ذلك فرصة سانحة ليجعل البهاء وابنه بطـلاً وفارسًا يدعو إلى المحبة والسلام، والإخاء الإنساني رافعًا بذلك شعار الماسـونية العالمية .

الاجتماعات البهائية :

وضع البهاء مجموعة من التعاليم التي يجب أن يتبناها أتباعه حتى يكونـوا مؤمنين به، فتاوى بتعليم المرأة، وعدم القسوة عليها في البيـت، ومنـع تعـدد الزوجات، وجعل الزواج متوقفًا على رضا الطرفين فقط، ويمتنع الطلاق عندهم إلى للضرورة القصوى، ولا يكون إلا بمعرفة المحفل البهائي.

ويتخذ البهائية يوم ٢١ مارس من كل عام عيدًا لها؛ لأنـه عيـد ظهـور البهاء، وتبتدئ السنة البهائية في نفس اليوم ٢١ مارس، ويبدأ التقويم البـهائي بها، وهو أيضًا تاريخ ظهور الباب ٢١ مارس سـنة ١٨٤٤، وأود أن ألفـت النظر بهذه المناسبة إلى العادة التي بدأت أجهزة الإعلام في مصر تتخذها عيـدًا للأسرة المصرية وهو يوم (٢١ مارس) من كل عام، وهو يوم عيد البهائيـة، ولي له علاقة بأي أسرة مصرية، أو مسلمة، حتى تتخذه عيدًا لها، وإنما هو تقليد أعمى للبهائية يتم عن أحد أمرين :

أ- إما الجهل والتقليد الأعمى للبهائية، وهذا يجب أن تتخلى عنه الأسـرة المسلمة، حتى ولو اتخذه الإعلام عيدًا .

ب- أو العلم به ومحاولة نشر الفكر البهائي والعادات البهائية، بين الأسر

المصرية من خلال تقليدهم، وهذا ليس من خلق المسلم، والأولى أن نبحث عن تاريخ أمجادنا نساء ورجالاً لنتخذه عيدًا للأسرة المصرية، بدلاً من هذا العبث الذي يدعو إليه .

وتحاول البهائية نشر دعوتها شرقًا وغربًا وبناء الهياكل الهندسية لتكون قصرًا لممارسة طقوسها، وقد اتخذت أسماء للشهور والأيام، تختلف عما هي عليه في التقويم الميلادي، والهجري، والشهر عندهم تسعة عشر يومًا .

ويتصف رؤساء المحافل عندهم بصفات كثيرة من العلم وسعة الثقافة، والنشاط الاجتماعي، والسياسي، ويتم انتخابه من ٣٨ عضوا يتم انتخابهم من الأعضاء المنتمين لهذا المحفل أو ذاك، ويطلقون على المحافل اسم (مشرق الأذكار)، ولعل أشهر محفل بهائي يوجد الآن في ولاية كاليفورنيا، بأمريكا .

البهائية في مصر :

بدأت البهائية تتسلل إلى مصر خلال فترة الاستعمار البريطاني التي امتدت ثمانين عامًا، حيث كان اليهود يمثلون عنصرًا من عناصر الوجود الاستعماري في مصر، وكان لهم حضور قوي في حركة رأس المال والاقتصاد المصري، ومن خلال العنصر اليهودي وبمساعدة الاستعمار نفذت البهائية إلى مصر في أواخر القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين، وتشير المصادر التي بين أيدينا إلى شخصيات بعينها كانت سببًا أساسيًّا في الدعوة إلى البهائية، والعمل على انتشارها في مصر بمساعدة الأمير محمد علي أحد أبناء الأسرة الحاكمة في مصر. فتذكر الوثائق التاريخية أن أحمد فائق راشد، سكرتير الأمير محمد علي، وملا علي التبريزي، وعبد الكريم الطهراني (نسبة إلى طهران) والميرزا أبو الفضائل الداعية المعتمد للبهائية في مصر، وقد عاش هذا الرجل في مصر فترة طويلة

يعمل سرًّا على نشر البهائية، وأعلن الدعوة إليها جهارًا حين أعطاه الاستعمار الضوء الأخضر، وأعطاه وعدًا بالمعاونة على نشر دعوته، وعدم التعرض له، فبدأ يكتب في الصحف، ويلقي المحاضرات ، وجعل من جريدة المقتطف لسان الدعوة الجديدة، وأخذ يلتقي بالعلماء والمثقفين، المشتغلين بالإعلام، والعمل الجماهيري، كالفنون والمسرح، واستطاع الرجل بذكائه أن يخدع كثيرًا من المثقفين حتى أن الزعيم مصطفى كامل أثنى عليه في صحيفة اللواء، ولكن لم يطل أمر الرجل طويلاً، وسرعان ما اكتشف أمره الشيخ محمد رشيد رضا تلميذ الإمام محمد عبده، وبدأ يكتب في الصحف والمجلات كاشفًا عن حقيقة هذا الرجل، ودعوته الخبيثة، ودوره في تشويه صورة الإسلام، واكتشف العلماء في الأزهر أن الرجل داعية إلى وثنية جديدة، فوقف العلماء له بالمرصاد، وقد بدأت دعوته تتسلل إلى بعض أبناء الأزهر الذين اكتشف أمرهم في عهد الشيخ حسونة النواوي، فأصدر أوامر بطردهم من الأزهر. وفي سنة ١٩٢٥، بعد سقوط الخلافة الإسلامية بعام واحد اكتشف أمر مجموعة أخرى من الأكراد التحقوا بالأزهر، فأمر الشيخ الجيزاوي بطردهم وتحويلهم إلى المحاكمة أمام القضاء المصري، ولكن تدخل الإنجليز وأصدروا أمرًا بالعفو عنهم ولاكتفاء بنفيهم من مصر، غير أن هذا القرار لم يتم تنفيذه، وظلوا بمصر يعلمون على نشر البهائية بتشجيع من الاستعمار الإنجليزي، الذي شجعهم على بناء محفل بهائي يكون مركزًا للدعوة في مصر، وقد تم لهم ذلك فأقاموا مركزًا كبيرًا لهم بالقاهرة عند مستشفى الدمرداش بالعباسية، وظل هذا المركز قائمًا يباشر نشاطه إلى أن قامت ثورة يوليو سنة ١٩٥٢، وحين وقفت الثورة على نشاطهم واكتشفت خطرهم الديني والاجتماعي أصدرت أمرًا بوقف نشاطهم،

والاستيلاء على المركز وتحويله إلى دار لتحفيظ القرآن الكريم تحت إشراف الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم، وقضت الثورة بهذا القرار على نشاطهم رسميًا، وأصبح أي نشاط لهم جرمًا يعاقب عليه القانون المصري[1] .

وقد قام عبد البهاء بزيارة مصر وزار الإسكندرية والتقى بكثير من علمائها، وكان بعضهم يحسن الظن به في أول أمره، ولكن قد تغير موقفهم منه، ومن دعوته بعد أن كشف الشيخ رشيد رضا حقيقة أمره، وبدأ العلماء يحذرون الناس منه، ومن دعوته .

ولم يكن للبهائية أن تجد لها موضع قدم في مصر لولا تشجيع الاستعمار لها؛ لأنه كان يستعين بها في العمل على تمزيق الصف، وإثارة الفتنة، والخلاف بين العلماء، واستطاعوا أن يفيدوا من تشجيع الاستعمار فاستصدروا قرارًا من المحكمة الأهلية بجلسة ١٤/١١/١٩٣٩، بعقد شراء بعض العقارات لصالح المحافل البهائية بمصر، ثم بدأت المشاكل الاجتماعية لهم تطفو على السطح بعد أن تقدم أحدهم لتوثيق عقد زواجه في المحكمة حسب النظام البهائي، وكان يقصد بذلك أن ينتزع اعترافًا رسميًا من المحكمة بالزواج البهائي، لكن امتنعت المحكمة عن توثيق العقد ولم تعترف به، ثم تقدم أحدهم لإحدى المحاكم وهو مصطفى كامل عبد الله بدعوى قضائية طالبًا الاعتراف بهذا الزواج البهائي سنة ١٩٥٢، فحكمت المحكمة برفض الدعوى بجلسة ٢ مايو سنة ١٩٥٢ .

ثم بدأ الأزهر الشريف يتخذ موقفًا رسميًا من هذه النشاط البهائي فأصدر مجمع البحوث الإسلامية العديد من الفتاوى بشأن خروج البهائية عن الإسلام، وأنها فرقة مرتدة، وأن أتباعها ليس لهم من الإسلام نصيب، حتى وإن تسموا

---

(١) البهائية : انوكيل : ص ١٧٧ هـ.٢

بأسماء الأنبياء، كما أصدرت المحاكم المصرية كثيرًا من الأحكام ضد نشاطهم في مصر، وكتب كثير من العلماء الأجلاء يبينون للناس ضلال هذه الفرقة وأسباب خروجهم عن الإسلام، ويحذرون العمة من الانخداع بكلامهم المعسول، وسوف أضع أمام القارئ بيان مجمع البحوث الإسلامية، وبعض الفتاوى والأحكام التي صدرت ضدهم في مصر .

ومن المهم أن ننبه هنا إلى أن الإسلام لا يكره واحدًا منهم على الإسلام أو البقاء على الإسلام، فإن القاعدة الأساسية في ديننا ﴿ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف:٢٩]، وقوله تعالى : ﴿ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية :٢٢] ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، ولكن الغرض من ذلك أن ننبه إلى أن تعاليم وعقائد هذه الفرقة ليست من الإسلام في شيء، وأن اعتقادها أو الإيمان بها، أو الدعوة إليها، يعتبر ارتدادًا عن الإسلام، وخروجًا على العقيدة الإسلامية. وبهذا نحذر الشباب من الانخداع بدعوتهم تحت ستار أنهم مسلمون، ومن حق الدولة، ومن سلطاتها وجهات الأمن بها أن يتخذ مقدرات أمورها .. فموقف الإسلام من عقيدتهم شيء وهو الرفض المطلق، وموقف الدولة منهم شيء آخر يخضع للنظم والقوانين والدستور الذي ينبغي أن يخضع له كل من يستظل بسلطان الدولة.

بيان مجمع البحوث الإسلامية :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه من والاه .. وبعد :

فقد ظهرت البابية أو البهائية في بلاد فارس بدعة نشرها نفر من الخارجين على الإسلام بل وعن سائر الديانات السماوية الأخرى، وقد حمل وزرها رجل يدعى (ميرزا علي محمد الشيرازي) الذي أطلق على نفسه لقب (الباب) أي الواسطة الموصلة إلى الحقيقة الإلهية، وكان هذا اللقب شائعًا عند الشيعة التي

ظهرت بينها هذه البدعة مأخوذة من حديث الترمذي:« أنا مدينة العلم وعلي بابها » .

ومن ثم أطلق على هذه البدعة (البابية) .

ثم كان من خلفاء هذه المبتدع رجل اسمه (حسين نوري) أطلق على نفسه لقب (بهاء الله)، وأطلق على هذه البدعة اسم (البهائية) .

وكان من آخر زعمائها وأشهرهم (عباس أفندي عبد البهاء) المتوفى عام ١٩٢٣م،ثم (شوقي أفندي الرباني) المتوفى عام ١٩٥٧ م، ولقد كان مصير صاحب هذه البدعة الأول القتل في عام ١٨٥٠ م، بمعرفة الحكومة الإيرانية القائمة في ذلك الوقت، استجابة لآراء العلماء والفقهاء الذين أفتوا بردته عن الإسلام .

كما نفت حكومة إيران خليفته ميزرا (حسين علي نوري) إلى تركيا حيث انتقل إلى أرض فلسطين، ومات فيها ودفن في عكا عام ١٨٩٢ م.

والبابية أو البهائية فكر خليط من فلسفات وأديان متعددة، ليس فها جديد تحتاجه الأمة الإسلامية لإصلاح شأنها وجمع شملها، بل وضح أنها تعمل لخدمة الصهيونية والاستعمار فهي سليلة أفكار ونحل ابتليت بها الأمة الإسلامية حربًا على الإسلام وباسم الدين .

ومبادئ هذه البدعة كلها منافية للإسلام، ومن أبرزها :

١- القول بالحلول

بمعنى : أن الله سبحانه وتعالى بعد ظهوره في الأئمة الاثنى عشر، وهم أئمة الشيعة — ظهر في شخص اسمه (أحمد الإحسائي) ثم في شخص الباب ثم في أشخاص من تزعموا هذه الدعوة من بعده .

ولقد ادعى بهاء الله أولاً : أنه الباب، ثم ادعى أنه المهدي، ثم ادعى النبوة الخاصة، ثم ادعى النبوة العامة، ثم الألوهية، وذلك كله باطل ومخالف لنصوص القرآن الكريم.

فالله سبحانه منزه عن المكان، وبالتالي عن الحلول، وادعاء النبوة تكذيب للقرآن الكريم أو جحود له إذ قال الله سبحانه : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾. [الأحزاب : ٤٠]

٢- جحود البهائيين بـ (يوم القيامة) .

ويقولون إن المراد به ظهور المظهر الإلهي، وإن الجنة هي الحياة الروحانية، وإن النار هي الموت الروحاني.

٣- ادعاء بعضهم نزول الوحي عليهم، وأن بعضهم أفضل من سيدنا محمد ﷺ ووضعهم كتبًا تعارض القرآن، والادعاء أن إعجازهم أكثر من إعجاز القرآن .

وتلك قضايا يضللون بها الناس، ويصرفوهم عما جاء به القرآن في شأن كل أفاك أثيم.

٤- ادعاء أن بدعتهم هذه بتطوراها منذ نشأت ناسخة لجميع الأديان .

٥- الإسراف في تأويل القرآن والميل بآياته إلى ما يوافق مذهبهم، حتى شرَّعوا من الأحكام ما يخالف ما أجمع عليه المسلمون، من ذلك أنهم :

١- جعلوا الصلاة تسع ركعات والقبلة حيث يكون بهاء الله، وهم يتجهون إلى عكا بدلاً من المسجد الحرام، مخالفين قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاء فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوِهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾.

إذ صارت قبلة المسلمين هذه أمـرًا معلومًـا مـن الـدين بالضـرورة، لا يحل لمسلم إنكاره أو التحول عن هذه القبلة، وكـذلك عـدد الصـلوات ومواقيتها، وركعاتها، وسجداتها وما يتلى فيه من القرآن، ومـا يبـدي فيهـا من دعاء، كل ذلك مجمع عليه من المسلمين بعد ثبوته ومعلـوم مـن الـدين بالضرورة .

٢- إبطال الحج إلى مكة، وحجهم حيث (بهاء الله) إلى عكا، مخالفين بهذا صريح القرآن الكريم في شأن فريضة الحج .

٣- تقديسهم العدد ١٩، ووضع تفريعات كثيرة عليه، فهـم يقولـون : الصوم تسعة عشر يومًا، بالمخالفة لنصوص القرآن في الصوم، وأنه مفروض بـه صيام شهر رمضان.

ويقولون : إن السنة تسعة عشر شهرًا، والشهر تسعة عشر يومًا، مخـالفين قول الله سبحانه : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّـهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَات وَالأَرْضَ﴾ [التوبة : ٣٦]، وقول الله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة : ١٨٩]، ومخالفين الأمـر المحسوس المحسوب أن الشهر القمري إما تسعة وعشرين يومًا وإما ثلاثين يومًا، وهو أيضًا ما أنبأ به الرسول محمدﷺ .

٤- إلغاؤهم فريضة الجهاد ضد الأعداء الثابتة بصريح القرآن، وصـحيح السنة النبوية، ودعوتهم هذه قضاء على الأمة الإسلامية، بل وعلى كل دولة من دولها، إذ في الاستجابة لها قضاء على روح الكفـاح ودعـوة إلى الاستسـلام للمستعمرين والمغامرين، وهذا ما يؤكد انتماءهم للصهيونية العالمية، بل وأنهـم نبت يعيش في ظلها وبأموالها وجاهها .

مقاومة المجتمع الإسلامي لهذه البدعة :

لقد عارض الشعب الإيراني وعلماؤه وحكومته هذه البدعة حين ظهورها، وناظروا مبتدعها الأول (الباب) وحكم عليه بالردة، وأعدم في تبريز في شهر يوليو سنة ١٨٥٠ .

وحين وفدت البهائية إلى مصر قاومتها كل السلطات على الوجه التالي :

١- أفتى الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر بكفر (الميرزا عباس) زعيم البهائيين، ونشرت هذه الفتوى في جريدة مصر الفتاة في ١٩١٠/١٢/٢٧ بالعدد ٦٩٢ .

٢- صدر حكم محكمة المحلة الكبرى الشرعية في ١٩٤٦/٦/٣٠ م، بطلاق امرأة اعتنق زوجها البهائية باعتباره مرتدًا .

٣- أصدرت لجنة الفتوى بالأزهر في ١٩٤٧/٩/٢٣م، وفي ١٩٤٩/٩/٣* ، فتوتين بردة من يعتنق البهائية .

٤- صدرت فتاوى دار الإفتاء المصرية في ١٩٣٩/٣/١١ م، وفي ١٩٦٥/٣/٢٥ م، وفي ١٩٥٠/٤/١٣ ، بأن البهائيين مرتدون عن الإسلام .

٥- وأخيرًا أجابت أمانة مجمع البحوث الإسلامية على استفسار نيابة أمن الدولة العليا عن حكم البهائية، بأنها نحلة باطلة لخروجها عن الإسلام للإلحاد والكفر، وأن من يعتنقها يكون مرتدا عن الإسلام .

ثانيًا :

عندما سجل البهائيون محفلهم في المحاكم المختلطة برقم(٧٧٦) في ١٩٣٤/١٢/٢٦ م، حاولوا أن يوجدوا لهم صفة الشرعية، لكن الحكومة قاومتهم ،ويتضح هذه مما يلي :

١- قدم المحفل الروحاني المركزي للبهائيين بمصر والسودان طلبًا إلى وزارة الشئون الاجتماعية لتسجيله ،وقد رفض هذا الطلب بناء على ما رأته إدارة قضايا الحكومة في ١٩٤٧/٧/٥، كما رفض طلب صرف إعانة له من هذه الوزارة .

٢- رأت إدارة الرأي بوزارتي الداخلية والبلدية والقروية في ١٩٥١/١٢/٨ أن في قيام المحفل البهائي إخلالاً بالأمن العام، وأنه يمكن لوزارة الداخلية منع إقامة الشعائر الدينية الخاصة بالبهائيين .

وقد تأيد بما رآه مجلس الدولة في ١٩٥٨/٥/٢٦، من عدم الموافقة على طبع إعلان دعاية لمذهب البهائية؛ لأنه ينطوي على تبشير غير مشروع، ودعوة سافرة للخروج على أحكام الدين الإسلامي وغيره من الأديان المعترف بها، ورأى منع ذلك لمخالفته للنظام العام في البلاد الإسلامية .

٣- حكمت محكمة القضاء الإداري بمجلس الدولة في مصر في القضية رقم ١٩٥ بتاريخ ١٩٥٢/٥/٢٦ م، برفض دعوى أقامها بهائي، وجاء في تسبيب هذا الحكم تقريرها أن البهائيين مرتدون عن الإسلام.

٤- صدر القرار الجمهوري رقم ٢٦٣ لسنة ٢٩٦٠، ونص في مادته الأولى على أنه : تحل المحافل البهائية، ومراكزها الموجودة، ويوقف نشاطها، ويحظر على الأفراد والمؤسسات والهيئات القيام بأي نشاط مما كانت تباشره هذه المحافل والمراكز .

ونص في مادته الأخيرة على تجريم كل مخالف وعقابه بالحبس وبالغرامة .

٥- وتنفيذًا لهذا القرار بقانون أصدر وزير الداخلية قراره برقم ١٠٦ لسنة ١٩٦٠ م، بأيلولة أموال وموجودات المحافل البهائية ومراكزها إلى جمعية المحافظة على القرآن الكريم .

٦- حكم بالحبس والغرامة في القضية رقم ٣١٦ لسنة ١٩٦٥ م، على عناصر من أتباع البهائية لقيامهم بممارسة نشاطهم في القاهرة، كما قبض على غيرهم في طنطا في سنة ١٩٧٢، وكذلك في سوهاج .

٧- قبض على مجموعة منهم أخيرًا في فبراير سنة ١٩٨٥ برئاسة أحد الصحفيين، وقد اعترفوا بإيمانهم برسولهم بهاء الله وكتابهم المقدس،وإن قبلتهم جبل الكرمل بحيفا في إسرائيل.

وقد وجهت إليهم تهمة مناهضة المبادئ الأساسية التي يقوم عليها نظام الحكم في البلاد، والترويج لأفكار متطرفة بقصد تحقير وازدراء الأديان السماوية الأخرى .

٨- أوصى المؤتمر العالمي الرابع للسيرة والسنة النبوية بتحريم هذه المذهب وتجريم معتنقيه .. وبعد ..

فإن فيما تقدم تعرية للبهائية وكشفًا لخطوطها الفكرية الموجهة نحو العقيدة الإسلامية وجحودها بل وحربها الدائب منذ أكثر من قرن من الزمان على الإسلام والمسلمين، وأنها تظاهر أعداء الأمة الإسلامية وتناصرهم في القضاء على هذه الأمة وعلى الإسلام .

إن البهائيين (ودعوتهم هذه التي مرت بهذه التطورات ووُجهت بتلك المقاومة في البلاد التي نبتت فيها (إيران) حيث أعدم مبتدعها بوصفه مرتدًا عن الإسلام، ونفي خليفته) .. ما زالوا مثابرين عليها .

وفي مصر صدرت الفتاوى من علماء الإسلام، والأحكام من جهات القضاء المختلفة ثم الفتاوى القانونية المتعاقبة، وكل أولئك قد أثّموا هذه المذهب وحكموا ببطلانه .

ثم صدر القرار الجمهوري الذي حظر نشاط البهائية دون أن يجرمها بعقاب رادع، يتساوى مع خطورتها على عقيدة الناس الإسلامية بل وعلى العقائد السماوية الأخرى بوجه عام: اليهودية والمسيحية .

ومن ثم أطلب الفتنة برأسها مرة أخرى في وقت تزاحمت فيه الأفكار الموفدة الفاسدة التي ساعدت على بروز طوائف من الجماعات كل له فكر شارد، بل وادعى بعض الناس النبوة – وما تزال محاكمة هذه وذاك تسير الهوينا، وما زال المجتمع يترقب ما تسفر عنه هذه المحاكمات .

إن مصر – وفيها الأزهر – الذي انعقدت لها به راية زعامة العالم الإسلامي ينبغي أن يطارد فيها كل فكر منحرف عن الإسلام بكل حزم حتى تظل في مكان القيادة والريادة الإسلامية .

إن هذا المذهب البهائي وأمثاله من نوعيات الأوبئة الفكرية الفتاكة يجب أن تجند الدولة كل إمكاناتها لمكافحته والقضاء عليه .

إذ إن عقيدة الإسلام وصيانتها لا تقل في مرتبتها عن حماية الأجساد من الأوبئة المرضية التي تسارع الدولة لعلاجها بالحزم والحسم، بل العقيدة أولى؛ لأن صحتها نقاء الحياة وعبادة الله .

إن الأمة إذا فقدت عقيدتها انمحت ذاتيتها وغلبها أعداؤها ..

إن مصر يجب أن تذكر دائمًا أنها قامت بالدفاع عن الإسلام، وعن أرض المسلمين منذ دخلت فيه. وأنها سبق أن استردت القدس، وحررت فلسطين باسم الإسلام، ولنذكر أن مصر إنما حاربت في رمضان سنة ١٣٩٣ هـ أكتوبر سنة ١٩٧٣ م، تحت نداء الإسلام «الله أكبر»، وبهذا النداء وتحت لوائه انتصرت، وأن عليها أن تطهر أرضها من هذه الأرجاس، وأن تنفي عنها هذا الخبث ليستقيم بها الأمر، وتظل باسم الإسلام، رائدة ناهضة .

والأزهر يقرر :

أن الإسلام لا يقر أي ديانة أخرى غير ما أمرنا القرآن باحترامه فلا ينبغي، بل يمتنع أن تكون في مصر ديانة غير الإسلام، ثم المسيحية واليهودية؛ لأن كـل ديانة أخرى غير مشروعة ومخالفة للنظام العام .

وإن الأزهر ليهيب بالمسئولين في جمهورية مصر العربية أن يقفوا بحزم ضـد هذه الفئة الباغية على دين الله، وعلى النظام العام لهذا المجتمـع، وأن ينفـذوا حكم الله فيها، ويسنوا القانون الذي يستأصلها ويهيلوا التراب عليها، وعلـى أفكارها، وحماية للمواطنين جميعًا من التردي في هذه الأفكار المنحرفة عن صراط الله المستقيم .

إن هؤلاء الذين أجرموا في حق الإسلام والوطن يجب أن يختفوا من الحياة لا أن يجاهروا بالخروج على الإسلام .

إن الأمر جد يدعو إلى المسارعة انشطة من السلطات التشريعية والقضائية والتنفيذية لإعمال شئونها ولنذكر دائمًا أن الله يزع بالسـلطان مـا لا يـزع بالقرآن.

إن هذه الفتنة لم تحظ بالاهتمام المناسب مع أنها جريمة الجرائم، من الكبائر، فلنبادر بالدفاع عن حقوق الله التي تنتهك وتستباح، وعن ديـن الله الإسـلام الذي يفتن الناس عنه بباطل من القول وزورًا، وتحسبونه هينًا وهـو عنـد الله عظيم .

ألا هل بلغ الأزهـر ....

اللـهم فاشـهد ...

شيخ الأزهر

ورئيس مجمع البحوث الإسلامية

(جاد الحق علي جاد الحق)

بين الأصولية والتطرف

مقدمة تمهيدية

ظهر فى الآونة الأخيرة حركات متطرفة وجماعات شبابية فى العالم الإسلامى تبنت أفكارا وآراء تدعى بها نسباً إلى الأصول الأولى للإسلام، واختلفت هذه الجماعات فى الاجتهادات والاستنباطات واتسعت دائرة الخلاف بينها، بحيث صار لكل منها منهج يختلف فى أصوله ومظاهره عن الآخرين، وكان لكل منها موقف متميز من المجتمع ومشكلاته، والحكم ونظامه، والإنسان ومنهج تربيته، وزاد عدد هذه الجماعات وتبع ذلك بالضرورة زيادة الاجتهادات والآراء، وفى وسط هذا الزخم من الآراء اختلط فى ذهن الشباب الصواب بالخطأ والحق بالباطل والتبس الأمر على معظم أبناء الجيل خاصة أن بعض هذه الجماعات كان له علاقة ما بالمعتدلين فى الساحة الإسلامية واستغلت هذه العلاقة استغلالاً سيئا مما لزم معه أن تجلى للمواقف وتوضح الأمور ليتبين للشباب المعاصر الفرق بين الأصولية الإسلامية والتطرف والغلو الذى حذر منه الإسلام ونفر منه.

ولذلك فإن الأمر هنا يحتاج إلى مداخل تمهيدية نوضح خلالها مفهوم المصطلح ومضمونه ونشأته وكيف استعمل فى عالمنا العر[بى] المعاصر، ومن هنا سوف نتناول بالتحليل المصطلح «أصولية تطرف» والمنطلقات الد[ينية] لكل منهما حتى نتبين مواقع أقدامنا من الصواب والخطأ.

أولاً: الأصولية:

لم يظهر مصطلح الأصولية فى لغتنا العربية كرمز وعَلَم على جماعة معينة أو فرقة ذات مبادئ وأصول ومواقف متميزة إلا فى العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن لأن

هذا المصطلح ليس وليد البيئة العربية الإسلامية ولا هو ابن شرعى لها. وإنما ظهر أولاً في الغرب وفي لغته ثم نقل إلى لغتنا العربية حاملاً معه تجربة الغرب وعمومه وملابساته، ولقد أرخ الفيلسوف الفرنسي رجاء جارودى لهذا المصطلح وتاريخ ظهوره في المعاجم اللغوية في فرنسا وبيّن ان اول ما ظهر هذا المصطلح كان فى معجم لاروس الصغير ١٩٦٦م وكان معناه عامًا غير محدد ولا دقيق، وكان يرمز به إلى «مواقف عامة لمجموعة الكاثوليك الذين دابوا على التمسك بالماضى ورفض كل جديد وعدم القدرة على تكييف عقيدتهم مع ظروف الحياة وتطوراتها الجديدة فى «فرنسا» وبعد ذلك بثلاث سنوات ظهرت الكلمة فى معجم لاروس الجيب سنة ١٩٦٩م وكان يقصد بها الكاثوليك وحدهم خاصة الذين كانوا يتميزون «بالاستعداد الفكرى لرفض التكيف مع ظروف الحياة الحديثة».

وفى سنة ١٩٨٤م ظهر المعجم الكبير فى اثنى عشر جزءً (لاروس) وقد أخذ المصطلح يتحدد معناه بشىء من الدقة والضبط والوضوح. فهو يعنى داخل الحركة الدينية: «موقف الجمود والتصلب والمعارضة والرفض لكل جديد ولكل تطور» وكل الامثلة التى ذكرها «لاروس» فى معجمه توضيحًا لمفهوم مصطلح الاصولية كانت مأخوذة من مواقف الكاثوليك، فى فرنسا والتى جسدت حركة الكفاح فى ظل بيوس العاشر بفرنسا من سنة ١٩٠٣م - ١٩١٤م.

وفى عصر الحداثة شهد المصطلح تطوراً كبيراً خاصة بعد مؤتمر الفاتيكان الثانى، ثم انتقل المصطلح من مجال الدراسات الدينية الكاثوليكية إلى مجال السياسة والاجتماع حيث أريد به «المذهب المحافظ والمتصلب فى موضوع المعتقد السياسى».

وكان جاك دبيور يطلقه على «جماعة الكاثوليك الذين يرفضون كل تطور وجديد ويعلنون تمسكهم بالتراث»[1].

أما جيمس بيير، فيؤكد المعاني السابقة لمصطلح أصولية في الغرب عمومًا وفرنسا خصوصًا، وأضاف: يطلق المصطلح على (.. فرقة من البروتستانت تؤمن بالعصمة الحرفية لكل كلمة وردت في الكتاب المقدس، لأن أفرادها يدعون أن الآباء يتلقون مباشرة عن الله، ويرفضون العقل ويردون أحكامه وأحكام العلماء، ويرفضون التفكير العلمي ويرونه احتقارًا للكنيسة التي تختص بكلمة الرب. ويميلون إلى العنف واستخدام القوة لبسط آرائهم ومعتقداتهم على الجميع[2].

وفي هذه الإشارات التي تناولت تاريخ ظهور المصطلح في الغرب وما يحمله من خصائص وصفات اتصفت بها الكاثوليكية أو البروتستانت، نرى مفيدًا أن نضع أمامنا الحقائق التالية عن هذه الأصولية وتتلخص فيما يأتي:

١ - أول ما ظهر استعمال لمصطلح أصولية كان في الغرب. وكان يقصد به فرقة من الكاثوليك أو البروتستانت.

٢ - من لوازم الأصولية رفض التطور ومحاربة العلم وعدم التكيف مع ظروف الحياة المعاصرة.

٣ - التشبث بالماضي التراثي والمطالبة بالعودة إليه كمرجع أساسي في مواجهة الحداثة المعاصرة.

---

(١) انظر: الأصوليات المعاصرة، رجاء جارودي، ط، دار ... ٢٠٠٠ باريس، ص١٣.

(٢) انظر: الأصولية في العالم العربي، ريتشارد هرير، ترجمة عبد الوارث سعيد. دار الوفاء، ص٣٤.

٤ - عدم التسامح ورفض الآخر.

د - العنف واستعمال القوة في بسط الراى والمعتقد الذى يدينون به.

فهى - إذن - جمود في مواجهة التطور، وجنوح إلى الماضى في مواجهة التكيف مع الواقع ومواجهة العلم والعلماء بآراء الكنيسة وفكر الآباء. وانغلاق على الذات في مواجهة الانفتاح على الغير.

وفي داخل هذه الدائرة لمعانى الأصولية وخصائصها كانت هناك أصوليات أخرى متعددة تعيش بنفس الخصائص في الغرب خارج المجتمعات الإسلامية.

ويقول رجاء جارودى: في الغرب ظهرت أم الأصوليات، وهى الأصولية الصهيونية، وتحت عباءتها ظهرت الأصولية الماركسية والأصولية الرأسمالية، ومن باطن هاتين الأصوليتين ظهرت فكرة السيطرة على العالم الثالث في مطلع هذا القرن. وكانت الشرارة الأولى لنشاط هذه الأصوليات هي إسقاط الخلافة العثمانية بتدبير الأب الروحى للأصولية الصهيونية وهو تيودور هرتزل[(١)].

هذا على الجانب النظرى. أما في مجال الممارسة العملية لهذه الأصوليات فقد ظهرت الممارسات العملية للفكر الأصولى في الغرب قبل ظهور هذا التحديد التاريخى، لأن الكلمة لا تدخل المعاجم اللغوية إلا بعد أن تعيش على ألسنة الناس فترة طويلة ويظهر أثرها في الحياة العامة، ثم تجد لنفسها مكانًا في المعاجم اللغوية.، وربما نجد البداية الأولى للممارسات العملية للفكر الأصولى في موقف اليهود من نصوص التوراة ومحاولة جذب البروتستانت إلى الأصول التوراتية للإيمان بها والاعتقاد

(١) راجع: الأصوليات المعاصرة، مرجع سابق، ص١٣.

فيها. خاصة ما جاء في هذه النصوص من نبوءات تبشر بميلاد إسرائيل، واستعادة أرض الميعاد، ثم عودة المسيح ثانية ليحكم العالم من مسقط رأسه بأرض أورشليم القدس، ولقد نجحت الأصولية الصهيونية في إقناع الأصولية المسيحية بهذه النبوءة الخرافية وأصبح البروتستانت - خاصة في أمريكا - على قناعة تامة بذلك. وارتبط عندهم عودة المسيح الثانية بقيام دولة إسرائيل. وأصبح من الواجب عليهم تبعاً لذلك وتحقيقًا لهذه النبوءة أن يعملوا جاهدين لإقامة دولة إسرائيل ومساندتها. وصار ذلك واجبًا دينيًا مقدسًا عند البروتستانت. وهذا يفسر لنا ميلاد هذا التعاطف الكبير بين الصهيونية والبروتستانت من جانب ووقوف الأصولية المسيحية ضد أي حق من حقوق العرب في استعادة أرضهم وحقهم المشروع من جانب آخر. وكان ميلاد دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م واحتلال إسرائيل للقدس كاملة لأول مرة في التاريخ سنة ١٩٦٧م هي أبرز الإشارات التاريخية لتحقيق هذه النبوءة بعودة المسيح ثانية مما زاد في تمسك المسيحية بنصوص التوراة اعتماداً على ما أشاعته بينهم الأصولية الصهيونية من ضرورة الإيمان بالتوراة كجزء أساسي من العقيدة المسيحية.

وساعد الوضع المتردي للعرب وسيطرة إسرائيل على القدس كاملة لأول مرة منذ أكثر من ألفي عام على الترويج لهذه النبوءة وضرورة الاعتقاد بصحة الأصول التوراتية التي اشتملت على هذه النبوءة والعودة إليها كمرجع عقائدي لإدارة شئون الحياة في الأصولية الصهيونية والمسيحية على حد سواء.

وترتب على ذلك زيادة عدد الأصوليين البروتستانت في الغرب الذين يعملون على مساعدة الصهيونية. وقدر أحد الباحثين عدد الأصوليين البروتستانت في أمريكا

وحدها بـ ٣٠ مليون أصولي من مجموع المسيحين البروتستانت البالغ ٤٠ مليون شخص[١].

وقد أكدت الوثائق التي ظهرت أخيراً هذا التعاطف والتقارب العقائدي بين الأصولية الصهيونية والمسيحية وضرورة التعاون بينهما ضد الإسلام، ففي سنة ١٩٨٥م عقد مؤتمر بال بسويسرى (٢٧-٢٩ أغسطس ١٩٨٥م) بعنوان الصهيونية المسيحية جاء في مقدمة إعلان هذا المؤتمر ما يلي: .. نحن الوفود المجتمعين هنا من ممثلي كنائس مختلفة .. في نفس القاعة الصغيرة التي اجتمع فيها من ٨٨ عاما تيودور هرتزل ومعه وفود المؤتمر الصهيوني الأول الذي وضع اللبنة الأولى لإعادة ميلاد دولة إسرائيل. جئنا معًا للصلاة ولإرضاء الرب، ولكي نعبر عن ديننا الكبير وشغفنا العظيم بإسرائيل الشعب والأرض والعقيدة.. إننا نتوحد اليوم في أوروبا بعد ٤٠ عاما على الإضطهاد لليهود لكي نعبر عن تأييدنا لإسرائيل .. إننا نناشدكم بحب أن تحاولوا تحقيق العديد مما تصبون إليه.. وأن تدركوا أن يد الله وحدها هي التي ساعدتكم على استعادة الأرض وجمعتكم من منفاكم طبقًا للنبوءات التي وردت في النصوص المقدسة.

إن التقارب المسيحي اليهودي زاد من أيام هرتزل ونما وتطور[٢] وأثمر على يد بلفور حيث وعده المشئوم بميلاد إسرائيل.

ولقد ترتب على هذا الموقف إعادة تفسير التوراة ونصوصها وبخاصة ما يتصل فيها بمعتقدات المسيحية البروتستانتية من عودة المسيح وبناء مملكة الألف عام السعيدة وما تلي ذلك من عبرنة أو تهويد للبروتستانت.

(١) انظر: Commontary (March 1981) P.25

(٢) انظر: البعد الديني في السياسة الأمريكية. ص: ٠٠

ولقد قام (وليام بلاكستون ١٨٤١ - ١٩٣٥م) بنشر كتاب (عيسى قادم) ١٨٧٨م وزع منه مليون نسخة وترجم إلى ٤٨ لغة، وكان هذا الكتاب من أخطر أنواع الدعاية للأصولية الصهيونية خاصة فيما يتعلق بعودة المسيح وعودة إسرائيل إلى أرض الميعاد وكتب يقول: «إن النبوءة التوراتية هى أكثر إيفاء من الصهيونية المعاصرة ثم أسس فى شيكاغو سنة ١٨٨٧ منظمة أسماها «البعثة العبرية نيابة عن إسرائيل» والتى تحولت فيما بعد إلى: الزمالة اليسوعية الأمريكية. ومازالت تباشر نشاطها الصهيونى المسيحى إلى اليوم، وهو الذى نادى بفكرة أرض بلا شعب يجب أن تعطى لشعب بلا أرض ،وهو الذى بعث إلى هرتزل نسخة من التوراة ووضع خطوطًا تحت النصوص التى تشير إلى استعادة اليهود لأرض فلسطين والنصوص الاخرى التى تشير إلى عودة المسيح ثانية.

والاتجاهات الأصولية داخل الكنيسة الأمريكية قد تبلورت بعد حرب ١٩٦٧م وقد أثر الموقف الأصولى للكنائس الأمريكية على الرئيس الأمريكى ريجان فتحدث بنصوص التوراة، وعن نبوءة العودة التاريخية لإسرائيل، كما تحدث الرئيس الأمريكى كارتر فى مارس ١٩٧٩م أن إسرائيل وأمريكا يتقاسمان تراثاً واحداً وهو نبوءات التوراة بعودة المسيح وإسرائيل.

ووجد الأصوليون المسيحيون فى هزيمة العرب ١٩٦٧م تحقيقاً لنبوءات التوراة لأن القدس عندهم هى المدينة التى سيحكم عيسى عليه السلام العالم منها[١].

---

(١) راجع: البعد الدينى فى السياسة الأمريكية، دراسة فى الحركة المسيحية الأصولية، د. يوسف الحسن، ط. مركز دراسات الوحدة العربية ببيروت، ١٩٩٠م ص٧٩.

المصطلح في لغتنا العربية :

اتضح لنا مما سبق أن هذا المصطلح ظهر في الغرب وحمل معه تجربة الغرب من كاثوليك وبروتستانت، ولقد نقل لفظ الأصولية إلى عالمنا العربي وهو محمل بهذه المعاني التي أشرنا إليها سابقًا ويتضمن الخصائص والصفات التي عرفت بأنها لوازم تاريخية لهذا المصطلح في الغرب ولا يذكر المصطلح إلا مقرونًا بها ومعروفًا بها ؛ جمود. جنوح إلى الماضي.. مناهضة التطور. عدم التكيف مع الواقع المعاصر. العلاقة التناقضية القائمة بين الدين والتطور، بين التراث والحداثة. العنف؛ كل هذه الصفات صاحبت المصطلح ولازمته تاريخيًا وبالتالي صاحبته حين نُقل إلى اللغة العربية حيث ترجم المصطلح وهو يعني كل هذه الصفات، وأصبح كل من يسمى أصوليًا يرمز به إلى كل هذه المعاني.

وأخذ البعض في كتاباته العربية يطلق هذا المصطلح على كل ملتزم بالأصول الإسلامية والسنن النبوية ؛فصار كل من يرتاد المسجد، ومن يطلق لحيته، ومن ترتدي الحجاب رموزا حية للأصولية في زعم هؤلاء، ولم يحاول أصحاب الشأن أن يوضحوا للشباب الفرق بين معنى المصطلح في موطنه الذي ولد فيه وبينه في لغتنا العربية وفي بيئتنا الإسلامية، وماذا يعني لفظ أصولي وأصولية في لغة العرب وهل يلزم بالضرورة أن يستعمل هذا المصطلح في لغتنا العربية وهو محمل بهذه المعاني وتلك الظلال الكئيبة التي صاحبته في الغرب.؟

إن الأمر يحتاج منا أن نتوقف قليلاً أمام هذا المصطلح الغريب في دلالته ومضمونه حيث صار مستعملاً على ألسنة البعض بما يشبه أسماء الأضداد لأنه أصبح صفة ذم

وعاملاً من عوامل التنفير والترهيب. والمفروض أنه فى لغتنا العربية وفى بيئتنا الإسلامية يتمدح به وأن يكون من عوامل الترغيب والتقريب وليس الترهيب والتنفير. لان كلمة أصولى وأصولية فى لغتنا العربية، ليست محملة بهذه المعانى التى صاحبتها فى ثقافة الغرب وتجربته. هذا من جانب ومن جانب آخر أن الكلمة لم تأخذ بعد طابع المصطلح الرمزى فى ثقافتنا المعاصرة إلى الآن لانها مازالت فى دور التحديد للمعنى المقصود والضبط فى الاستعمال. فهى ليست شائعة فى الاستعمال كمصطلح المعتزلة أو الاشاعرة بحيث إذا أطلق اللفظ انصرف تلقائيًا إلى جماعة معروفين بقواعد مذهبهم وأصولهم وباسمائهم أحياناً.

وهل إذا استعملت هذه الكلمة فى لغتنا العربية يكون المراد بها ضرورة تلك المعانى التى صاحبتها فى تجربة الغرب؟ فتكون مرادفة لكلمة تطرف أو تنطع أو تشدد أوجمود فتصبح بمثابة الرمز والإصطلاح بصرف النظر عن أصلها الاشتقاقى فى اللغة فيكون شانها فى ذلك شان جميع الاصطلاحات الرمزية التى قد تكون علاقتها مبتورة تمامًا بأصلها الاشتقاقى وجذرها اللغوى أم لابد أن تراعى العلاقة الضرورية بين أصل الكلمة واستعمالها فى الحياة وعلى ألسنة المتخاطبين بها.

إن مصطلح أصولى بالمعنى المعجمى يعنى العودة إلى الأصول الأولى للإسلام وهى الكتاب والسنة وما اتفق عليه سلف الأمة سواء تعلق ذلك بأصول الدين ومسائل الاعتقاد أم تعلق بالاحكام الشرعية ومسائل الفروع. إنه يعنى العودة إلى هذه الأصول. فكرًا وثقافة واعتقادًا وسلوكًا. فى التشريعات ونظم الحكم. فى سياسة المال وإدارة المجتمع، فى تربية الفرد وإقامة الدولة. إنها تعنى الإسلام بشموله وعمومه، بأصوله

وفروعه، وهى بهذا المفهوم مطلب شرعى وواجب اعتقادى، فإذا قيل فلان الأصولى أو من رجال الأصول أو من الأصوليين فإنها تعنى المدح بأنه من رجال الأصول سواء كانت أصول الدين أم أصول الفقه. وغالباً ما تستعمل فى حق علماء أصول الفقه المعروفين كما تطلق على كل من تخصص من المعاصرين فى هذا الفن. وليس فى هذه النسبة ما يذم به ولا ما يعاب بل هى كما قلت من صفات المدح التى يوصف بها علماء الأصول الحاذقين فى هذا التخصص لكنها للأسف الشديد نقلت إلى اللغة العربية لتستعمل فى مجال الذم والتنفير نظراً لما تحمله من معان لازمتها فى الغرب برفضها الإسلام جملة وتفصيلاً فى الاستعمال المعاصر ليراد بها أصحاب تلك الآراء المستشددة والمتطرفة. لكن اطلاقها على هؤلاء بهذا المعنى فيه لبس وتدليس على السامع والقارئ معاً بل على المسلمين بصفة عامة وربما أوحت - من خلال استعمالها بهذا المعنى - بالتنفير من التمسك بالأصول فيؤل الأمر بهؤلاء إلى الانسلاخ من الإسلام كلية. وربما كان هذا هدفاً مقصوداً لبعض الفئات التى زجت بهذا المصطلح فى ساحة الحوار الثقافى بين الجماعات الإسلامية وخصومها.

إن الأمر خطير ويحتاج إلى مراجعة فى ضرورة ضبط استعمال المصطلح، وأرى أن تحديده بالآراء المتطرفة مهم جداً لأمرين:

١ - الأول أن من بين الجماعات الإسلامية الموجودة فى ساحة الحوار من هو ملتزم بالكتاب والسنة نصاً وروحاً ويرفض الغلو بكل مظاهره، ويعتبر الغلو والتطرف حرباً معلنة ضد الإسلام، ويعبر عن سلوكه ومواقفه عن الإسلام فى كل جوانبه، وهؤلاء لاينبغى أن يطلق عليهم أصوليون بالمعنى الاصطلاحى المعاصر المنقول إلينا من الغرب،

وإن كانوا فى حقيقة الأمر اصوليين بالمعنى اللغوى والعرفى معًا، وإلا فإن المسلمين كلهم أصوليون بهذا المعنى.

٢ - الأمر الثانى: أن الكلمة تستعمل للذم على السنة للعاصرين كما نقلت إلينا. بينما هى فى لغتنا العربية- تستعمل للمدح والثناء والذى يحمل وزر هذا التدليس هو الإعلام العربى وما قام به من إطلاق لهذا المصطلح على كل من يلتزم بالإسلام فكرًا وثقافة وعقيدة وسلوكًا. دون تمييز بين التطرف الذى هو جوهر المشكلة القائمة، والإلتزام الذى هو عنوان المسلم والأصولى معًا. وعدم الدقة فى الاستعمال لهذا المصطلح أدى إلى خلط كبير فى ذهن الناس.

التطرف معناه ومعياره:

مصطلح التطرف معناه مجاوزة الوسط فى كل شىء فى الاعتقاد والسلوك والآراء. ومجاوزة الوسط قد يكون بالإفراط والغلو فيولد التطرف. وقد يكون بالتفريط والإهمال فيولد الانحلال والتسيب، وكلا الطرفين مذموم شرعًا وعقلاً وهذا التحديد البسيط ذو نسب قوى بالمدلول اللغوى لكلمة التطرف فى أصلها الاشتقاقى وبالجذر اللغوى «ط ر ف»[1] ففى لسان العرب: «طرف كل شىء منتهاه». ومعناه الوقوف فى الطرف. وهو يقابل التوسط والاعتدال: قال الشاعر:

كانت هى الوسط المحمى فاكتنفت   بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

وأصل استعمال الكلمة فى الحسيات كالتطرف بالجلوس أو الوقوف أو السير فى الطرف ثم انتقل إلى المعنويات كالتطرف فى الدين أو الفكر أو السلوك والآراء.

---

(١) راجع: لسان العرب، مادة: طرف ٩٠ / ٢١٧.

وعندما نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة «تطرف» نجدها شاملة لكل من يتجاوز التوسط إما بالإفراط والغلو أو بالتفريط والإهمال كما سبق. والذى نلفت النظر إليه فى هذه القضية ان الذى شغل به المفكرون أنفسهم كما شغل به الإعلاميون أجهزة الحكم فى بلادهم هو نوع واحد فقط من أنواع التطرف، وهو الخاص بمجاوزة الحد إلى الإفراط والغلو. اما الطرف الثانى وهو التفريط والإهمال فلم يشغل به باحث أو سياسى أو جهاز حكومى فى دولة ما. فقد تغافل عنه الجميع؛ ربما لانه لايثير حساسية فى المجتمع او لايشكل خطرًا على أجهزة الدولة المعنية، ولايعبر فى مضمونه عن قلق سياسى أو ثقافى أو حضارى بالنسبة للمراقبين الغربيين لما يجرى فى المنطقة، وهذا الفهم القاصر والمغلوط لمعنى التطرف لايعبر عن حقيقة المشكلة التى نحن بصددها. ذلك أنه إذا كانت فضيلة هذه الامة أنها وسط فى كل شىء، فى العقيدة والشريعة وكان الغلو فى تنفيذ الاوامر تطرفًا بالإيجاب فإن التفريط والإهمال والتسيب والتحلل المطلق يعنى تطرفًا بالسلب يجب ان تهتم به المؤسسات المعنية بالمشكلة بنفس القدر بل أكثر. وعلينا ان نقارن هنا بين موقفين احدهما شاب يطلق لحيته ويرتاد المسجد وفتاة سترت نفسها وغطت رأسها. والثانى شاب سكير وعربيد وفتاة اخرى عارية ترتدى ثيابها فوق الركبة وترتدى الشيبونيز واضعة السيجارة فى فمها مجاهرة بالفطر فى رمضان.. ستجد المجتمع المعاصر يحكم على اصحاب الموقف الاول بالرجعية والتزمت، وربما التطرف والاصولية؛ بينما يحكم على أصحاب الموقف الثانى بالمعاصرة والمودرنيزم ويقول: إنها حرية شخصية؛ مع ان كلمة التطرف فى وضعها اللغوى وفى العرف العام لاتطلق إلا على اصحاب الموقف الثانى. وهذه المغالطة فى استعمال المصطلحات والتفسير بعدم الدقة فى بيان معناها يقودنا إلى طرح السؤال التالى:

ما هو معيار التطرف؟

وبعبارة أخرى ما هو الوسط الذى إذا تجاوزه الفرد كان متطرفًا. هل نأخذ هذا المعيار من عرف الجماعة وسلوكها فتكون الاعراف الاجتماعية هى المعيار، وهى الوسط حتى ولو كانت هذه الأعراف فاسدة تتعارض مع مبادئ الإسلام وأصوله؟ أم يكون المعيار هو القانون الذى تأخذ به الدولة وينهض لحراسته والذب عنه نظام الحكم فى المجتمع؟ ولو كانت هذا القانون يحل حراماً ويحرم حلالاً ..؟ لعل طرح هذه الأسئلة يقربنا من الهدف الذى نريده.. إننا هنا بصدد حكم شرعى دينى (تطرف - غلو) ومعياره الذى يقاس عليه لابد ان يكون شرعيًا ودينيًا كذلك ..، فلا تصلح أعراف الجماعة ولا قوانينها ان تكون معياراً صادقاً للحكم الشرعى إلا بالقدر الذى، يتطابق فيه سلوك الجماعة وقانونها مع الشرع ومصادره، أما إذا حدث انفصام بين مبادئ الشرع وأصوله وعرف، الجماعة وقانونها فعندئذ لاينبغى ان نجعل العرف الاجتماعى أو القانون الوضعى معياراً للحكم الشرعى على سلوك الفرد او الجماعة بأنه « تطرف » سواء كان ذلك فى القول أو الاعتقاد، أو السلوك، .. ومن المعلوم ان الحكم على الشىء فرع عن تصوره كما يقول فلاسفة المنطق. والحكم بمصداقية المعيار هنا مصدره الشرع وليس غيره. فإن أطلاق لفظ التطرف على السنة الإعلاميين في مختلف مؤسساتهم بدون ضابط له، قد أحدث لبسًا وخلطًا هائلاً فى الاستعمال والإطلاق معًا. فقد رأينا من يطلق على ارتداء الحجاب واطلاق اللحية وتحريم الربا والخمر والامتناع عنها بأنها كلها مظاهر تطرف ولم يفرقوا فى ذلك بين ما نصت عليه الشريعة فى حكمها القطعى بأنه سنه أو واجب، وبين ما وصل إليه المرء باجتهاده الشخصى، بل أن بعض الصحف

وعندما نتأمل الدلالة اللغوية لكلمة « تطرف » نجدها شاملة لكل من يتجاوز التوسط إما بالإفراط والغلو أو بالتفريط والإهمال كما سبق. والذى نلفت النظر إليه فى هذه القضية أن الذى شغل به المفكرون أنفسهم كما شغل به الإعلاميون أجهزة الحكم فى بلادهم هو نوع واحد فقط من أنواع التطرف، وهو الخاص بمجاوزة الحد إلى الإفراط والغلو. أما الطرف الثانى وهو التفريط والإهمال فلم يشغل به باحث أو سياسى أو جهاز حكومى فى دولة ما. فقد تغافل عنه الجميع؛ ربما لأنه لايثير حساسية فى المجتمع أو لايشكل خطراً على أجهزة الدولة المعنية، ولايعبر فى مضمونه عن قلق سياسى أو ثقافى أو حضارى بالنسبة للمراقبين الغربيين لما يجرى فى المنطقة، وهذا الفهم القاصر والمغلوط لمعنى التطرف لايعبر عن حقيقة المشكلة التى نحن بصددها. ذلك أنه إذا كانت فضيلة هذه الأمة أنها وسط فى كل شىء، فى العقيدة والشريعة وكان الغلو فى تنفيذ الأوامر تطرفًا بالإيجاب فإن التفريط والإهمال والتسيب والتحلل المطلق يعنى تطرفًا بالسلب يجب أن تهتم به المؤسسات المعنية بالمشكلة بنفس القدر بل أكثر. وعلينا أن نقارن هنا بين موقفين أحدهما شاب يطلق لحيته ويرتاد المسجد وفتاة سترت نفسها وغطت رأسها. والثانى شاب سكير وعربيد وفتاة أخرى عارية ترتدى ثيابها فوق الركبة وترتدى الشيفونيز واضعة السيجارة فى فمها مجاهرة بالفطر فى رمضان.. ستجد المجتمع المعاصر يحكم على أصحاب الموقف الأول بالرجعية والتزمت، وربما التطرف والأصولية؛ بينما يحكم على أصحاب الموقف الثانى بالمعاصرة والمودرنيزم ويقول: إنها حرية شخصية؛ مع أن كلمة التطرف فى وضعها اللغوى وفى العرف العام لاتطلق إلا على أصحاب الموقف الثانى. وهذه المغالطة فى استعمال المصطلحات والتفسير بعدم الدقة فى بيان معناها يقودنا إلى طرح السؤال التالى:

ما هو معيار التطرف؟

وبعبارة أخرى ما هو الوسط الذى إذا تجاوزه الفرد كان متطرفًا. هل نأخذ هذا المعيار من عرف الجماعة وسلوكها فتكون الأعراف الاجتماعية هى المعيار، وهى الوسط حتى ولو كانت هذه الأعراف فاسدة تتعارض مع مبادئ الإسلام وأصوله؟ أم يكون المعيار هو القانون الذى تأخذ به الدولة وينهض لحراسته والذب عنه نظام الحكم فى المجتمع؟ ولو كانت هذا القانون يحل حراماً ويحرم حلالاً ..؟ لعل طرح هذه الأسئلة يقربنا من الهدف الذى نريده.. إننا هنا بصدد حكم شرعى دينى (تطرف - غلو) ومعياره الذى يقاس عليه لابد أن يكون شرعيًا ودينيًا كذلك ..، فلا تصلح أعراف الجماعة ولا قوانينها أن تكون معياراً صادقاً للحكم الشرعى إلا بالقدر الذى يتطابق فيه سلوك الجماعة وقانونها مع الشرع ومصادره، أما إذا حدث انفصام بين مبادئ الشرع وأصوله وعرف الجماعة وقانونها فعندئذ لاينبغى أن نجعل العرف الاجتماعى أو القانون الوضعى معياراً للحكم الشرعى على سلوك الفرد أو الجماعة بأنه «تطرف» سواء كان ذلك فى القول أو الاعتقاد، أو السلوك، .. ومن المعلوم أن الحكم على الشىء فرع عن تصوره كما يقول فلاسفة المنطق. والحكم بمصداقية المعيار هنا مصدره الشرع وليس غيره. فإن اطلاق لفظ التطرف على ألسنة الإعلاميين في مختلف مؤسساتهم بدون ضابط له، قد أحدث لبسًا وخلطًا هائلاً فى الاستعمال والإطلاق معًا. فقد رأينا من يطلق على ارتداء الحجاب واطلاق اللحية وتحريم الربا والخمر والامتناع عنها بأنها كلها مظاهر تطرف ولم يفرقوا فى ذلك بين ما نصت عليه الشريعة فى حكمها القطعى بأنه سنه أو واجب، وبين ما وصل إليه المرء باجتهاده الشخصى، بل أن بعض الصحف

اتهمت المسلمين جميعًا بالتطرف لانهم يؤذنون فى اليوم خمس مرات ويذهبون إلى المساجد خمس مرات فى اليوم(١).. والامر فى ذلك يحتاج إلى تمحيص المصطلحات وتحرى الدقة فى استعمالها واطلاقها معًا، لابد ان نفرق فى إطلاق المصطلح بين من يلتزم فى سلوكه بأوامر الشرع ونواهيه. ومن يترك الاعتدال والتوسط فى ذلك بالتنطع والغلو والتشدد فى السلوك أو الاعتقاد أو الآراء مجافياً لما كانت عليه سنة الرسول وحياته؛ فإن الأول محمود طلبه الشرع، والثانى مذموم نهى عنه الشرع. قال ﷺ: عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى .. وقال بنفس الدرجة من الصحة. هلك المتنطعون(٢). وقال: إياكم والغلو فى الدين فإنما اهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين(٣). وقال: لاتشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم(٤)، وإن هذا الدين يسر فاوغل فيه برفق ومن يشاد الدين احد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا. .إلخ(٥).. والنصوص فى ذلك كثيرة لايتسع لذكرها هذا المقام.

والمصطلح الشرعى المقابل لكلمة التطرف هو الغلو - التنطع - التشدد. وهى كلها كلمات مذمومة ومذموم من تنطبق عليه فى سلوكه أو اعتقاده أو رأيه وذلك لما يلازمها من التنفير والترهيب وهما ضد روح الشرع ومقاصده.

أردت بهذه المقدمة التمهيدية أن نتبين وجه الصواب والخطأ فى استعمال هذه المصطلحات حتى يكون كلامنا محدداً ونصاً فى المطلوب خاصة فى الكشف عن

---

(١) راجع فى هذه المناظرة: التطرف الدينى الرأى الآخر. د. صلاح الصاوى، ط. الآفاق الدولية للإعلام. ص١٦.

(٢) رواه مسلم: ٢٠٥٥، ابو داود ٤ / ٢٨١، ابن حنبل ١ / ٣٨٦.

(٣) رواه ابن حنبل ١ / ٢١٥: ابن ماجه ٢ / ١٠٠٨.

(٤) رواه أبو داود ٤ / ٣٨١.

(٥) البخارى ١ / ٩٤.

المنطلقات الفكرية للأصولية المتطرفة، ونريد أن نكون أكثر تحديداً فى السير نحو الهدف المطلوب. فنحن لن نتكلم هنا عن الأصولية العامة، وإنما سنحدد أنفسنا فى الحديث عن الأصولية المتطرفة فقط.

ذلك أن الأصولية العامة ظاهرة صحية عرفها تاريخنا الإسلامى فى عصور مختلفة من مراحل ضعفه وخوره، فكانت تنقله من حالة الضعف إلى حالة القوة، ومن حالة الخور والسكون إلى الحركة والانطلاقة، وتجدد للإسلام شبابه وتشد من عزيمته.. فعندما انغمس بنو أمية فى طيب العيش وملذات الحياة وصرفهم ذلك عن أمر الرعية ظهرت أصولية أبو حنيفة، ومالك، وسيرة عمر بن عبد العزيز، وعندما طغت مظاهر الحضارة اليونانية على معالم الإسلام وأصوله فى العهد العباسى ظهرت أصولية ابن حنبل ومدرسته، وعندما انهارت الدولة العباسية وسيطر الترك والمغول بثقافاتهم المختلفة ظهرت أصولية ابن تيمية والنووى وابن القيم، وفى العصر الحديث لما ضعفت الخلافة العثمانية وسيطر الغرب بحضارته المادية على الشرق الإسلامى ظهرت أصولية ابن عبد الوهاب فى السعودية سنة ١٧٩٢، والسنوسية ١٨٠٠ فى ليبيا، والمهدية فى السودان ١٨٧٩، ومحمد عبده (ت ١٩٠٥) ورشد رضا (ت ١٩٣٥م) ... فالسلفية المعاصرة ليست بدعاً فى التاريخ الإسلامى، إنما هى امتداد طبيعى لأصوليات تاريخية سابقة

وقارئ التاريخ الإسلامى قد يجد علاقة قوية بين فترات الضعف التى تصاب بها الأمة وهذه الصحوات المتكررة على امتداد التاريخ.. ولكن السؤال المطروح الآن ماهو معيار الحكم على هذه الصحوات ؟هل تعد تطرفًا وشذوذًا أم تعد صحوات ضرورية لتستعيد الأمة مسيرتها وتتبوأ مكانتها الحضارية.

إن معيار الحكم على هذه الصحوات هو الذى يحدد مفهوم المصطلح ومصداقيته،

ففى عصر النبوة بدت دعوة الإسلام نفسها شذوذاً وتطرفًا فى أعين قريش وكفار مكة، وفسرها البعض بأنها همس من الجنون أو مطلب سياسى يقصد به زعامة القبيلة أو مطلب اقتصادى يقصد به جمع المال والثروة. وراود كفار مكة محمداً ﷺ بهذه المطالب. وهذه الدعاوى كلها كان سببها أن دعوة الإسلام جاءت مخالفة لأعراف قريش وخلاف عاداتها، وكان هذا المسلك نفسه هو ما سبق أن واجه الأنبياء والمصلحين فى كل عصر، لأن كلاً منهم قد بدا فى أعين مجتمعه غريبًا فيما يدعو إليه. غريبًا فى سلوكه. غريبًا فى أقواله وآرائه. فكانوا جميعًا فى أعين المجتمع تجسيداً لكل معانى التطرف. والسؤال المطروح هنا من الذى يستحق أن يسمى متطرفًا فى مثل هذه الظروف. هل من خالف العرف والعادة والرأى والمذهب يعد متطرفًا؟ أم الذى خالف أوامر الشرع ونواهيه وناقض فى سلوكه أقوال الرسول وأفعاله هو الجدير بأن يسمى متطرفًا؟

إن تحرير معنى المصطلح مهم جداً حتى لاتضيع حقائق الأمور وسط هذا الضجيج الإعلامى الذي صاحب هذه القضية الخطيرة فى عصرنا. خاصة إذا كان من طبائع العصر التسرع فى إصدار الأحكام والمجاملة بالاتهامات بدلاً من التحرى والدقة وضبط المسائل بشكل علمى.

بين الأصولية والتطرف:

يتضح لنا مما سبق من توضيح معنى الأصولية الإسلامية والتطرف أن بينهما نوعًا من التضاد فلا يجتمعان أبداً. ذلك أن الأصولية بمفهومها الإسلامى الصحيح ترفض التطرف وتنطلق فى ذلك من أحاديث الرسول ﷺ وأفعاله، ومن النهى الصريح فى القرآن الكريم عن الغلو، وتحذير الرسول منه فى أكثر من حديث إياكم والغلو فى

الدين. هلك المتنطعون. يسروا ولا تعسروا، بشروا ولا تنفروا، كما ان التطرف فى مضمونه خروج عن الوسطية التى هى خاصية الاصولية الإسلامية، ولذلك فإن الجمع بينهما من وجهة نظرنا امر غير مستقيم ان المرء إما ان يكون اصوليًا ملتزمًا وإما ان يكون متطرفًا، ولا واسطة بينهما، والخلط والخطأ إنما يقعان فى تصور الناس وفى احكامهم غير المنصفة ولا الدقيقة.

والاصولية بمفهومها الصحيح ليست جديدة على تاريخ امتنا - كما سبق أن اشرنا إلى ذلك - ولكن الجديد فى عصرنا هو ذلك الربط غير الشرعى بين مفهوم الاصولية والتطرف فى نظر البعض. والربط بينها وبين المفهوم الغربى وتجربته عند البعض الآخر. فهى عند بعض الناس تعنى التطرف والغلو ولم يفرقوا فى ذلك بين معنى الإلتزام والتطرف وعند البعض الآخر تعنى رفض التطور وعدم التكيف مع الواقع، والتقوقع فى الماضى والتعبد بالتراث.. إلخ هذه المعانى التى صاحبت المصطلح فى تجربة الغربية. وفى حقيقة الامر فإن الاصولية الإسلامية بريئة من هذا وذاك. بريئة من التطرف والغلو كما هى بريئة من اتهامها برفض التطور ومحاربة التنوير وعدم التكيف مع الواقع والتعبد بالتراث.. إلخ والقضية فى نظرنا ترجع إلى تصميم بعض الجهات المستفيدة من إثارة هذا الغبار الفكرى فى المنطقة لتظل ملتهبة مشغولة بنفسها عن الاشتغال بعظائم الامور مما هو اهم بذلك من قضايا البلاد. إن بعض اجهزة الإعلام وبعض المؤسسات الثقافية فى العالم حريصة على ان تظل نار هذه الفتنة مشتعلة فى بلادنا، كلما خبت نارها اوقدوها ثانية لانهم لايجدون ذواتهم إلا فى مثل هذه الظروف المضطربة التى تموج فيها الفتن كقطع الليل المظلم فتجرف امامها كل شىء. كما أن

الجهات الخارجية التى غذت وتغذى اشتعال هذه الفتنة متربصة بالمنطقة وهى تمديدها. بفتيل الاشتعال من آن إلى آخر. إما فى شكل تقرير مكذوب أو معلومات مزورة فتلتقطها بعض أجهزة الإعلام وتروج لها حتى صار الناس فى حيرة من أمرهم أين الحقيقة؟. أين الإسلام وأين التطرف؟، أين الإلتزام وأين التحلل؟ وما معنى أن نسمى كل مسلم ملتزم متطرفاً؟ وما معنى أن يكون المسلم الملتزم داعية إلى التأخر رافضاً للتقدم ومحارباً لكل جديد عقبة فى طريق التنوير، كما يروج لذلك بعض المتربصين بالإسلام والمسلمين.

إن محاولة البعض إقحام الأصولية الإسلامية فى دائرة التطرف أو إلباسها ثوب المفهوم الغربى للكلمة على جانب كبير من الخطورة. بل هو ثمرة يسعى كثير من المتربصين بنا إلى تطفها وهو – لاقدر الله – إن نجح فى ذلك فقد قدم خدمة تاريخية للأصولية الصهيونية التى تسعى جاهدة إلى تفريغ الإسلام من مضمونه بل تسعى جاهدة إلى اغتيال الحس الإسلامى فى قلب المؤمن إن استطاعت. ولذلك فإن واجب الأجيال أن تتعرف على حقائق الأمور بمحاولة فض الاشتباك بين هذه المصطلحات ليعرفوا الفرق بين ما هو إسلامى صحيح وما هو غلو وتطرف، وما هو أصولى بالمفهوم الغربى الوافد، وبين ما هو أصيل وما هو وليد الأزمة الراهنة من مفاهيم ودلالات ومصطلحات بمعان غريبة لاتتحملها الألفاظ العربية عند إطلاقها.

لابد هنا من ضرورة التفرقة بين الفكر الأصولى والفكر المتطرف. ومنطلقات الأول ومنطلقات الثانى.

١ – فإذا كانت الأصولية تعنى الإسلام الحى المتحرك، فإن التطرف يعنى التقول

على الإسلام والتطاول عليه والقول عن الله وعلى الله ما ليس لهم به علم

٢ - ومنطلق الأصولية هو النص قرآنًا وسنة، أما منطلق التطرف هو أقوال البشر من رؤساء الفرق وآراء علمائها.

٣ - الأصولية تعنى الإلتزام بالوسطية وبالحكم الشرعى أمرًا ونهيًا، والتطرف يعنى الخروج عن حد الوسطية والاعتدال إلى الغلو والتنطع والتشدد.

٤ - الأصولية محمودة مطلوبة شرعًا، التطرف مذموم ومنهى عنه شرعًا.

٥ - الأصولية تمثل سماحة الإسلام فى الدعوة إليه، أما التطرف فمن سماته العنف والغلظة.

٦ - الأصولية التزام بما ألزم الشرع أمرًا ونهيًا، والتطرف إلزام بما لايلزم شرعًا.

٧ - الأصولية تعنى حياة الإسلام واقعًا. التطرف آفة الدين وعلة التدين معًا، لأنه يجعل ما ليس شرعيًا أمرًا شرعيًا، ولذلك فإن المنطلقات الفكرية للتطرف تختلف فى أصولها ومبادئها عن منطلقات الأصولية. وهذا أمر على درجة كبيرة من الأهمية أن يتبين الناس الفروق بين مصطلح التطرف والأصولية من جانب والفرق بين منطلقات كل منهما من جانب آخر.

خطر التطرف على الدين:

ولقد حذر أئمة السلف من الغلو فى الدين والتنطع فى الأحكام وبينوا ان الغلو هو افة التدين وحذروا من الآفات الثلاثة فى كل عصر:

١ - تحريف الغالين.

٢ - وانتحال المبطلين.

٣ - وتأويل الجاهلين.

فتحريف الغالين كان سبباً في هلاك الأمم السابقة ممن غلوا في العقيدة أو العبادة على حد سواء. فحرموا على أنفسهم ما أحل الله وحرموا طيبات أحلت لهم، وخرجوا بغلوهم عن الوسطية والاعتدال التي هي سمة الإسلام، قال تعالى في وصف أهل الكتاب: ﴿يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم غير الحق ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل﴾(المائدة: ٧٧)، وقال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[١] وقال: «هلك المتنطعون». قالها ثلاثاً[٢].

وتواصى الأئمة فيما بينهم بالتحذير من هذه الآفات الثلاثة لأنها تشوه حقيقة الإسلام وتلزم المسلمين بما لايلزم شرعاً، وهذه الآفات الثلاثة ترجع في معظمها إلى أصول الفرق، التي حذر منها العلماء كالخوارج والمرجئة والرافضة، وليس لها فيما صح من نصوص الكتاب والسنة نصيب.

وللإمام ابن القيم إشارة مهمة إلى كيفية الأخذ والفهم عن الرسول ﷺ حيث يقول: ينبغي أن يفهم عن الرسول مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لايحتمل، ولا يقصر به عن مراده وما قصده من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال عن الصواب ما لايعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأ في الأصول

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وفي الجامع الصغير، ص٢٦٨. راجع مدخل لدراسة السنة. مرجع سابق.

(٢) رواه مسلم في كتاب العلم، رقم ٢٦٧٠ مدخل لدراسة السنة.

والفروع، فيا محنة الدين وأهله... حتى صار الدين بأيدى كثير من الناس هو موجب هذه الأفهام، والذى فهمه الصحابة ومن تبعهم عن الله ورسوله فمهجور لايلتفت إليه ولا يرفع هؤلاء به رأساً[1].

ولعل من أبرز سمات التطرف التى تميزه عن الأصولية الإسلامية ويتفرد بها.

١ - إنهم فى معظم الأحيان يجهلون العلم بمراتب الأحكام فيضعون المندوب فى مقام الواجب أو السنة ويخلطون بين المكروه والحرام ويترتب على ذلك قلب الأحكام الفقهية فيهتمون بالمندوب والسنة على حساب الفرائض والواجبات ويتشددون فى المكروه على حساب المحرمات.

ومثال ذلك تركهم الصلاة مع من لايجهر بالتامين خلف الإمام وقولهم بهجر من يفعل ذلك ومقاطعته.

٢ - الاستبداد بالرأى والتعصب والتحامل مع المخالف وقد يكون ذلك فى معظم الأحيان عن جهل وقلة علم. وإعجاب كل منهم برأيه واحتقار الآخرين. وهذه كلها مواقف تتنافر مع روح الإسلام ونصوصه.

٣ - إنهم يقرنون بين الخطأ والإثم، دون تفرقة بين من يخطىء عن جهل ومن يخطيء عن قصد، ولا بين المجتهد المخطىء والمتعمد فى خطأه.

٤ - عدم الاعتراف بالآخر وسوء الظن بالآخرين واتهامهم فى عقيدتهم والطعن فى آرائهم.

---

(١) الفتاوى ٢٥ / ١٠٠ - ١٠٤ مسألة حكم المرتد.

٥ - الطعن فى العلماء والتشريش عليهم واتهامهم فى كثير من الاحيان.

٦ - الميل والجنوح إلى التشدد والتعسير على الناس وإلزامهم بما لا يلزم.

٧ - التكفير للحاكم والمجتمع بدون ضوابط، ومن المعلوم ان الحكم بالتكفير له ضوابطه واصوله التى من تخطاها فى الحكم على الآخرين، فقد باء بإثمها، والعجيب ان اصحاب هذه المقالة يحاولون الانتساب بها إلى الاصولية الإسلامية وهي منها براء، ولعل الإمام ابن تيمية كان من أكثر الائمة بعداً عن الحكم بتكفير المسلم أو المجتمع أو الحاكم رغم ما يشاع عنه زوراً وبهتاناً فى القول بذلك. ولم يعرف لهذه المقالة من اصول إلا فى فكر الخوارج الذين يقولون بكفر مرتكب الكبيرة وسوف أضع بين يدى القارئ نصوص ابن تيمية التى توضح موقفه مما ينسب إليه من القول بتكفير المسلم أو الحاكم أو العالم المخطئ:

(١) - يقول ابن تيمية: (إن علماء المسلمين المتكلمين فى الدنيا باجتهادهم لايجوز تكفير احدهم بمجرد خطا اخطاه فى كلامه. فإن تسليط الجهال على تكفير علماء المسلمين من أعظم المنكرات، وإنما اصل هذا من الخوارج والروافض الذين يكفرون أئمة المسلمين لما يعتقدون انهم اخطأوا فيه من الدين).

(٢) - وقد اتفق أهل السنة والجماعة على ان علماء المسلمين لايجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض. بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ أخطاه يكفر، ولايفسق، بل ولا يأثم، ومن المعلوم أن المنع من تكفيرهم علماء المسلمين، بل دفع التكفير عن علماء المسلمين وإن أخطأوا هو من أحق الأغراض الشرعية .. فكيف يكفر علماء المسلمين فى مسائل الظنون؟ أم كيف

يكفر علماء المسلمين أو جمهور سلف الائمة واعيان العلماء بغير حجة أصلاً[1]

(٣) – ويقول ابن تيمية. من اصول أهل السنة والجماعة انهم يصلون الجمع والأعياد والجماعات لايدعون الجمعة والجماعة كما فعل أهل البدع من الرافضة وغيرهم، فإن كان الإمام مستور الحال.. صلى خلفه الجمعة والجماعة باتفاق الائمة.

(٤) – ولايجوز تكفير المسلم بذنب فعله، ولا بخطأ اخطأ فيه كالمسائل التى تنازع فيها أهل القبلة .. والأصل ان دماء المسلمين وأموالهم واعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله.. قال ﷺ : من صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فهمو المسلم له ذمة الله ورسوله[2].

(٥) – السلف قاتل بعضهم بعضاً فى الجمل وصفين.. ومع القتال كان يوالى بعضهم بعضاً مولاة الدين لا يعادون معاداة الكفار.. ويأخذ بعضهم العلم عن بعض ويتوارثون ويتناكحون، ويتعاملون بمعاملة المسلمين بعضهم مع بعض مع ما كان بينهم من قتال[3].

(٦) – إنى من أعظم الناس نهياً عن ان ينسب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التى من خالفها كان كافراً تارة، وفاسقاً لخرى، وعاصياً اخرى فإنى اقرر ان الله قد غفر لهذه الامة خطاها: وذلك يعم الخطأ فى المسائل الخبرية القولية والمسائل العلمية، ومازال السلف يتنازعون فى كثير من المسائل ولم يشهد أحد على أحد لايكفر ولا بفسق ولا معصية.

وليس لاحد أن يكفر احداً من المسلمين وإن إخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة،

---

(١) الفتاوى ٣٥/ . ١٠٠ – ١٠٤ مسالة حكم المرتد.

(٢) راجع الفتاوى ٣/٢٨٧ – ٢٨٥.

(٣) نفسه ٣/٢٨٥.

وتبين له الحجة.

ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لايزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة[1].

(٧) - ولاريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعة الرسول بحسب إمكانه هو أحق بأن يتقبل الله حسناته، ويثيبه على اجتهاده، ولا يؤاخذه بما أخطأ، تحقيقاً لقوله: ﴿ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ وأهل السنة جزموا بالنجاة لكل من اتقى الله تعالى، كما نطق به القرآن.

هذه نصوص ابن تيمية يوضح بها موقف سلف الأمة في أخطر القضايا المثارة الآن، والتي كانت سبباً في تمزيق شمل الأمة. قضية تكفير المسلم، قضية تكفير الأمة والمجتمع، قضية الخروج على الإمام أو الحاكم. يتضح خلالها أن ذلك ليس مذهباً للسلف، ولا رأياً لابن تيمية. وأن من نسب ذلك إليه كاذب في دعواه إن كان ناقلاً، ومخطيء في فهمه إن كان مجتهداً، ويستوى عندي في ذلك الخطأ من يدعي النسب إلى فكر ابن تيمية ومن يفترى ذلك عليه عامداً وقاصداً، فكلهم مخطيئ في دعواه، وأن الحق في ذلك ينبغي أن يعرف من نصوص ابن تيمية إن كان الرأى ينسب إليه، ويعرف من نصوص السلف إن كان الرأى ينسب لهم، بدلاً من التقول عليهم أو القول بغير علم. لأن ذلك خطر عظيم. خاصة فيما يتعلق بعقائد المسلمين وفي أيام الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل والصواب بالخطأ، والله أعلم.

---

(١) الفتاوى ١٢/٤٦٦.

فلسفة التنوير

بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي



المصطلح وظروف نشأته:

من المفيد أن نوضح لأنفسنا ولغيرنا مفهوم مصطلح التنوير، كيف ظهر تاريخيًا، وما الظروف الثقافية التي أفرزته، وكيف انتقل إلى العالم العربي وهو محمل بغبار معركة وقعت على غير أرضنا، وتحت ظروف ثقافية نشأت وعاشت في غير حضارتنا، وفي ظل دين غير ديننا؟

إن توضيح هذا الأمر على جانب كبير من الأهمية حتى يتعرف الشباب على حقيقة هذا المصطلح وظروف نشأته التاريخية. وليكون على بينة من الأمر، فإن كثيرا من المصطلحات التي تتردد على الألسنة وتسود بها الصحف والمجلات مصطلحات مدخولة، ومضللة يشوبها زيف وتمويه أكثر مما فيها من الحق المقصود أو البيان للحق، ولأن الساحة الثقافية أشبه بالميدان الخالي إلا من أصحاب هذه النزعات المدخولة، وهذه المصطلحات المضللة، فكثر استعمال هذه المصطلحات في الكتابات والندوات الثقافية دون استيضاح من أحد لمعناها ومدلولها، ودون أن يتساءل عن ظروف نشأتها وملابساتها الثقافية والدينية. مما يخشى معه أن يستقر في أذهان الشباب، هذه المصطلحات المدخولة أو أن ما يطرح عليهم من قضايا فكرية وثقافية تحت مسميات التنوير أو التقدمية أو.... أو.... هي الحق الذي لا مرية فيه أو أن مستقبل الوطن مرهون بالأخذ بها، كما يدندن حول ذلك بعض أصحاب الأقلام.... لا... إن القضية تحتاج إلى توضيح وطرح تساؤلات عديدة، بل تحتاج إلى مراجعة للنفس من أصحاب هذه النزعات، خاصة أن وقتًا كافيًا قد مضى على ظهور هذه النزعة، وقد تبين خلاله الخيط الأبيض من الخيط الأسود لكل ذي بصر وبصيرة، وأصبح واضحًا ماذا يريد الغرب منا، وماذا يريد حماة شعار التنوير بالمفهوم التغريبي.

إن مصطلح التنوير – كغيره من المصطلحات العلمانية–وفد إلينا

من الغرب ضمن مجموع المصطلحات التي غزت ثقافتنا المعاصرة خلال حركة الاتصال الحديثة بين مصر والعالم الغربي -خاصة فرنسا- خلال القرنين الأخيرين.

ولقد نشأ هذا المصطلح في ظروف تاريخية عاشتها دول أوربا شرقا وغربًا، كانت ثقافة الشعوب في أوروبا خلالها مقصورًا على ما تمليه عليهم سدنة الكنيسة ورجالها، وكانت السيطرة الثقافية واللاهوتية وتفسير الظواهر الطبيعية خاصة لرجال اللاهوت الكنسي، لا يجوز مخالفتها، باعتبار ذلك وحيًا لا تجوز مخالفته.

وحتى لا يساء فهمنا نود أن نشير هنا أنه لا ضير من استعمال المصطلحات الوافدة من هنا أو هناك، ولكن ذلك يستلزم توضيح معناها للشباب، ماذا يراد بها عند أهلها، وفي البيئة التي تولد فيها هذا المصطلح أو ذاك، ما مفهوم المصطلح عندهم، وماذا نريد به عندنا، وهل الظروف والملابسات التي أفرزت هذا المصطلح موجودة في بيئتنا أم لا؟ وهذا أمر لابد منه عند استعمال المصطلحات الوافدة؛ لأن معظمها فيه لبس وتمويه لابد من بيانه للشباب حتى إذا قبلوا المصطلح أو رفضوه يكون موقفهم مؤسسًا على اليقين في القبول أو الرفض. وكثيرًا ما تثور المشكلات بين المدارس الفكرية، بسبب عدم توضيح المفاهيم ولا بيان لمدلول المصطلحات، فقد يكون المصطلح مشتملا على حق وباطل، بسبب ظروف نشأته فيكون قبوله على الإطلاق قبول لما فيه من الباطل، ويكون رفضه على الإطلاق رفضا لما فيه من الحق، وفي كلتا الحالتين افتراء على المنهج العلمي السليم.

ومن المعروف تاريخيًا أن موقف الكنيسة وآراء رجالها كانت في العصور الوسطى تمثل الجهل والتخلف والخرافة، فلقد طلبوا من المسيحيين الإيمان

والإذعان لآرائهم في تفسير الظواهر الكونية مدعين أن الدين (الكنيسة) يختص بتفسير هذه الظواهر، وأن الخروج عليها كفر وإلحاد، ويكون جزاؤه الطرد من رحمة الكنيسة.

ومن المفيد أن ننبه هنا إلى أن موقف الأديان من الكون وظواهره هو الإيمان بما هو موجود على ما هو عليه في الوجود، دون أن يفرض الدين تفسيرًا معينًا لهذه الظاهرة أو تلك، تاركًا ذلك كله لمنطق العلم وما يصل إليه العقل من اكتشافات وعلاقات بين الأسباب والظواهر، دافعًا للعقل أن يعمل ويكتشف القوانين ويدرك العلاقات، جاعلا الكون كله خاضعًا لسلطان العقل بحثًا واكتشافًا وتسخيرًا وتوظيفًا، ومن هنا كان الكون كله آية دالة على خالقه، وكان أكثر العلماء اكتشافًا لقوانين الكون وأكثرهم إدراكًا للعلاقات أشدهم خشية لخالق هذا الكون، هذه نقطة تحتاج إلى بسط وتفصيل أحسب أن لها مجالا آخر، ولكن أردنا أن ننبه هنا إلى السقوط الذي وقعت فيه الكنيسة بفرض آرائها على العلماء ودعوى احتكارها تفسير الظواهر الكونية، ووجوب الخضوع لتفسيراتها وقبول آرائها في تفسيرهم للظواهر الطبيعية، وترتب على ذلك ميلاد حركة التنوير العلمي الرافضة للكنيسة ولآرائها، معلنة أن ما يدعيه رجال الكنيسة باطل لا حق فيه، جهل لا يسنده علم، خرافة لا يقبلها العقل.

ولما كان رجال الكنيسة هم الممثلون للدين. فقد فتش العلماء فيما يطالبهم رجال الكنيسة الإيمان به والاعتقاد بصحته، فوجدوا أن هذه الآراء، وتلك التفسيرات، خرافة لا يقرها العقل، وجهل لا يقبلها العلم، وظلام وتخلف لا يثبت أمام النقد ومنطق العلم، فأعلنوا ثورتهم على هذه الآراء وتلك الخرافات التي ارتبطت في أذهانهم بالكنيسة ورجالها.

وبدأت قصة هذا الصراع المرير بين الكنيسة والعلماء منذ أيام "كوبرنيق" (١٤٧٣- ١٥٤٣م) الذي أعلن عن آرائه في الطبيعيات والفلك ومركز الكون، وكلها على نقيض ما يدعيه رجال الكنيسة، وانسحب ذلك الموقف بكامله على الدين بمفهومه العام.

لم يتنبه العلماء إلى ضرورة التفرقة بين رأي رجال الكنيسة والدين الصحيح في مفهومه العام، وصار الدين عندهم – كما عرفوه من رجال الكنيسة– تجسيدًا للتخلف والجهل والخرافة، وأصبح رجل الدين رمزًا لكل هذه المعاني. فهو داعية للجهل والخرافة، وأصبح رجال الدين رمزًا لكل هذه المعاني، فهو داعية للجهل، محارب للعقل، رافض للعلم، ولا شك عندي –أن هذه الكوكبة من العلماء التي عاشت هذه المعركة كان ينقصها العلم بالدين الصحيح، الذي نزل على عيسى عليه السلام، فضلا عن جهلهم التام بالإسلام واحتضانه للعلم، وتكريمه للعلماء، ولا شك عندي أيضا أن رجال الكنيسة الذين أعلنوا هذه الحرب التاريخية على العلم والعلماء قد أساءوا إلى المسيحية، وأفسدوا بموقفهم هذا حركة التاريخ المعاصر. فلا انتصروا لدينهم، ولا حققوا النصر على عدوهم، بل كانوا بموقفهم هذا الباب الطبيعي الذي فتح على مصراعيه لدعاة الإلحاد والثورة على الكنيسة والدين معًا، حيث صوروا الموقف على أنه صراع بين الدين والعلم، وليس بين رجال الكنيسة والعلماء، بين العقل والخرافة، بين النور والظلام، بين التقدم والتخلف، وكان مفهوم التنوير يعني التحصن بمنطق العلم والعقلانية، ضد هذا الدين ورجاله، الذين يحملون الجهل والخرافة فكان لابد أن ينتصر العلم في مواجهة الجهل، وينتصر العقل في مواجهة الخرافة، والتقدم في مواجهة التخلف.

وكان مصطلح التنوير هو المعبر عن نتيجة هذه المعركة التي حسمها

التاريخ والواقع لصالح العلم والعقل والنور ضد الكنيسة وآرائها، ولقد صورت المعركة كلها على أنها صراع بين الدين، بمعناها العام، وكل معاني التنوير التي هي العقلانية والتقدم، وانتقلت المعركة بكل ملابساتها وظروفها إلى عالمنا العربي بدون أن يفطن دعاة التنوير في عالمنا العربي إلى أن الإسلام ليس هو الكنيسة، ولا عالمنا العربي هو أوروبا، ولا الحضارة الإسلامية هي الحضارة الأوربية في عصورها المظلمة، فليس رجل الدين عندنا رافضًا للعلم، ولا محاربًا للعقل.

وأخذ دعاة التنوير عندنا يصورون المعركة في بلادنا على أنها صراع بين الإسلام والعلم، بين الدين والعقل، بين ضرورة التخلص من الماضي، والنهوض بالمستقبل، وكان النموذج الغربي في نظرهم هو المثل والقدوة التي ينبغي أن نحذوا حذوها، ونسير في ركابها حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلناه معهم.

وأصبحت الثنائية التناقضية بين الدين والعلم عنوانا لحركة التنوير،وملازمًا لها في بلادنا، فكما رفض العلماء في أوروبا الكنيسة، وأعلنوا الحرب عليها، دليلاً على التنوير أخذ دعاة التنوير عندنا بنفس المبدأ، فأعلنوا الحرب على الإسلام ورجاله، لكي يعلنوا عن أنفسهم أنهم تنويريون ودعاة التنوير، وكما أعلن العلماء في الغرب أن الدين -الكنيسة- خرافة، ورجاله رموز للجهل، أخذ دعاة التنوير في بلادنا يلصقون نفس التهم بالإسلام ورجاله، ولو أنصف هؤلاء الدعاة إلى التنوير لبدأوا دعوتهم من حيث بدأ الإسلام. الذي يجعل العلم دينًا وفريضة، ويجعل حاكم العقل في عالم الشهادة ميزانًا لا يخطئ، ولو أنصفوا لفرقوا بين الإسلام والكنيسة، وبين الشرق والغرب.

الدين والحضارة:

لقد أصبح من المقرر عقلا – الذي لا يحتاج إلى دليل – أن تاريخ الحضارة الإنسانية هو تاريخ للتدين البشري ومعتقداته، حيث يعكس كل شعب تدينه ومعتقداته في آثاره وتراثه الحضاري، شعرًا كان أو نثرًا، أسطورة كانت أو صورة مجسمة في شكل تمثال أو نحت أو حكمة شعبية، هذه قضية لا تخلو منها أمة من الأمم، ولا ينفرد بها تاريخ شعب دون شعب آخر، ومن هنا فإنه يمكن لنا أن نقول: إن تاريخ الحضارات الإنسانية هو تاريخ تدينها أيا كان هذا التدين ونوع هذا الاعتقاد، رقيًا أو انحطاطا، مقبولاً في منطق العقل أو مرذولاً، نزل به كتاب وبشر به وحي أو وضعه البشر، وأوصى به الحكماء، فلم نجد في تاريخ البشرية من لدن آدم إلى الآن، أمة بلا دين ولا شعبًا بلا عقيدة، وما كانت الأساطير الشعبية في كثير من البلاد إلا تجسيدًا لغذائها الروحي، الذي يسد حاجتها إلى الاعتقاد، ويعبر عن حاجتها إلى التدين.

قد توجد أمم كثيرة بلا فنون، وبلا مسارح، وبلا علوم، وبلا آثار، لكن يستحيل أن نجد على ظهر الأرض أمة بلا اعتقاد وبلا مظهر يعبر عن تدينها، فقد نجد أمة لا تملك الأهرامات، ولا أبا الهول، كما تملكه مصر، وقد نجد أمة ليس لديها سور عظيم مثل سور الصين. وقد نجد أمة بلا فلسفة ولا مسارح ولا فنون، كما هو الشأن في اليونان، ولكنك تجد أمم أهل الأرض كلها تشترك في حاجتها إلى الاعتقاد والتدين، ثم تختلف وسائلها في التعبير عن هذه الاعتقادات، وعن تلك الحاجة الغريزية الفطرية، فنجد أممًا جسدت عقائدها في التوجه إلى المحسوسات التي لمست فيها نوعًا من النفع والقدرة الخارقة، وأممًا أخرى نزل عليها الوحي بتصويب الاعتقاد وتوجيهها نحو المنهج السماوي السليم، فالأمم التي اندثرت معالم الوحي فيها تحاول أن تبحث لنفسها عن دين تعتقده، وقد تجد

في بعض النماذج البشرية المثل والقدوة ومؤهلات الاعتقاد، فتضفي عليها صفة الألوهية أو صفة الأنبياء أو الحكماء، ولعل في نشأة الأديان الوضعية ما يكفي للدلالة على حاجة الإنسان الغريزية إلى التدين والاعتقاد، وليس بوذا ولا زرادشت ولا حكماء الصين القدمى إلا نماذج بشرية أضفى عليها أهلها صفة القداسة إشباعًا لحاجتهم إلى الاعتقاد. هذه قضية نكاد نجزم أنه لم تخل منها أمة من الأمم.

ولهذا لا نجد أمة بلا معبد أو محراب، أيا كان اسم هذا المعبد كنيسة أو مسجدًا أو بيعًا أو ... أو ... هذه حقيقة أكدها تاريخ الحضارات الإنسانية، ذلك أنه في داخل كل منا تعطش ذاتي لا يرويه إلا الاعتقاد، صحيحًا كان هذا الاعتقاد أو فاسدًا، وفي طبع كل منا نهم يشبه نهم الجائع إلى الطعام.

ولعل هذه الحاجة العريزية إلى التدين هي التي جعلت الفيلسوف الفرنسي "رينان" يقول: إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ويتلاشى من أمام أعيننا، وأن ىبطل حرية العقل... لكن يستحيل أن ينمحي التدين من نفوسنا، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذي يريد أصحابه أن يحصروا حاجة الإنسان في المطالب المادية الدنيئة للحياة الأرضية، ولقد جاء في معجم لاروس للقرن العشرين: إن الغريزة الدينية حاجة مشتركة بين جميع الأجناس البشرية حتى أكثرها هجمية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي وبما فوق الطبيعة هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية.

ونحن نؤكد من جانبنا أنه من أجل إشباع هذه الحاجة الفطرية وتصحيح مسارها التاريخي كان تتابع الأنبياء والمرسلين إلى أمم أهل الأرض قال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ﴾.

إن تقرير هذه الحقيقة وتأكيدها يوضح أمرًا مهمًا في الطبيعة الإنسانية قرره الواقع، وأكده التاريخ هو أن التدين أصيل في النفس الإنسانية، والإلحاد أمر عارض عليه، الاعتقاد هو الأصل، والإلحاد شذوذ، الإيمان هو منطق الفطرة، وهو صمام الأمان للنفس البشرية، والإلحاد طارئ لمرض عارض، وهذا ما يشير إليه الحديث الشريف: "خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين" والحديث الصحيح : "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تلد البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدع" أي نقص والرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – لم يأتوا بدعوتهم إلى البشرية ليؤسسوا أصل الاعتقاد في النفس البشرية لا ولم يكن هذا غرضهم، ولا هدفا لهم، وإنما جاءوا ليصححوا الاعتقاد المنحرف، ويصوبوا مساره المعوج وتعليم شعائره، والإعلان عن طقوسه وشعبه، ولذلك فإن القرآن الكريم سمى وظيفة الأنبياء تذكيرًا وتذكرة، وسماهم مذكرين. قال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾، وقال تعالى:﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلا الْبَلاغُ ﴾ ، وسمى القرآن نفسه تذكرة، فقال سبحانه عن القرآن ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ ﴾، نعم إن الرسل لم يؤسسوا الاعتقاد في نفوس البشر، وإنما صححوه، كشفوا عنه الصدأ، وأزالوا عنه ظلمات الشك ورين الشبهات، وحديث القرآن عن هذه القضية جاء كله في صيغة التذكير والتذكر لينبهنا إلى أن هذه قضية مركوزة في نفوس بني آدم، قد يعلوها الصدأ أحيانا، قد يخبو نورها أحيانا، لكنها لا تموت ولا تتلاشى أبدًا.

التدين ليس مرحلة تاريخية:

بعد تأكيدنا على أهمية الحقيقتين السابقتين نرى ضرورة مراجعة تفسير علماء الاجتماع لظاهرة التدين، أو كما يطلقون عليها – خطأ– ظاهرة الدين، ويعتبرون الدين مرحلة تاريخية انتهت بدخول العالم عصر العلم.

إن مؤسسي علم الاجتماع الحديث يقسمون تاريخ الإنسان إلى مراحل ثلاثة أولها مرحلة الدين – ثم مرحلة العقل والتفلسف – ثم مرحلة العلم وكل مرحلة تمثل في نظرة علماء الاجتماع مقدمة للمرحلة التي تليها ولابد أن تختفي هذه المرحلة السابقة بظهور المرحلة التالية لها، وهذه المراحل الثلاث تسير في تاريخ الإنسان في خط تطوري، ومرحلة الدين أو التفسير الديني هو أول هذه المراحل، إنه يمثل مرحلة الطفولة العقلية في عمر البشرية. مرحلة التفسير الغيبي للظواهر، ولابد أن تختفى هذه المرحلة بمجرد أن يحل التفسير العقلي الفلسفي للظواهر، كما أن التفسير التجريبي، وهذه المراحل الثلاث تمثل موقف الإنسان من ظواهر الطبيعة وتفسيرها، فالتفسير الديني أولا، ثم التفسير العقلي الفلسفي، ثم التفسير العلمي، وقد أصبح هذا التقسيم الثلاثي للتاريخ أشبه بالمسلمة التي قبلها العلماء على أنها حقائق لا تحتاج إلى نقاش. وقد انتقل هذا التفسير بدوره إلى عالمنا العربي، وبات منهجا من مناهج الدرس الأكاديمي في أقسام الاجتماع بالجامعات العربية، ويقلن للطلاب على أنه حقائق تاريخية تكاد تصل في وثاقتها حد القضايا الرياضية، وأخذ صفة العموم والشمول لكل تاريخ الإنسان في أي مكان وحضارة، وهذه القضية من وجهة نظرنا تحتاج إلى مراجعة دقيقة، وإعادة نظر في أسبابها وفلسفتها ونتائجها.

أولا: إن هذه المستويات الثلاثة أو التقسيم الثلاثي لعلاقة الإنسان بالكون وتفسيره نرى أنها لا تسير بالضرورة في حياة الإنسان المؤهل لهذا الموقف –في هذا الخط التناقضي– كما صوره علماء الاجتماع– بل الأولى من ذلك أن يقال إنها تسير في خط متجاور أو متواز. فهي متزامنة في حياة الفرد، وبالتالي فهي متزامنة في حياة الأمم. والشخصية السوية المتكاملة ونجدها مؤمنة بالمستويات الثلاثة، وأنها متزامنة متجاورة متعاونة في وقت واحد وليست متعاقبة أو

متناقضة ينفي لاحقها سابقها، كما صورها علماء الاجتماع، بل إن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ذاتيته بشكل تكاملي إلا إذا جمع في موقفه من الظواهر بين هذه المستويات الثلاثة للتفسير التي تمثل في شخصية الإنسان الجانب الحسي المادي، والجانب العقلي العلمي، والجانب الروحي، فإنه يدرك الظواهر المحسوسة بالأدوات الإدراكية الحسية، ثم يفسر العلاقات السببية بين نوع الظاهرة وأسبابها بعمله العقلي، ثم يتساءل عن القوة الكامنة في الأسباب التي أنتجت هذه الظاهرة، من الذي أودع هذه الأسباب قوة التأثير في المسببات، ومن الذي حفظ لها قوة التأثير حتى أخذت شكل الثبات والإطراد، بحيث كلما تكررت الأسباب تكرر معها وقوع الظاهرة وتفسير العلاقة بين السبب والمسبب؟ هو عمل العقل ومنطق العلم.

ولكن البحث عما وراء السبب الظاهري وعمن أودعه قوة التأثير في المسببات هو غذاء الروح لتصل من خلاله إلى إثبات مسبب الأسباب، الذي غاب عنه أصحاب الفكر المادي، والذين توقفوا عند مجرد ملاحظة الظاهرة وارتباطها بأسبابها دون أن يتساءلوا: عما وراء ذلك هم الذين تحدث عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾، ومن هنا نرى أن تفسير الظواهر يمر بمستويات فكرية ذهنية متزامنة في الشخص الواحد، وليست مراحل زمنية متعاقبة، ولا متنافية، ولا متناقضة، وبالتالي فإن ملاحظاتها على مستوى الشخص الواحد، ثم على مستوى الأمم والشعوب يجعل تفسير "دور كايم" لهذه المراحل تفسيرًا خاطئًا. فهي ليست مراحل تاريخية تنتهي إحداها ليحل مكانها الأخرى، ولكنها مستويات متكاملة ومتزامنة في حياة الأفراد والشعوب على السواء.

ولو جاز تفسير هذه المستويات على أنها مراحل متعاقبة لكان أولى بها أن

يكون ترتيبها على نحو معاكس تمامًا لما قال به علماء الاجتماع، ذلك أن ارتباط الإنسان بالواقع الحسي وما تمليه عليه الوقائع التجريبية في حياته اليومية أسبق إلى ذهنه وعقله من مرحلة التسؤال حولها وحول أسبابها، فضلاً عن تفسيرها تفسيرًا دينيًا، وهذا واقع مشاهد في حياة كل منا نلاحظة صباحًا ومساءً، حتى لدى الأطفال والحيوان نجد كثرة المشاهدات المحسوسة لدى الطفل تكون عنده مخزونًا معرفيا وتجعله يتوقع حدوث الظاهرة عند مشاهدته لما يسبقها من أسباب دون أن يجد نفسه في حاجة إلى تفسيرها أو التساؤل عن العلاقة بينها وبين أسبابها، وهذه مرحلة الطفولة النفسية التي تجد لذتها مرتبطة بالمحسوسات لشدة حاجتها العاجلة إليها وارتباطها بحياتها اليومية، أما مرحلة التعليل والتفسير، فإنها مرحلة تالية؛ لأن النفس الإنسانية في هذا الشأن تكون في موقف القابل للفعل المتأثر بما يشاهد، وليس في موقف الفاعل أو المتسائل، فيكون التفسير التعليلي للظاهرة مرتبطًا بعملية التجريد العقلي والتعميم في التصورات الذهنية ومنطق العلم التجريبي، عادة ما يربط الظاهرة المحسوسة بأسبابها الحسية.

ثم في مرحلة تالية يتجاوز العقل هذا المستوى الحسي إلى البحث عن العلل البعيدة ليتساءل عما وراء السبب المحسوس من قوى يتساءل عمن جعل السبب مؤثرًا في مسببه؛ لأن الأثر في حقيقته وجود وفعل، يحتاج في أداء وظيفته وعمله إلى وجود أكمل منه وفاعل أكبر منه، وهذا هو التفسير الديني للظواهر، فهو وإن كان تفسيرًا أوليًا في الترتيب، ولكنه تفسير يأتي في المرحلة الثانية، أو المستوى الثالث، هذا لو قلنا جدلا بتفسير المستويات التاريخية الثلاثة، حسب رأي علماء الاجتماع، فالتفسير الطبيعي للمعارف الإنسانية إنما تبدأ بالمحسوسات وارتباط الظواهر الحسية بعضها ببعض، ثم يكون البحث عن العلل

البعيدة للظواهر بعد تفسيرها تفسيرًا حسيًا، وبعد اكتشاف العلاقات المتبادلة بين الظواهر وأسبابها، وهذه هي مراحل العمل العقلي ومستويات التفسير العلمي، ثم تأتي النظرة التحليلية التي تعود بالنفس الإنسانية إلى البحث عن العلل البعيدة من خلال طرح الأسئلة الكثيرة، وذلك حين يتسع أفقها، فتتجاوز الكون المحسوس وظواهره إلى البحث عما وراءه من علل وأسباب تحكم مسيرته وتنظم حركته في شكل غائي لا فوضي، في شكل ونسق يحقق معنى العناية الإلهية بالكون والعناية بأجزائه، ويحقق غاية الخالق من وجوده وإرادته فيه وبدون هذا التفسير لا يكون إلا التفسير العبثي الفوضوي، وهذا ما يؤدي إليه التفسير التاريخي للدين، كما يسمونه في علم الاجتماع.

ونحن لا نجد صعوبة في ربط هذا التفسير الثلاثي للتاريخ بقصة الصراع بين العلم والكنيسة التي سبقت الإشارة إليها؛ لأن هذا التفسير يرجع تاريخه إلى "أوجست كونت"، وهو أحد الذين عاشوا هذه المأساة، وأحد الذين رفضوا تفسيرات الكنيسة الخرافية للظواهر العلمية، فهو تفسير محلي مرتبط بظروفه الثقافية والحضارية، ومن الخطأ تعميمه على الحضارات الإنسانية الأخرى – خاصة الحضارة الإسلامية التي من أهم خصائصها رفض الخرافة ومحاربة الجهل، والتي تجعل من منطق العلم فريضة وشريعة. فلم يكن يومًا ما منطق العقل فيها متناقضًا مع منطق الوحي، ولا منطق التدين رافضًا لمنطق العلم، فما يجوز تصوره في بيئته لا يعني بالضرورة إمكان وقوعه في بيئة أخرى، ومن هنا نرفض تعميم هذا التصور لخصوصيته بالبيئة الأوروبية التي أفرزته، والحضارة الغربية التي أظلته، ولشدة تناقضه مع التصور الواقعي، كما عليه واقع الإنساني العرفي... فإن تاريخ الإنسان ليس حلقات متناقضة، كما صوره هؤلاء، وإنما هو حلقات متكاملة، كما يوضحه الفكر الإسلامي، فمن المعلوم أن الإنسان خلق خلوا من

العلم والتصور، ثم زوده الله بأدوات تحصيل هذا العلم الذي يبدأ بالمحسوسات، ثم ينتهي بالمجردات، قال تعالى: ﴿ وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[النحل: ٧٨]، وتجد أن هذه الأدوات تذكر في القرآن الكريم بهذا الترتيب، الذي يبدأ بالأدوات الحسية من السمع والبصر، ثم ينتهي بالفؤاد في صيغة الإفراد أحيانا، وفي صيغة الجمع أحيانا أخرى، وهذه الأدوات هي التي تعمل وتباشر نشاطها في حياة الإنسان بهذا الترتيب، الذي يبدأ بالمحسوسات، وينتهي بالمعقولات والمجردات، وهي كلها تعمل عملها في خطوط متكاملة ومتعاونة، وليس في خطوط متتالية متعارضة، كما يذهب الوضعيون.

ومهما يكن من أمر، فإن التفسير التاريخي للدين إذا جاز الأخذ به في حضارة الغرب، فذلك مرتبط بالظروف التاريخية التي تولد فيها هذا التفسير، فلا يجوز نقله أو الأخذ به في الدراسات الاجتماعية عندنا، ولكن للأسف الشديد فإن هذا التفسير قد انتقل إلينا بهمومه وعيوبه ونقائضه ضمن ما نقل إلينا من الغرب دون أن يحاول أحد من المتخصصين التعرض له بنقد أو تمحيص، وأصبح في عرفهم من المسلمات التي لا تقبل النقاش، وأخذوا يتعبدون به في مؤلفاتهم ويلقنونه الطلاب في دور العلم ومعاهده.

يتبين لنا مما سبق أن مصطلح التنوير نشأ في هذا الجو الثقافي، الذي أفرزته طبيعة الصراع بين الكنيسة والعلم، فجاء مجملاً بالمعاني الآتية:

أ- الرفض المطلق للكنيسة والعلم، وأن آراء رجالها تجسيد للجهل والخرافة ومناقضة للعلم، وقد حل لفظ الدين محل الكنيسة، وانتقل المعنى الذي يتعلق بالكنيسة من رفضها العلم ومحاربتها للعلماء لينسحب على الدين بالمعنى العام، وهذا أخطر ما في هذه المشكلة.

ب- ترتب على ذلك أن رفع العلماء في أوروبا لواء الحرب ضد كل ما هو كنسي (ديني) ليفسحوا بذلك الطريق أمام العلم والعقلانية ليحل التنوير محل الظلام، والعقل محل الخرافة.

ج- ترتب على ذلك أن ظهرت نزعة الإلحاد التي سادت العصر بأكمله، وكان من أهم آثارها التوجه العام نحو إشباع الغرائز الدنيا في الإنسان على حساب كل ما هو ديني، وبات معنى القيم والأخلاق كلمات باهتة لا معنى لها ولا مضمون، وارتبط ذلك أيضا بمعنى التنوير، حيث أصبح كل من يتمسك بالمفاهيم الدينية والقيم الأخلاقية رمزًا للرجعية والتخلف، وصار المنحل أخلاقيًا ودينيًا هو رجل العصر الحديث "المودرنيزم".

ومما يؤسف له أن كل هذه الملابسات التي ارتبطت بمصطلح التنوير انتقلت معه إلى الشرق العربي، وأصبحت من لوازم التنوير، فلم يعد التنوير مقصورًا على رفض الجهل ومحاربة الخرافة،، وإنما امتد معناه ليشمل تغيير العادات والسلوك والقيم والمفاهيم الثابتة في بلادنا، والمرتكزة على الأبعاد الدينية والخلقية. وتطور ذلك عند البعض إلى رفض الإيمان بالغيب، فجعلوه من الخرافات التي نادوا بضرورة التخلص منها.

حقيقة التنوير:

بعد هذه المقدمات التي نرى أهميتها في توضيح معنى التنوير، الذي نعيش حركته الآن نود أن نطرح سؤالا مهمًا حول حقيقة التنوير الذي تسعى إليه الشعوب، وما هي أسسه وركائزه؟ إن كلمة التنوير في لغتنا العربية مأخوذة من الفعل "نوَّر" الرباعي ومصدره "تنويرًا"، بمعنى أنار لغيره الطريق. وقد يكون ذلك التنوير حسيًا، وقد يكون معنويًا، فإنارة الطريق الطريق الحسي له وسائله المعروفة، كالمصباح والكهرباء مثلا، وليس هذا المعنى هو المقصود عند استعمال

هذا المصطلح بين المثقفين،وإنما المقصود هو الجانب المعنوي بمعنى تنوير العقول، والقضاء على ما فيها من ظلام، وكذلك تنوير الحياة الثقافية للمجتمع والقضاء على ما فيها من جهل، وكذلك تنوير الحياة السياسية، والقضاء على ما يشوبها من ظلم ودكتاتورية.

كذلك فإن ركائز هذا التنوير تتمثل في أمور محددة تتناول حياتنا في شئونها المختلفة، السياسية والاجتماعية والثقافية.

أ-في المستوى الثقافي: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العلم -العقلانية.

ب-وفي المستوى الاجتماعي: يرتكز التنوير على أسس أهمها: الحرية - المساواة.

ج-وفي المستوى السياسي: يرتكز التنوير على أسس أهمها: العدل - الديمقراطية (الشورى).

هذه الركائز الأساسية هي عمدة الإصلاح في كل نهضة. فلقد نهضت بها أوربا حديثًا، ونهض بها العالم الإسلامي يوم أن كان الإسلام عاملا محركًا سياسته، وحاكمًا لشئون الحياة فيه، وضابطًا لها بأوامره ونواهيه علميًا وثقافيًا، واجتماعيًا.

وهذه الركائز في التصور الإسلامي لإقامة الدولة تمثل أوامر إلهية نزل بها الوحي، وفرضتها شريعة الإسلام، وتعبد الله بها المسلمين، والتفريط في هذه الركائز أو في واحدة منها يعتبر جريمة في حق المجتمع، ومسئولية يحاسب عليها المسلم أمام الله يوم القيامة؛ لأنها تنبع من صميم الاعتقاد ويجعل صاحبه - أيا كان موقعه- محلاً للمساءلة أمام الله وأمام المسلمين.

والأحاديث النبوية والآيات القرآنية أكدت في أكثر نصوصها على ضرورة هذه الركائز كأسس لبناء الدولة الإسلامية.

ركيزتا العلم والعقل:

ولكل ركيزة من ركائز النهضة التي سبق أن أشرنا إليها ما يتعلق بها من النصوص والآثار التي تدعو إليها فضلا عن أنها كلها قد مارسها المسلمون عمليًا، وأصبحت واقعًا عاشه المسلمون في حياتهم في سلسلة متعاقبة من التاريخ.

والأخذ بهذه الركائز واعتبارها حلقات مهمة في منظومة التطور النهضوي، الذي تحرص عليه الشعوب هو المعيار الصحيح لحركة التنوير التي تنشدها الأمة. ولا شك عندنا أن أوروبا قد نهضت بمبدأ العلم والاحتكام إلى العقل في مواجهة الجهل والخرافة عند الكنيسة، كما أن نهضتنا المعاصرة ترتبط أيضا بالأخذ بهذين العاملين، وليس ذلك لأن أوربا نهضت بهما، لكن لأنهما معًا – العلم والعقل– أساس النهضة في كل أمة. ولا توجد أمة حاربت العلم أو رفضت منطق العقل، وحاولت أن تمني نفسها بالنهضة. إن ذلك شأنه كمن يمني نفسه بالحصاد دون أن يبذر الحب أو ينتظر النتائج قبل أن يحصل المقدمات. تلك قضية بديهية لا يحتاج إقرارها إلى مزيد بيان أو تفصيل.

فكما نهض المسلمون بهما سلفًا ينبغي أن يأخذوا بهما حاضرًا ومستقبلاً. لكن نود أن ننبه هنا إلى نقطتين أساسيتين تمثلان محور الخلاف بين المشروع الإسلامي والمشروع التغريبي في مفهوم العلم وفي توظيفه.

تتصل النقطة الأولى بفلسفة العلم، فإنها تقوم في المشروع العلماني على قطع الصلة بين عالم الشهادة، الذي هو مسرح العلم ومجال تطبيق نظرياته ومبادئه، وعالم الغيب، الذي يتخذ من عالم الشهادة مقدمة ضرورية وآية للإيمان به، والوصول إليه من خلاله، فإن فلسفة العلم في أوروبا تبدأ طريقها من المادة، وتنتهي إلى المادة، ولا تؤمن بشيء آخر وراءها يقود إليه عالم الشهادة أو يدل

عليه، ومن هنا اقتصرت بحوثهم على الأسباب الظاهرة الكامنة في الطبيعة، واعتصدوا بها، وجعلوها فاعلة بذاتها مستقلة في الفعل والتأثير، مبتوتة الصلة عن خالقها، وجعلوا الحديث عن خالق آخر وراء الأسباب الظاهرة في الطبيعة حديث خرافة، وخارج منطق العلم والعقل معًا، وقالوا: لا يجوز أن نسمح لأنفسنا بأن نتجاوز هذه الأسباب المادية بالبحث أو الحديث عما وراءها؛ لأن في ذلك تجاوزًا لمنطق العقل والعلم إلى منطق الجهل والخرافة، ومن ثم فإن الحديث عن الله ربًا خالقًا للعالم، وخالقًا للأسباب ومسبباتها خارج تمامًا عن دائرة المشروع العلماني التغريبي للنهضة؛ لأنهم كما سبق يبدأون من المادة وينتهون إلى المادة، ولا شيء وراءها يجوز أن نتساءل حوله أو نبحث عنه، هكذا قالوا وصرحوا في بحوثهم وكتاباتهم [1]. وعلى هذا النحو أخذوا يدعون الناس إلى الإيمان بالعلم المستقل في تأثيره عن الخالق للسبب والخالق لأثره في المسببات. فجاء عالم الشهادة عندهم منفصلا عن عالم الغيب ولا علاقة بينهما. وإذا كانت هناك علاقة يؤمنون بها فهي علاقة التناقض التي تجعل الإيمان بأحدهما ينفي الإيمان بالآخر، والدعوة إلى الإيمان بأحدهما تحمل في طياتها الدعوة إلى نفي الإيمان بالآخر، فأما الإيمان بالمادة فقط، وإما الإيمان بما وراءها، ولعل هذا يفسر لنا كثرة استعمال بعض المصطلحات التي تحمل معنى السخرية والاستهزاء بالمؤمنين بالغيب، حيث يطلقون عليهم مصطلح "الغيبيون" أي المؤمنون بالغيب والغيب عندهم لا وجود له ولا دليل عليه، بل الإيمان به دليل الجهل والخرافة.

والأمر في ذلك يختلف تمامًا عن مفهوم فلسفة العلم في المشروع الإسلامي.

---

(١) راجع كتاب ما هي النهضة لسلامة موسى في مواضع متفرقة منه،وراجع يوميات أحمد عبد المعطي حجازي في الأهرام، والسيد ياسين وغيرهم.

ففي الإسلام نجد أن العلم مطلب شرعي، وفريضة دينية كثر الحديث عنه في القرآن الكريم وفي السنة النبوية المطهرة،وكلما ازداد المرء علمًا بالصنعة وبالعالم زاد إيمانه بالخالق، وكلما ازداد عقل المرء تشبعًا بأسرار الطبيعة ودقة قوانينها ازداد خشية للخالق، ولهذا جاءت الآية الكريمة حاصرة لهذا المعنى الدقيق في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] والمفروض عقلاً أن العالم المدقق كلما ازداد تحصيلاً لقوانين العلم واكتشافًا لأسباب الظواهر يزداد تساؤله عن خالقها ودقة صنعتها وحكمة الخالق منها وفيها، ليقوده هذا النظر العلمي والتساؤل العقلي إلى الإيمان بالخالق الحكيم، الذي أحسن كل شيء خلقه وأتقن كل شيء صنعه، فيقوده عمل العقل في عالم الشهادة بحثًا وتنقيبًا وكشفًا عن الأسباب واكتشافًا للعلاقات بين الأسباب ومسبباتها إلى الإيمان بالخالق الحكيم، فلا يعمل العقل في هذا العالم الغيبي المحسوس المشاهد منفصلاً عن العالم، فهو ليس منعزلا في وظيفته الكونية عن عالم الغيب؛ لأنه آيته وبرهانه ومقدمة ضرورية تقود إليه، ومن هنا كثرت الآيات القرآنية التي تأمر العقل البشري أمر وجوب بضرورة التأمل والتدبر في هذا العالم من سمائه إلى أرضه اكتشافًا للسنن والقوانين وكشفًا عن العلل والمعلولات الكامنة بين الأسباب والمسببات، وغالبًا تختم هذه الآيات بجعل هذا الكون آية وبرهانا على الخالق الحكيم.

نعم إن المسلمين في القرون الأخيرة خذلوا إسلامهم يوم أن عطلوا العقل عن وظيفته الكونية التي دعاه القرآن إلى مباشرتها والنهوض بها؛ لأنه لم يتزل كتاب سماوي ليأمر العقل بتبني منهج في البحث الكوني يقوم على الاعتبار العقلي، وملاحظة الظواهر الكونية مثل القرآن، فليس في الإسلام أطفئ سراج عقلك، ثم اتبعني، والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة ومتنوعة، فمنها ما يتعلق

بعالم الأفلاك، ومنها ما يتعلق بالأرض وما عليها، ومنها ما يتعلق بالإنسان وما يحيط من كائنات أخرى تتصل حياتها بحياته. ومن اللافت للنظر حقًا أن كل الآيات المتعلقة بهذه الأنواع تدعوا العقل إلى الملاحظة وارتباط الظواهر بعضها ببعض كما هو الشأن في المنهج التجريبي قال تعالى في الحديث عن بدء الخلق.

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ ﴾

[الأنبياء: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ ﴾

[الأعراف: ١٨٥].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِن طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۞ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾

[المؤمنون: ١٢- ١٤].

﴿ أَفَلا يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۞ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۞ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۞ وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾

[الغاشية: ١٧- ٢٠].

﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۞ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۞ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۞ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۞ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾

[ق: ٦- ١١].

﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾

[الحجر: ٢٢].

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۞ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾

[يس: ٣٨- ٤٠].

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۞ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾

[الواقعة: ٧٥، ٧٦].

بالإضافة إلى قسم القرآن بالظواهر الكونية الأخرى، والشمس وضحاها والعصر والفجر ... إلخ.

بل إن القرآن الكريم يعلم العقل كيف يبحث عن الحقيقة في قضية الخلق والخالق -وهي من أعقد المسائل العقلية -فيطرح مجموعة من الفروض والاحتمالات ليناقش العقل القضية من خلالها. فيقول تعالى:

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴾

[الطور: ٣٦].

هذه الأسئلة يتضمن كل سؤال منها فرضًا عقليًا عن قضية الخلق تعليمًا وتدريبًا وترويضًا للعقل البشري ليصل بذلك إلى الحق اليقين.

قال تعالى: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥- ٩٩].

ولاحظ أيها القارئ الكريم خواتيم هذه الآيات القرآنية على الترتيب السابق، في ذلك لآيات لقوم يعلمون، لقوم يفقهون، لقوم يؤمنون، إن هذه الآيات -وغيرها كثير- تستفز العقل وتستثيره ليلاحظ هذه الظواهر.

كيف يرتبط بعضها ببعض وجودًا وعدمًا ليكتشف العلاقات السببية بينها. وهذه أولى خطوات البحث العلمي، ملاحظة الظاهرة واعتبارها مع ما يرتبط بها من ظواهر أخرى وكلها ظواهر محسوسة ومشاهدة.

لم تقرأ في تاريخ الفلسفة الإنسانية، ولا في تاريخ الأديان كتابًا حفز العقول حفزًا على العلم والتعلم والملاحظة والاعتبار، كما فعل القرآن الكريم، ولكن للأسف الشديد لم يتنبه المسلمون إلى هذه الأوامر الإلهية التي هي المفتاح الوحيد

لتحقيق وظيفة الإنسان في تعمير الكون، كما نبه إليه الشرع بقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾

إن وظيفة الكون كآية دالة على خالقه، ووظيفة الكون كمخلوق مسخر للإنسان لا ينهض بهما الإنسان إلا بمفتاح العلم. ومن هنا كانت آيات النظر والتفكير والتدبر كلها تتصل بالكون وما فيه من آيات، وملاحظة ظواهره وارتباط بعضها ببعض وجودًا وعدمًا، وهذا يتصل بما نسميه خطوات البحث في العلوم، ملاحظة الظاهرة -واختبارها بما قبلها وما بعدها وجودًا وعدمًا.

ولا ينبغي أن يفهم أحد من هذا أنني أقول إن القرآن كتاب في منهج البحث العلمي، أو أنه وضع خطوات البحث العلمي أو .... أو.... لا ليس هذا من مقصدنا. وإنما الذي أقصده أن توضح لأولئك الذين يقولون إن الإسلام يحارب العلم نقول لهم هذا هو كتاب الإسلام ودستوره، وهذا هو موقفه من العلم والعلماء، فأروني كتابًا سماويًا قبله حفز العقل إلى العلم حفزًا يمثل ما حفزه القرآن، أو كتابًا سماويًا غيره ربط بين العلم والعقيدة كأساس لخشية الله، كما ربط القرآن. فلماذا إذن يتقولون على الإسلام وهم لا يعلمون شيئًا عنه، إلا ما يرونه من واقع المسلمين، ولا شك أنه واقع متردٍ يدعو إلى الأسف،وكان الأولى بهم -وهم مسلمون- أن يحثوا المسلمين على النهوض من هذه الكبوة بالاعتصام بمنطق العلم كمطلب شرعي وأمر إلهي، بدلاً من أن يدعوهم إلى رفض الدين وتنحيته عن واقع الحياة.

إن من الإنصاف أن يفرقوا بين واقع المسلمين وحقيقة الإسلام، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ لأن الحكم على الإسلام من واقع المسلمين فيه ظلم للإسلام من جانب، وفيه مجافاة للمنهج العلمي من جانب آخر.

إن وظيفة عالم الشهادة في التصور الإسلامي أن يقود العالم به والمتأمل في

دقة صنعه، وما أودعه الله من أسرار ومكنونات يتم الكشف عنها آنا بعد آن. وما فيه من دلائل وبراهين تدل على العناية الإلهية، كما يقول ابن رشد: يقود الناظر المتأمل إلى الإيمان بخالق هذا الكون، ولكن فلسفة العلم الغربي التي يدعوننا إلى الأخذ بها وقفت بأصحابها عند منتصف الطريق، وضاع منها النصف الآخر، وبالتالي ضاع منها الموقف الكوني بكامله، حيث اقتصروا على المقدمات، وأهملوا البحث عن النتيجة، فلم يصلوا بذلك إلى شيء.

إن الأسباب في التصور الإسلامي فاعلة ومؤثرة، هذه حقيقة نزل بها القرآن وحث عليها الشرع، ويجب الإيمان بها، والأخذ بمفهومها قال تعالى: ﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وباء السببية تكرر ذكرها في القرآن كثيرًا، ولام التعليل ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيرًا، ولام التعليل ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيرًا، تكرر ذلك في القرآن الكريم بشأن الأسباب الطبيعية وبشأن الأفعال الإنسانية على سواء، ليجعل ربط الأسباب بمسبباتها قاعدة وقانونًا يستقر في ذهن المسلم، فلقد ذكر القرآن الكريم أن نزول المطر سبب في إنبات الزرع، وفي القرآن كذلك ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ والإيمان بهذه لا يتناقض أبدًا مع الإيمان بتلك.

وفي القرآن الكريم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴾ الواقعة: ٥٨، ٥٩] والإيمان بخالقية الله للجنين لا يتعارض مع الإيمان بمشروعية الزواج والإنجاب كسبب مباشر لذلك، وباء السببية ولام التعليل، كما قلنا تكرر ذكرهما في القرآن على مستوى الأفعال الكونية، وعلى مستوى الأفعال الإنسانية، وهذه حقيقة مقررة في الإسلام.

ولكن هذه الأسباب ومسبباتها هي في النهاية مخلوقات لله. والأثر الكامن

في السبب الفاعل في المسبب هو كذلك مخلوق لله، إن شاء نزعه الله من السبب فلا يقع المسبب، وإن شاء أودعه السبب وعطله عن الفعل بوجود المانع الأقوى منه، وإن شاء عطل المسبب عن قبول الأثر الفاعل، فلا ينفعل به فلا يقع المسبب أصلاً لتقع المعجزات على يد الرسل والأنبياء تأييدًا لصدقهم، وبرهانًا على صحة دعوتهم؛ لأن القضية كلها كامنة في قوله سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، والحديث في هذا الموضوع بتفصيلاته قد يخرجنا عن الحد المرسوم لنا في مثل هذه العجالة، ولكن أردنا التنبيه هنا إلى موطن الخلاف في هذه النقطة بين المشروع العلماني التغريبي، والمشروع الإسلامي في فلسفة العلم، فإن المشروع العلماني قد اختزل الموقف الوجودي كله في جانبه المادي وجعله مقصورًا على البعد الحسي للوجود. فكان شبيهًا بالموقف الدهري، الذي تحدث عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿ مَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلا الدَّهْرُ ﴾ فرد عليهم القرآن بقوله ﴿ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلا يَظُنُّونَ ﴾ ، ففي واقع الأمر ليس معهم من دليل على صحة قولهم، إلا الجهل بالدليل وعدم العلم به، فاتخذوا من عدم العلم بالدليل دليلا على عدم الوجود الذاتي، وتلك خطيئة مرذولة في منطق العلم، لا يغفرها ذو عقل أو صاحب منهج، إذ من المعلوم أن نفي العلم بوجود الشيء ليس نفيًا لوجود الشيء في نفسه؛ لأن عدم العلم ليس علمًا بالعدم، وأنت إذا سألت الواحد من هؤلاء عن دليله على ما يؤمن به ويدعو إليه لا تجد معه دليلاً إلا عدم علمه بالدليل. والدليل الذي يجهله نزل به القرآن وناقشه عقليًا. وطلب منه الإيمان به عن علم ويقين لا عن جهل وتقليد، ولكن ﴿ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ ﴾.

أما النقطة الثانية: التي هي محور الخلاف بين المشروعين، فتتعلق بتوظيف

العلم، فمن الأمور التي نبه إليها الإسلام أن هذا العالم وما يكتنفه من قوانين وعلاقات سببية بين أجزائه ينبغي أن يسخر لصالح الإنسان وتحقيق سعادته؛ لأن الكون كله مسخر للإنسان. قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال سبحانه: ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ فالجماد يعمل في خدمة النبات، والنبات يعمل في خدمة الحيوان والإنسان، والحيوان يعمل في خدمة الإنسان، فأنت لو تأملت وظائف الكائنات كلها فسوف تجدها تعمل في شكل دائري لتصب خدماتها جميعها لصالح الإنسان، وبالتالي فإن العلم والاكتشافات العلمية ينبغي أن تعمل في هذه الدائرة في خدمة نوع الإنسان كله. وليس لخدمة لون من البشر على حساب لون آخر، ولا تعمل لخدمة جنس على حساب جنس آخر. إذا اختل هذا الميزان الشرعي في توظيف العلم ومكتشفاته، فإن ضرر العلم على النوع الإنساني يكون أكثر من نفعه، ذلك أن المشتغلين بالعلم في كل أمة هم الأقل عددًا بالنسبة لغيرهم، وبالتالي فلو سخر هؤلاء العلم لصالحهم هم دون غيرهم لأدى ذلك إلى نكوص العلم عن أداء وظيفته في خدمة النوع الإنساني، بل قد يؤدي إلى دماره وخرابه، كما هو الشأن الآن في أرجاء العالم، فبدلا من أن يوظف العلم لصالح النوع الإنساني، وظفه أصحابه لخراب البلاد وقتل العباد في الحروب وفي التسلح وتصنيع الأسلحة المدمرة، ولا يخفي على أحد كمية الأسلحة الذرية والبيولوجية التي تهدد العالم الآن، والتي يستذل بها دول الغرب العالم الثالث، وتحت وطأة الخوف منها ينهب الغرب ثروات العالم الثالث وخيراته.

إن التقدم العلمي الذي أحرزته أوربا وأمريكا أمر تفخر به البشرية، ولا شك في ذلك. لكن كيف توظف هذه الدول بحوث العلم ونتاجه؟ كيف

تستذل به الشعوب أو كيف تتحكم به في مصائر الشعوب؟ كيف تحكم به على بعض الشعوب بالخراب والدمار والتشريد؟ كيف تسخره لصالح الكيان الصهيوني لتشرد به شعبًا بأكمله وعلى حساب العرب؟

إن توظيف العلم لصالح الإنسان مهمة إنسانية وشرعية تكتمل بها وظيفة الإنسان الكونية في إعمار هذا العالم، وهو في نفس الوقت مسئولية شرعية وأمانة دينية استخلف الله الإنسان عليها، حيث يسأل عنها يوم القيامة، كما تحدث الرسول (ﷺ) و عن ذلك فقال: "لا تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع... فذكر منها وعن علمه ماذا عمل به، والحديث ذكر العلم بالمعنى العام. فلا وجه لتخصيصه هنا بالعلم الشرعي فقط. فالمفترض في العلم أنه يعمر ولا يخرب،يبني ولا يهدم، يسعد الإنسان ولا يشقيه، تلك وظيفة العلم النافع وهذه رسالته، لو أن المليارات التي تنفق يوميا على صناعة التسليح للدمار والخراب وظفت لرفاهية النوع الإنساني وإسعاده لما كان هذا التفاوت اللامعقول بين شعوب الأرض. وما وجدنا شعوبا تفترش الثرى وتلتحف العراء،وأخرى تفترش الحرير وتلتحف الديباج. إن سوء توظيف العلم على يد الغرب هو المسئول عن هذا التفاوت المذهل بين الشعوب، ولا حل لهذه المشكلة إلا أن يوظف العلم بروح إسلامية، ويعمل لإسعاد النوع الإنساني كله، وليس لصالح نوع واحد، أو جنس واحد على حساب الآخرين.

هاتان النقطتان (فلسفة العلم وتوظيف العلم) تمثلان خلافًا جوهريًا بين العلم في التصور الإسلامي والمشروع العلماني التغريبي.

العقل:

أما العامل الثاني من عوامل النهضة الثقافية، فهو العقل والتفكير العقلاني في مواجهة الخرافة والتفكير الخرافي، وفي الإسلام نجد أن العقل هو مناط الأهلية

للخطاب الإلهي تشريفًا وتكليفًا، وهو حجة الله على عباده بالتكليف أمرًا ونهيًا، وفاقد العقل ليس مؤهلاً للخطاب الإلهي أصلاً لا أمرًا ولا نهيًا، وهو يعيش خارج دائرة التكاليف الشرعية، وبالتالي خارج دائرة المساءلة،ولم نجد في كتاب سماوي سابق على الإسلام خطابًا للعقل تكريمًا وتشريفًا واحترامًا، كما جاء في القرآن الكريم، ولا أريد أن أكرر هنا كلاما يقال كثيرًا حول تعظيم العقل والإعلاء من شأنه كميزة خص الله بها الإنسان دون بقية الكائنات الأخرى ليصبح بذلك أهلا للخطاب الإلهي، فإن العقل وسيلة لفهم القرآن وأداته، وهو المؤهل الوحيد للخطاب الإلهي للإنسان ولو تخلف العقل لسقط معنى الخطاب الإلهي، وفات مقصوده، وفي نصوص الخطاب الإلهي تحذيرات كثيرة من متابعة الهوى، أو الخرافة أو حتى الظنون، باعتبار أن ذلك كله في خصومة مع العقل وفي محاربة له يجب التخلص منها كمدخل طبيعي للاعتصام بالعقيدة الإسلامية الصحيحة، وإذا كانت وظيفة العلم القضاء على الجهل، فإن وظيفة العقل القضاء على الخرافة، والعقل والعلم معًا هما جناحا النهضة الثقافية للشعوب، ولا قيام لأحدهما في غياب الآخر، وهما عندنا وجهان لعملة واحدة عنوانها: "النهضة الإسلامية: بالعلم والعقل"، ولا غنى للنهضة عن واحد منها. وهذا ما أكده الإسلام ودعا إليه.

ولعل من المهم في هذا السياق أن تفهم الحكمة في أن أول خطاب إلهي للإنسان نزل به الوحي ليرشد الإنسان إلى أساس نهضته في كل عصر كان قوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ ﴾ وإن هذه القراءة يكون لحمتها وسداها ﴿ اسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ فلا ينبغي أن نفصل القراءة عن اسم ربك، ولا عن آياته الكونية، لتقود هذه القراءة العقل وصاحبه إلى العلم بالكون وأسراره في صحبة تلازمية بين قراءة الكون وآياته وخالقه سبحانه لتربط المقدمات بنتائجها، برباط

العقل الصريح. الذي لا يخطئ النتيجة إذا أحسن الأخذ بالمقدمات بمنهج علمي رشيد.

وهذا دليل صريح على محاربة الجهل بشتى صوره، سواء كان هذا الجهل متصلاً بأصول الاعتقاد وتنظيم علاقة العبد بخالقه، أم متصلا بالعادات والأعراف الاجتماعية، أم متصلا بالتفسيرات العلمية للظواهر الطبيعية والظواهر الاجتماعية، ومن اللافت للنظر، ومما ينبغي ألا نهمله في هذه السياق أن الإسلام يربط الموقف العام من هذه القضية بسلامة العقيدة أو فسادها، فلقد حذر من اللجوء إلى العرافين والكهنة والسحرة، ليستقي منهم المرء ما يظنه علمًا أو معرفة تتصل بحياته أو مستقبله، أو تتصل ببعض الظواهر الأسرية، واعتبر ذلك خروجًا على الاعتقاد الصحيح، كما هو خروج على العقل السليم قال، (ﷺ): "من ذهب إلى عراف أو كاهن، فقد كفر بما أنزل على محمد".

وكم حذر الإسلام من اتباع الظنون والأهواء في بناء اليقين وإصدار الأحكام سلبًا، أو إيجابًا، واعتبر كل ذلك منشأ للضلال وخروجًا على منطق العقل والعلم بقدر ما هو خروج على صحة الاعتقاد.

ركيزتا الحرية والمساواة:

وعلى المستوى الاجتماعي نجد أن مبدأ الحرية والمساواة يمثلان في الإسلام أساسيات العلاقات الاجتماعية بين الناس. لأمرين مهمين جدًا:

الأمر الأول: أن هذين المبدأين ينبعان أصلاً من اليقين بالله، وأنه رب كل شيء ومليكه وخالق كل شيء ورازقه وإنه المحيي والمميت، وعلى سبيل الإجمال فإنه له الخلق والأمر وحده،والإيمان بهذه الحقيقة يعطي المسلم مفتاح التعامل مع الناس من واقع إيمانه بهذين المبدأين، فالإيمان بوحدانية الخالق الرازق يجعل عبودية المرء له وحده، وبقدر إخلاص هذه العبودية لله يتحرر المرء من عبوديته

لغيره، وهذا يجعل الإيمان بالحرية على أنها فريضة دينية يحاسب المسلم على التفريط فيها. فهي ليست منة من أحد ولا هبة من حاكم لشعب، وإنما هي فرض ديني يجب صونه والدفاع عنه... والإيمان بقضية الحرية لا يقتصر على معنى الحرية السياسية فقط، وإنما تشمل الحرية العقائدية والدينية والاجتماعية، ولهذا فإن الفتوحات الإسلامية كان من أهدافها الكبرى تأسيس هذا المعنى للحرية في نفوس الناس، وحمايته من سطوة حاكم طاغية أو تسلط ظالم مستبد، ولقد جسد هذا الهدف الديني للحرية القائد المسلم العظيم حين أعلن صراحة "إنما جئنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد"، إنه بذلك يجسد معنى الحرية لتكون واقعا يعيشها الإنسان، وينعم بها في مواجهة تسلط ظالم أو طغيان حاكم. إنها مبدأ لا يحد من إطلاقه إلا عدم الإضرار بحرية الآخرين أو النيل منها، أو النيل من عقائد الآخرين أو أديانهم، فكما يحرص الإسلام على حرية أبنائه يحرص بنفس القدر على حرية الآخرين واحترام عقائدهم... فإذا دعاهم إلى الإسلام فيكون منهجه في الدعوة منهج قرآني أشار إليه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فإن استجابوا فبها ونعمت، وإلا فلا سلطان له عليهم، ومن واجبه نحوهم احترام عقائدهم وصون كنائسهم ومعابدهم. قال تعالى: ﴿ وَلا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٨].

والحرية من جانب آخر هي التي تمنح المرء إحساسه بالمساواة مع الآخرين لآدم، فكلهم لآدم، وآدم من تراب، والقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة حين يؤكدان قضية الحرية، فإنما يؤكدان في نفس الوقت قضية المساواة والعكس صحيح، ففي القرآن الكريم نجد هذا المبدأ مجسدًا في صيغة قاطعة لا تحتمل

التأويل قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: ١٣]، وفي السنة النبوية "كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى"، والرسول (ﷺ) يقول لابنته فاطمة: "يا فاطمة بنت محمد اعملي، فإني لا أغني عنك من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد. لا يأت الناس بأعمالهم يوم القيامة وتأتوني بأنسابكم وأحسابكم".

وعمر بن الخطاب يستدعي ابن الأمير عمرو بن العاص ليقتص منه لغير المسلم. والقضية مشهورة. ويقول له: كلمته التاريخية "متى استعبدتم الناس ولقد ولدهم أمهاتهم أحرارًا".

إن ركيزتي الحرية والمساواة يمثلان النسيج الإسلامي، الذي يسري بخيوطه في نسيج المجتمع الإسلامي ليربط بين أفراده بهذا الرباط العقائدي ليجعل منه وحدة اجتماعية تستمد قوتها من إيمانها واعتقادها بهذا المبدأ ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾، " كلكم لآدم وآدم من تراب "، ولأهمية هذين المبدأين (الحرية والمساواة) في تأسيس المجتمع والحفاظ على كيانه تجد الرسول (ﷺ) في خطبة الوداع يخصها بالتفصيل ويجعل منها قاعدة الإصلاح لكل بناء اجتماعي قبل أن يعرف الناس ما يسمى بوثيقة حقوق الإنسان من أربعة عشر قرنًا. إنه (ﷺ) يقرر في خطبته الحاجة الحقوق الإنسان كنوع وليس الحقوق لون معين ولا جنس معين من بني البشر دون بقية الألوان والأجناس، إنه يقول: "أيها الناس" بهذا العموم الشامل "كلكم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. إن أموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا".

ونصوص الإسلام في تقديس الحرية والمساواة لا يتسع المقام لسردها،

ولكن فقط هي إشارات موجزة لكي يعرف الشباب أن حقـوق الإنسـان في الحرية والمساواة لم نجدها مصونة في غير الإسلام بهذا السياج العقائدي المتين. وهذا بخلاف ما نسمع عنه من مواثيق حقوق الإنسان الـتي لا يتمتـع بهـا إلا الإنسان الأوروبي أو الأمريكي فقط، فإذا أصابهما أذى أو مس أحـدهما ضـر تقوم الدنيا ولا تقعد، أما الإنسان المسلم في البوسنة والهرسك، أمـا الإنسـان المسلم في فلسطين، أما الإنسان المسلم في كشمير وفي الشيشان، فـإن وثيقـة حقوق الإنسان لم توضع لأجله، وليس من نصيبه أن تطبق عليه بنودها، وإنمـا يباح دمه وعرضه على مسمع من العالم كله، ولا يتحرك لأجله أحد.

ركيزتا العدل والشورى:

لفت القرآن انتباهنا في أكثر من آية إلى أن العدل ركيزة أساسـية لقيـام الممالك وبناء الحضارات، وإن غيابه عن نظام المجتمع ومسيرة الحياة في العلاقات المتبادلة بين الناس من جانب وبين الحاكم والمحكوم من جانب آخـر سـبب في انهيار الحضارات وهلاك الأمم.

وحين يقص القرآن الكريم قصص الأمم الماضية وأحوالها لم يكن القصد من ذلك مضيعة الوقت أو التسلية، وإنما كان القصد والغاية خلق الوعي التـاريخي في عقول الناس، الوعي بالتاريخ وأحداثه، التعرف على أسباب انهيـار الأمـم، وأسباب اندثار الحضارات، حيث يحل الظلم محل العدل ويسود الاستبداد بدلاً من الشورى، وتقهر الشعوب بسيف السلطان البـاطش، إن هـذه القصـص القرآنية تهدف – فيما تهدف– إلى أن صناعة الطغيان تتم بيد الشـعوب الـتي تسمح لحكامها أن يستبدوا، وأن الشعوب هي صانعة الطغاة في كل عصر حين يتنازلون عن ممارسة حقوقهم ليتولى الطاغية تصريف شئونهم، نيابة عنهم بالبطش والاستبداد مرة، ويسلب حريتهم بوسائل مختلفة مرات ومرات، ولكن النتيجة

المحتومة لا يتحملها الطاغية بمفرده، وإنما تعود النتائج السيئة على الأمة التي صنعت هذا الطاغية، أو ذاك.

إن قراءة التاريخ توضح لنا أن الشرق والشرقيين عمومًا يحتكرون صناعة الطغيان، ويباركون ميلاد الطغاة، حتى كاد أن يشيع بين مؤرخي الحضارات أن الطغيان صناعة شرقية خالصة، ولقد جسد القرآن مجموعة من الضوابط التي ساقها في شكل الصيغ التي هي أشبه بالقواعد الاجتماعية التي يتضمن كل منها سنة كونية من سنن الله في خلقه، فإذا مارست الأمم أسباب هذه السنة الكونية كان لابد من وقوع هذه السنة وحلولها بالأمة؛ لأنها لا تتخلف أبدا ما دامت قد وقعت أسبابها، وهذه غاية القص القرآني وأحد أسبابه الكبرى، الوقوف على هذه السنن وأسبابها ونتائجها ودورها في بناء الممالك وانهيار الحضارات.

قال تعالى:

١-﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

[الأنفال: ٢٥].

٢-وقال سبحانه ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

[الكهف: ٥٩].

٣-وقال سبحانه ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾

[الكهف: ٥٩].

٤-وقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾

[يونس: ١٣].

٥-وقال سبحانه: ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾

[هود: ١١٣].

٦-وقال سبحانه: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [إبراهيم: ١٥].

إن من سنن الله في قيام الممالك وانهيارها هو سيادة العدل أو غيابه، وارتباط العدل بنظام الملك ارتباط عنصري، كارتباط الأسباب بنتائجها سلبًا وإيجابًا، ولذلك كان من تراث هذه الأمة "أن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة"، وهذا قانون عام أثبت التاريخ صدقه، ونبه إليه مفكرو الإسلام كابن تيمية، وابن خلدون، والفارابي، والكندي، وليس من العدل أن يحتج على عدم صحة القانون بفساد الناس في سلوكهم أو بظلم بعض الحكام في عهودهم، فإن ذلك لا يخلو منه تاريخ أمة من الأمم، ولا مجتمع من المجتمعات، فكم من القوانين الرائعة ضاعت هيبتها عند التطبيق على يد الأتباع، وكم من مبادئ سامية ضاعت قيمتها بسبب فساد التطبيق وانحراف الأتباع.

إن ارتباط ركيزتي العدل والشورى بالعقيدة سلبًا أو إيجابًا يعطيها قيمة الحياة في نفوس الناس في الممارسة العملية في الحكم بين الرعية؛ لأنها تكون حينئذ التزامًا عقائديًا دينيًا، باعثه ذاتي والدافع إليه يقين المسلم بالله وليس إلزامًا قانونيا يمارس من واقع الرقابة الخارجية للسلطان أو للمجتمع، فشتان بين هذا وذاك.

إن القرآن الكريم جاء بالأمر الإلهي صريحًا بالعدل وجعله فريضة ملزمة لكل من يتولى شئون الناس، وربطه ربطًا محكمًا بالعقيدة ليستقر في ذهنية المجتمع أن شئون الحكم وسياسة المجتمع من خصوصيات الاعتقاد السليم واليقين الصحيح، وذلك منطق فطري في نفوس البشر محبة العدل وكراهية الظلم.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾

[النحل: ٩٠].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ ﴾

[النساء: ٥٨]

وقال تعالى: ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ ﴾

[ص: ٢٦].

ولقد ضرب الرسول (ﷺ) المثل والقدوة العملية أمام الصحابة في تطبيق مبدأ العدل، فلقد جاءه أشراف قريش يشفعون عنده في امرأة سرقت، وهي فاطمة المخزومية، فعلمهم الرسول (ﷺ) أن صيانة الحقوق لا ينبغي أن تضيع بشفاعة الشفعاء، ولو كانوا من أشراف قريش فقال (ﷺ): "أتشفعون في حد من حدود الله. لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد".

لقد نبههم الرسول (ﷺ) إلى مكمن الخطر في انهيار الممالك وهلاك الأمم.

وهو ضياع الحقوق بين الناس، أكل أموال الناس بالباطل، ضياع قيمة العدل، وتفشي الوساطات كوسيلة لضياع الحقوق، فمن لا يملك يعطي من لا يستحق، وهذا من أسوأ الأمراض وأخطرها في سقوط الممالك وانهيارها، والأمر لا يحتاج إلى بسط أو تفصيل أكثر؛ لأن بيان قيمة العدل أمر معلوم من الدين بالضرورة، وكذلك الشورى فقد أمر القرآن الكريم الرسول (ﷺ) بممارستها، فقال للرسول (ﷺ): ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ ﴾.

وجعل من صفات المؤمنين الذين استجابوا لله وللرسول أن ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وكان الرسول (ﷺ) يقول لصحابته: "أشيروا علي أيها القوم".

فهذه الركائز هي أسس النهضة في كل الأمم، لا أقول تبناها الإسلام، ولكن أقول ولدت في ظل الحضارة الإسلامية، وبشهادة ميلاد إسلامية؛ لأن أصولها قرآنية خالصة، وليست هناك حضارة -تبنت نصوصها المقدسة هذه المبادئ مجتمعة إلا الحضارة الإسلامية، وليس في دساتير الأمم نصوص سابقة على الإسلام تبنت هذه المبادئ وجعلتها غاية ومقصدًا لليقين والاعتقاد. إن هذه المبادئ تمثل في الإسلام عقيدة وشريعة، فهي التزام عقائدي وليست إلزامًا قانونيًا، ولعل في الإيجاز هنا ما يغني عن الإطناب والتفصيل؛ لأن ذلك له مجال آخر.

* * *

بداية المشروع العلماني

يكاد يجمع الدارسون والمهتمون بعوامل النهضة الحديثة على أن بداية هذه النهضة ارتبطت بعصر محمد علي من جانب، وبالحملة الفرنسية من جانب آخر، فإن محمد علي قد وجه اهتماماته إلى النهوض بمصر زراعيًا، فشق الترع وأقام الجسور والسدود والقناطر، واجتماعيًا وثقافيا، فأرسل البعثات إلى أوروبا، وشجع التعليم، فأقام المدارس ونشر أبناؤه رياح التعليم من بعده في ربوع مصر.

ومن جانب آخر، فإن معظم الدارسين لهذه القضية يربط بدايتها بالحملة الفرنسية، ويجعل مطبعة نابليون التي جلبها إلى مصر بداية عهد جديد في مصر، يسمى عصر التنوير، لأن الشرق العربي لم يكن له عهد بالمطابع قبل حملة نابليون على مصر.

ونحن من جانبنا ندعو إلى التحفظ في تقبل هذه الأحكام على إطلاقها، ذلك أن مسيرة التاريخ في مصر وقراءة عوامل نهضة عالمنا العربي عمومًا كانت تسير في خطها الطبيعي، وإن بدا هنا بطيئًا، لكنه كان يسير في اتجاه مخالف في الأهداف والمقاصد لمن أرخوا لعصر النهضة المصرية بدخول الحملة الفرنسية مصر، ولا أشك في أن محمد علي قد خطأ خطوات ملحوظة في مسيرة هذه النهضة وبعث عواملها، كما لا نشك في أهمية الاحتكاك الثقافي الذي حصل بين رجال الحملة الفرنسية والمجتمع الشرقي عمومًا في مصر وفي عكا، لكن لا ينبغي أن نبالغ في هذه القضية فنجعلها بداية لعصر النهضة في الشرق عمومًا وفي مصر خصوصًا، فإن المطبعة التي جلبها نابليون إلى مصر لم تكن هي أول مطبعة عرفها الشرق. كما يدعي أصحاب هذا الرأي، بل إن الشرق قد عرف المطبعة وتعامل

بما قبل حملة نابليون بما يقرب من قرن كامل، فإن مقر الخلافة في الأستانة قد عرف الطباعة بتجميع الحروف البارزة التي اخترعها "جوتنبرج" الألماني، بفضل أحد أبناء السلطنة، والذي قدم للسلطان أحمد الثالث تقريرًا يبين فيه أهمية الطباعة وضرورة الاستعانة بها في المكاتبات ونشر الثقافة، وبدأت السلطنة تعتمد عليها ابتداء من سنة ١٧٢٨م[1]، كما أن مطبعة بولاق بدأت نشاطها الثقافي في مصر من عام ١٨١٩، أو ١٨٢٢م، وأصبحت مطبعة بولاق من هذا التاريخ ركيزة أساسية لنشر أمهات الكتب الثقافية في مصر والعالم العربي، فلماذا يعول الدارسون على مطبعة نابليون ويجعلونها رمزًا حضاريًا لبداية النهضة في مصر، ويهملون دور مطبعة الخلافة ومطبعة بولاق؟ ولماذا الإصرار على ربط بداية نهضتنا بالحملة الفرنسية فقط؟ إن هذا الموقف يحتاج من الدارسين إلى مراجعة أمينة وقراءة التاريخ بعين العربي المسلم، لا بعين الأوروبي المستشرق.

ومهما يكن من أمر، فإن التيار العلماني في مصر بدأ في أواخر القرن التاسع عشر، واشتد عوده في مصر إبان عصر الاحتلال، ولا زال يدندن حول قضايا التغريب إلى الآن، مستعملاً في ذلك ألفاظ الغرب ومصطلحاته مثل التنوير –التقدمية– العلمانية.

وأنشئت في مصر مؤسسات ثقافية حرسها الاستعمار، وسهر على تغذيتها بالأقلام والعقول التي أخذت عن الاستشراق منهجه فكرًا وثقافة، وجاءت هذه العقول إلى المنطقة لتبث أفكارها وتنشر آراءها خلال نشاط هذه المؤسسات، وحاولوا بطرق مختلفة نقل المشكلات التي مثلت بؤرة الصراع بين الكنيسة

---

(١) راجع الإسلام المعاصر: د. علي مراد بالفرنسية، ترجمة محمود علي مراد ص ٤١ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٤.

والعلم في العصور الوسطى بأوروبا بملابساتها وظروفها إلى مصر والعالم الإسلامي، واستوردوا لها نفس الحلول التي تخلص بها العلماء من سطوة الكنيسة في الغرب، دون أن يفطنوا إلى أن الإسلام في موقفه من العلم، ليس هو الكنيسة في موقفها من العلم، وأن المجتمع الإسلامي ليس هو أوروبا في عصورها المظلمة.

فنادوا – ولا يزالون – بفصل الدين عن الدولة، كما فصلت أوربا السلطة السياسية عن السلطة الدينية ناسين أو متناسين أن السلطة الدينية ليس لها في الإسلام مكان ولا مكانة، لا على خريطته الأصولية، ولا على خريطته التاريخية.

ونادوا –ولا يزالون – بالدولة المدنية التي ينبغي أن لا تخضع للإسلام في شيء. لا في الحكم، ولا في الثقافة، ولا في شئون الحياة الاجتماعية والمدنية. فنادوا بأن يكون التعليم مدنيًا لا دينيًا، وأن يكون الحكم لا دينيًا، وأن يكون شعار الدولة الرسمية هو اللادينية. هكذا نادوا في الماضي ولا يزالون في الحاضر.

كما نادوا – ولا يزالون – بأن تحذو المرأة في مصر حذو المرأة في أوربا، خاصة في فرنسا حذو القذة بالقذة في العادات والتقاليد.

كما نادوا – ولا يزالون – بمساواة المرأة بالرجل في الميراث تطبيقًا لمبدأهم اللاديني، وليس ببعيد عن العقلية المصرية ما جرى على صفحات الجرائد والمجلات من السباب والشتائم والاتهامات، واستدعاء السلطات على من كتب تقريرًا علميًا ينقد فيه مؤلفات بعض العلمانيين الذين ينادون بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، ولقد قامت الدنيا ولم تقعد إلى الآن بسبب هذا التقرير الذي انتصف فيه صاحبه لدينه ولوطنه.

وتمخض نشاط العلمانيين في نهاية القرن الماضي وأوائل هذا القرن عن مجموعة من المؤلفات التي مثلت المرجعية الفكرية للعلمانيين المعاصرين، فألف قاسم أمين كتابيه عن المرأة، "تحرير المرأة"، و "المرأة الجديدة"، وألف سلامة موسى كتابه: "ما هي النهضة".

وألف علي عبد الرازق كتابه "الإسلام وأصول الحكم" وألف طه حسين "مستقبل الثقافة في مصر"، وكتابه "في الشعر الجاهلي"، لكنه رجع عن آرائه في هذين الكتابين فيما بعد.

كما ألف كرومر المستشار الإنجليزي للاحتلال في مصر كتابه "مصر الحديثة"، وجسدت هذه المؤلفات وغيرها مطالب العلمانيين في الوطن العربي التي نوجزها فيما يلي:

١- أن يحذف من الدستور النص على أن الدين الرسمي للدولة هو الإسلام لتصبح دولة علمانية لا دينية، وأن يحذف من القوانين كل ما يتصل بالإسلام كعقيدة وشريعة.

٢- أن تنقى برامج التربية والتعليم من المواد الدينية، فيحذف من مناهجها كل ما يتعلق بالإسلام، والتربية الإسلامية، ليصبح التعليم علمانيًا لا دينيًا.

٣- ليس هناك شيء مقدس فوق النقد، ولابد أن تخضع النصوص الدينية (الكتاب والسنة) للنقد العقلي، فما قبله العقل منها يؤخذ به، وما لم يقبله العقل لا يعمل به.

٤- مساواة المرأة بالرجل في الإرث الشرعي، وفي حق القوامة على الرجل، والعصمة، وكما سمعنا في مؤتمر السكان سنة ١٩٩٢ م من تكوين الأسرة غير التقليدية، يعني المعاشرة الجنسية بدون رباط الزوجية، ولقد وقف

شيخ الأزهر جاد الحق على جاد الحق معلنا رفضه لقرارات هذا المـؤتمر كمـا رفضها كذلك أجهزة الدولة الرسمية.

والمؤلفات التي سبق ذكرها تجسد هذه المطالب وتعبر عن هذا المشروع في نواحيه الثقافية والاجتماعية والسياسية، ومـن الإنصـاف أن نشـير هنـا إلى أصحاب هذه المؤلفات قد رجع بعضهم عن آرائه في أواخر أيامه، لكن ما زال أثرها حيا في عقول تلامذقم، يحركهم، ويتغنون بما فيها على أن فيه الخلاص وبه النهوض، ولم يعلم أصحاب هذه الأصوات أن مؤلفي هذه الكتب التي يحتفلون بها قد رجعوا عن آرائهم فيها، بل إن بعضهم قد صرح بنقيض ما ذهب إليه في هذه المؤلفات.

واقتداء بالغرب، فكما أبعدتى السلطة الكنيسة عن الحياة وشئونها قـام في مصر من نادى بضرورة فصل الدين وإبعاده عن شئون الدولة، وألف علي عبد الرازق كتابه "الإسلام وأصول الحكم" استعار فيه آراء المستشـرقين، خاصـة القساوسة واليهود، حاول المؤلف جاهدًا أن يقول في هذا الكتاب: إن الإسلام دين لا دولة، وأن حديثه عن توحيد المؤمنين به إنما هو حديث عـن الوحـدة الدينية، وليس حديثًا عن الوحدة السياسية، وأن ولاية الرسول صلى الله عليـه وسلم على المسلمين، ولاية روحية فقط، أما ولاية الحاكم فهي ولايـة ماديـة، وأجهد المؤلف نفسه في تلمس الأدلة التي حاول أن يؤيد بها دعواه في الفصـل بين وظيفة الرسول صلى الله عليه وسلم ووظيفة الحاكم، ولم يحاول أن يقرأ قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴾ ولسنا في مجال الرد على هذا الرأي أو ذاك، وإنما نعرض فقط تاريخ الموقف العلماني وتسلسل الأحـداث وارتباطهـا، اللاحـق منـها بالسابق.

وقد شكلت لجنة من علماء الأزهر لتفنيد دعاوى هـذا المؤلـف والـرد عليها، لكن ما زالت الأصوات- حتى يومنا هذا تنادي بالدولة المدنية العلمانية وتنحية الإسلام عن شئون الحياة العملية، ولم يعملوا أن على عبد الـرازق قـد رجع عن رأيه ١٩٤٦م ، بعد أن تبين الحق له، وقال بأن الإجماع أصـل مـن أصول التشريع الإسلامي، وأن الإمامة ثابتة بإجماع الأمة.

٣-والتقت أهواء العلمانيين على تمجيد النموذج الغربي حضارة ومدنيـة، فكرًا وثقافة، علاقات اجتماعية، ونظام حياة ووضع سلامة موسى كتابه "ما هي النهضة " يطالب فيه المجتمع المصري إذا أراد أن ينهض كما نهضت أوربا فعليه أن يحذو حذوها في العادات والتقاليد، في المآكل والمشرب، في الفكر والثقافـة، في التخلص من الأديان، كما تخلصت أوروبا، ويصرح بأنه لا سـبيل لنـا إلى النهوض إلا بالتخلص من الغيبيات، وأن نجعل هذه الحياة الدنيا هـي الهـدف والغاية، يجب أن نعمل لها لا لغيرها، فليس وراءها ما يستحق أن نعمل لأجلـه، وأن الإيمان بأن هناك دارًا نعمل لها غير هذه الدار الدنيا محض خرافـة وغـين الجهل، ولم تتقدم أوربا إلا حين رفضت هـذه الخرافـات، ومحاربتـها لهـذه الجهالات، وكتاب سلامة موسى يقوم كله على أساس هاتين الفكرتين:

الأولى: أن تجعل الغرب قبلتنا في كل شيء، فنحذو حذوه، وكرر نفـس القضية طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" ولا زالت الدعوة مستمرة إلى وقتنا هذا.

الثانية : إنكار الأديان، والعمل من أجل الدنيا، إذ ليس وراءها شيء يجب أن نعمل له، والحديث عن اليوم الآخر هو حديث خرافة، ويترتب على هـذه النقطة الثانية ضرورة التخلص من كل فكر ديني، أو عقيدة تدعو إلى الإيمـان باليوم الآخر.

بدأت هذه الفكرة سافرة في كتابات سلامة موسى، وما زالت أصـداؤها تتردد حتى يومنا هذا في كتابات دعاة التنوير، والذي يتابع ما ينشر في صفحات الجرائد اليومية، واستعمال كلمات الجهل –الخرافية: الرجعية، ويتعرف على المقصود بهذه الكلمات يدرك تمامًا أن المسلسل ما زال مستمرًا، قد ينشط أحيانًا ويشتد عوده، وقد يخبو ويذبل أحيانًا أخرى، حسب الظروف السياسية والعلاقات الدولية وأثرها في ذلك.

وكان بين الأساليب التي سلكها أصحاب هذا الاتجاه في تمجيد الحضارة الغربية تهجين الحضارة الإسلامية، وتصوير الماضي كله على أنه تخلف وظلام وفساد وإفساد، وأن العودة إليه أو الدعوة إلى إحيائه بالإفادة منه هي – عندهم– عين التخلف والجهل، فإذا دعا داع إلى التمسك بالكتاب والسنة كمصدرين للتشريع اتهموه بالتخلف، ووصفوه بالجهل، وإذا نادى مناد بوحدة المسلمين، كما اتحدت دول العالم تحت مسميات مختلفة اتهموه بالتعصب والطائفية، وإذا قرئ عليهم ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ قالوا: إنها دعوة إلى الحياة الذاتية التي كان يعيشها إنسان الصحراء.

وكانت المرأة وعلاقتها بالرجل موضع اهتمام وبحث، ورددوا ما قاله المستشرقون الذين يقرأون القرآن بعين عوراء، فلا تبصر إلا ما يحلو لها بصره فقط، فأثاروا مشكلات لا أصل لها في ثقافتنا الإسلامية وظهرت مصطلحات غربية ليس للمسلمين عهد بها "مثل تحرير المرأة، وحقوق المرأة" "مساواة المرأة بالرجل"، ومن يقرأ هذه المصطلحات يخيل إليه لأول وهلة أن المرأة في الإسلام مسترقة، ضائعة حقوقها، يستلبها الرجل أموالها، وهذه كلها مشكلات وافدة علينا ليست وليدًا شرعيًا لديننا ولا ثقافتنا، ولكنهم هكذا أرادوا شغل المثقفين

عن مصير بلادهم والاشتغال عن عظائم الأمور التي تجـرى فيهـا بالانشـغال بالأمور التافهة التي يطول الجدل حولها، ويشتد الصراع في بؤرها، لتبقى النـار مشتعلة بين المسلمين فلا يبصرون من مشكلاتهم إلا هذه الأمور الزائفـة، أمـا المشكلات الحقيقة، التي تهتز لها الأوطان، وتنهض بها الأمم. فهـم في غيبوبـة عنها، لأنه لا يراد لهم أن ينشغلوا بها، والقرآن والسنة تفيض نصوصها بحقـوق كل من الرجل والمرأة قبل الآخر، وواجبات كل منهما نحو الآخر، بل كانـت نصوص القرآن والسنة في جانب المرأة أكثر من جانب الرجل، ويكفي ذلـك وصايا الرسول (ﷺ) بالمرأة في خطبة الوداع حين قـال: "استوصـوا بالنسـاء خيرًا"، وقال (ﷺ): "ما أكرمهن إلا كريم،وما أهانهن إلا لئيم"، ولا يجوز علميـا ولا منهجيا حمل أخطاء المسلمين على الإسلام فكم من المبادئ الراقية شـوهت معالمها على يد الأتباع عند التطبيق.



اتجاهات الإصلاح المعاصرة

أولاً: إصلاح خلل المسيرة

نحو قراءة جديدة لعلم الكلام

ارتبطت نشأة العلوم الإنسانية بظروفها التاريخية والاجتماعية التي يرجع بعضها إلى طبيعة الاحتكاك الثقافي بالحضارات المجاورة من فارسية وهندية أولاً ثم بالحضارة اليونانية فيما بعد.

لقد أدت الظروف التاريخية والاجتماعية التي عاشها المجتمع الإسلامي إلى نشأة مجموعة من العلوم التي قصد به خدمة النص القرآني والسنة النبوية المطهرة بطريق مباشر أو غير مباشر، ويمكن أن نميز في هذه المرحلة المبكرة بين مجموعتين من العلوم قصد بهما تحقيق هذا الهدف النبيل هما :

أ- علوم القرآن .

ب- علوم السنة، وتشتمل على مجموعتين .

تشتمل المجموعة الأولى على علوم التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وأحكام القرآن والحكمة والمتشابه وما يتصل بها من علم النحو واللغة والبيان ...إلخ .

كما تشتمل المجموعة الثانية على علوم الحديث من الجرح والتعديل ومصطلح الحديث وعلم الرجال، ومن يتأمل في ظروف النشأة التاريخية لكل من هذه الفنون يجد لها ظرفًا تاريخيًا ارتبطت به وكان سببًا مباشرًا للتفكير في هذا الفن أو ذاك .

وقد يؤكد لنا ذلك أن نشأة كل من هذه الفنون قد ارتبط باسم علم من أعلامه الكبار يمثل نقطة البدء في الاهتمام بالفن والاشتغال به، يأتي من بعده

أعلام فيسيرون على منواله يطورون المسيرة، ويضعون لها القواعد، والأسس النظرية التي تحولت فيما بعد إلى أصول وقواعد لتعلم هذا الفن وضبط مسائله، حدث ذلك في علم التفسير والحديث والنحو . وغير ذلك من العلوم الإسلامية.

ويأتي علم الكلام في مقدمة هذه العلوم، وربما كان أسبق في تاريخ نشأته من كثير منها، فيرتبط في نشأته بموقف تاريخي معين وظروف تاريخية عاشتها الأمة الإسلامية في النصف الأول من القرن الأول الهجري، وهذا كظرف يرتبط تاريخيًا بقصة الخروج على الخليفة الراشد علي بن أبي طالب من جانب ونشأة الخوارج من جانب آخر، حيث تأسس مذهبهم على قاعدة أن مرتكب الكبيرة كافر تنتفي عنه صفة الإيمان وأنه مخلد في النار، لا يدفن في مقابر المسلمين، لا يصلى عليه، ولا يتوارث. وجميع فروض علم الكلام يتفقون – فيما أعلم – على أن بحث هذه القضية في مجلس الحسن البصري (ت ١١٠هـ) كان سبب في تجلية موقف الخوارج في هذه المشكلة، وإظهاره لعامة المسلمين، كما تأسس في هذا الموقف أنصار رأي بالمترلة وقولهم بالمترلة بين المترلتين، واعتبروا أن مرتكب الكبيرة لا يصدق عليه اسم كافر؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله كما لا يصدق عليه حكم المؤمن ؛ لأنه ارتكب ما يوجب عليه خلوده في النار من وجهة نظرهم، وكان هذان الرأيان (رأي الخوارج والمعتزلة) في جانب، ورأي حسن البصري مثل أهل السنة والجماعة في جانب آخر حيث اعتبر مرتكب الكبيرة ملحدًا عاصيًا، إن تاب تقبل توبته وتسري عليه جميع أحكام المكلفين بالإسلام، هذه واقعة تاريخية ارتبط بها نشأة علم الكلام، شأنه في ذلك شأن جميع العلوم الإسلامية التي ارتبط كل منها بموقف معين نتج عنه الاهتمام بهذا العلم وتأسيس قواعده، هذا أمر نحسبه على درجة كافية من الوضوح، علم ذلك من علمه وجهل ذلك من جهله .

وإذا عدنا بذاكرتنا إلى تاريخ علم الكلام سوف نجد أن مسائله وقضاياه لم تنشأ كلها مرة واحدة، ومن يتتبع تاريخ القضايا الكلامية التي شكلت المادة العلمية لهذا الفن يعلم تمامًا أن كل مسألة من مسائله بدأ الحديث عنها بسبب يختلف عن المسائل الأخرى، فمثلاً : إن الحديث عن مسألة القضاء والقدر تختلف زمانًا وربما مكانًا، عن بداية الحديث عن مشكلة خلق القرآن ، وهذه تختلف عن بداية الحديث عن الجوهر والعرض والذات والصفات، وعلاقة الذات بالصفات ..إلخ، وهذا البعد التاريخي الذي ارتبطت به مسائل علم الكلام وقضاياه يفرض علينا العلم بتاريخية هذا الفن وأنه خضع في نشأته وتاريخه لظروف الاحتكاك الثقافي بين المسلمين، وأهل الأديان الأخرى، والتفاعل الحضاري مع الأمم والشعوب التي وصل إليها الإسلام، فكلما نبتت مشكلة تتصل بالعقيدة أو بركن من أركان الإسلام قام من علماء الأمة من يتولى الدفاع عنها وتوضيح الرأي بما أتيح له من دلائل العقول وما تيسر له من النصوص قرآنا وسنة .

وفي أواخر القرن الثامن وخلال القرنين الثالث والرابع، ونتيجة طبيعية لاحتكاك المسلمين بثقافة الفرس والهند واليونان حدث نوع من التلقيح الثقافي بين هذه الحضارات الجديدة والحضارة الإسلامية الناهضة وظهرت مصطلحات وآراء ومعتقدات لم يكن للمسلمين عهد بها من قبل فأضاف ذلك عبئًا جديدًا إلى مهمة علماء الكلام، والذي يتتبع مسائل هذه العلم ومفرداته ومصطلحاته يلحظ بوضوح البعد الزمني لظهور هذه المفردات، وتلك المصطلحات، وعلى سبيل المثال فإن مصطلح العرض والجوهر لا نجده في القرنين الأول والثاني، بينما نجد مصطلح القضاء والقدر، ومصطلح خلق القرآن لا نجده في القرن لأول بينما نجده في أواخر القرن الثاني وفي الثالث بوضوح .. وهكذا نجد أن

قضايا علم الكلام لم تكن واحدة في كل جيل بل كانت تتنوع وتختلف حسب زمانها وملابساتها التاريخية والاجتماعية، وكان من المفروض أن يتابع هذه العلم واقع المسلمين وقضاياهم ثم وجدنا هذا الفن يتوقف تمامًا في القرن الخامس الهجري عند الاشتغال بقضايا بعينها أضفى عليها المتكلمون شكل المصطلحات الفنية (إلهيات – نبوات – سمعيات)، وأخذت بحوث المشتغلين بهذا الفن تدور حول هذه القضايا الثلاثة في ضوء المذهب الذي ينتمي إليه فكريًّا ومنهجيًّا، فهذا معتزلي وذاك أشعري وثالث ماتريدي، ورابع سلفي، فضلاً عن المذهب السياسي بالتشيع أو الأخذ بمذهب الخوارج، وأخذ كل واحد من المنتمين لهذه المذاهب ينتصر لمذهبه بما شاء من أدلة وبراهين يدفع بها حجج خصمه أكثر مما يبين بها وجه الحق في مذهبه.

ولقد أشار الغزالي إلى ذلك في « المنقذ من الضلال » وانتهى إلى هذه الحقيقة : أن كل حزب بما لديهم فرحون، وأخذت الأجيال التالية تتوارث هذا العلم جيلاً بعد جيل (نفس القضايا – نفس المفردات والمصطلحات – نفس المنهج)، وهذا الموقف قد أضفى على علم الكلام وقضاياه لونًا من القداسة التاريخية بحيث إذا رمت إضافة جديدة أو التخلص من قديم بدا ذلك في نظر القضية خروجًا عن الاستقامة وابتداعًا في دين الله ما ليس فيه، ولو أنصفنا أنفسنا وأنصفنا مهمة علم الكلام لوجب علينا أن نفعل ما فعله المتكلمون الأوائل، الذي كانوا يتابعون أحداث عصرهم، وكلما جدت مشكلة تتصل بالعقيدة نهضوا لمعالجتها بالمنهج القرآني الذي يجمع في براهينه بين نور العقل ونور الشرع، ولم يتوقفوا أبدًا عند قضية بعينها ليجعلوا منها هم المسيحين الأول والوحيد كما هو شأن المشتغلين بعلم الكلام اليوم .

إن قراءة سريعة لما يدور في أروقة الدرس الأكاديمي لعلم الكلام اليوم تكشف عن هوة سحيقة بين واقع المسلمين اليوم ما يعج به من مشكلات دينية وثقافية وما يلقى على طلبة العلم من دروس دينية تتصل بعلم الكلام، هذا المعنى الذي كان يمثل خط الدفاع الأول والحصن ضد حملات التشكيك في الإسلام وعقائده والذي أصبح الآن أشبه بالمتحف الثقافي الذي يتعرف الطالب من خلاله على آراء وأقوال وحجج الأقدمين التي واجهوا بها حملات التشكيك والتي اعترضت سبيل الدعوة في عصرهم، فيدرس الطالب أصول المعتزلة ،من العدل والتوحيد والوعد والوعيد والمترلة بين المترلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتفريعات هذه المسائل وسلسلة الحوارات المتبادلة بين أوائل المعتزلة والمتأخرين منهم وبينهم جميعًا والأشاعرة ثم بين أتباع المدرسة الأشعرية ومن شايعهم في الرأي، وأصبح مقياس المستوى العملي للطالب مرتبطًا بمدى حفظه لآراء هذه المدرسة، أو تلك وكيفية إبطال هذه الحجة أو الانتصار لها ونسج على نفس المنوال شيوخ المذاهب المعاصرين لنا الآن في قاعات الدرس العلمي فلم يهتم المعلم بفتح أبواب التفكير أمام طلبة العلم ؛ ليكتشفوا حلولاً لمشكلات عصرنا الراهنة – وما أكثرها – وإنما عكفوا على التأليف والدرس والتمحيص لآراء الأقربين. وأصبح ذلك هو مجال التنافس بين المشتغلين بعلم الكلام أساتذة وطلابًا على السواء .

والواقع الذي عليه عصرنا يختلف ضرورة عن الواقع الذي عاشه القدماء والمشكلات التي نعيشها في واقعنا اليوم تختلف ضرورة عن المشكلات التي عاشها القدماء، والثقافات التي نتحاور معها الآن اختلفت كثيرًا عن الثقافات التي حاورها القدماء بالأمس .وكل هذا يتطلب من علماء الكلام المعاصرين أن يقوموا بمراجعة شاملة لعلم الكلام الذي كانت – ولازالت – مهمته الأساسية

تتمثل في الدفاع عن الملة الإسلامية ضد خصومها، والبرهنة على عقائدها بالأدلة البرهانية والتقنية على سواء .

إن قضايا علم الكلام ومفرداته ومسائله لم يتناولها القدماء إلا لأنها كانت تمثل مشكلات واقعية فرضت على المجتمع الإسلامي خلال احتكاكه بالحضارات المجاورة له . . فهي ليست مشكلة عقلية تجريدية مطلقة لا علاقة لها بالواقع – ولكنها كانت تمثل واقعًا ثقافيًا يعيش القدماء همومه في صباحهم ومسائهم، وفي مجالسهم العلمية، وعليك أن تراجع تاريخيًا مشكلات علم الكلام، وكيف ظهرت في البيئة الإسلامية ؛ لتعرف أن علم الكلام كان مرتبطًا بالواقع ومشكلاته الدينية والثقافية، ولم يكن رفها عقليًا: مشكلة القضاء والقدر، مشكلة الإقامة ، مشكلة خلق القرآن، مشكلة الذات والصفات، وما تفرع عن هذه المسائل الكبرى من جزئيات وتفريعات لم تكن منفصلة عن واقع المسلمين أبدًا، ولم يكن القصد من بحثها في نشأتها الأولى إلا الكشف عن الحلول القرآنية لهذه المشكلات، ولكن طرأ على المسيرة التاريخية لهذه الفرق كما أشرنا سابقًا تغير في المنهج والهدف أدى إلى تحول الحوار بين المتكلمين وخصومهم في الملة إلى حوار بين المتكلمين أنفسهم، تحول الحوار من حوار مع الخارج إلى حوار مع الداخل تمثل في الحوار بين أصحاب المذهب ومخالفيهم في المذهب وتطور هذا الحوار في لغته ومسائله ،فبعد أن كان حوارًا بين الداخل والخارج، بين علماء الكلام المسلمين وخصومهم من أهل الملل الأخرى، أصبح حوارًا بين الداخل والداخل، وبعد أن كان مصطلح الخصوم يراد به أهل الملل الأخرى أصبح يطلب على المخالفين من الداخل أصحاب المذاهب الأخرى، وتطور الحوار شيئا فشيئا إلى ما يشبه الصراع الداخلي بين الفرق الكلامية، ولم يعد محاورة الخصوم في الخارج هدفا ولا غاية بقدر ما أصبح الانتصار على الخصوم في الداخل هو

المقصد الأسمى لكل فريق، ولم يعدم تاريخ علم الكلام في هذه المسيرة التي انطلقت منذ نهاية القرن الثاني الهجري إلى الآن أن يستعين رجاله بالنفوذ السياسي ؛ ليحققوا بذلك نصرًا على مخالفيهم من الداخل بدلاً من أن يستعينوا به على الأعداء في الخارج، وأصبح الانتصار للمذهب هو المجال الأرحب الذي يتبارى في ساحته المتنافسون من علماء الكلام معتزلة أو أشاعرة على سواء، وتولد عن ذلك لون من التعصب الممقوت لدى أتباع كل مدرسة، وانعكس ذلك كله على جغرافية العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه .

فتستطيع بسهولة ويسر أن تعرف أن هذا القطر أو ذاك يدين بالمذهب المعتزلي أو الأشعري أو الماتريدي أو السلفي، ولا تعدم أن تجد بين هؤلاء وأولئك من يجد نفسه وحظه ووضعه الاجتماعي في الانتساء إلى مذهب معين، وتأليب أصحاب الكلمة والنفوذ على مخالفيه في الرأي والانتماء .

لعل مما يجب التنبيه عليه اليوم قبل غد خطورة الفرقة والتشتت الذي يعيشه العالم الإسلامي بسبب هذه العصبية المذهبية التي أورثها علم الكلام لأتباع المذاهب، وهذه الفرقة في صميمها تتناقض تمامًا مع أهداف علم الكلام؛ ومقاصده العليا من توحيد الكلمة، وتوحيد الصف أمام الأعداء، فهذا مطلب أساسي من مقاصد عقيدتنا . ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران : ١٠٣] .

الاعتصام بحبل الله في مواجهة مشاكل عصرنا نحن، بفكرنا نحن وعقولنا نحن، وليس بفكر القدماء ولا بعقلية القدماء، ولا بمناهج القدماء، إن مسائل القعيدة الإسلامية تتمتع باليسر والسهولة والقرب من الفطرة لا تحتاج في إثباتها إلى ما ورثناه في علم الكلام من تعريفات وتجزئيات التي تنأى بقارئها من منطلق الفطرة وسهولة المأخذ بل قد تثير أحيانًا من الشبهات والشكوك أكثر مما تدعو إلى اليقين والاعتقاد .

ومن هنا فإن علم الكلام الذي ندعو إليه الآن يتجاوز هذه الأصول الإيمانية من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر، فيتناول بالإضافة إليها الاهتمام بمقتضياتها ولوازمها من العمل والسلوك الاجتماعي ونظام الدولة في الإسلام، من المعلوم لدى الخاصة والعامة - في المجتمع الإسلامي أن هذه المسائل الأصول تمثل قواعد الإسلام، وأسس بنائه، ولم يعد هناك خلاف على أهمية هذه الأصول لدى المسلمين، لكن المشكلة التي تعيشها الأمة الإسلامية في عصرنا هذا تتمثل في تخلي الأمة وعدم اهتمامها بمقتضيات العقيدة الإيمانية من الالتزام بها والسلوك بمقتضاها والعمل على تحويلها، إلى واقع يعيش المسلم في ظله ويحتمي بحماه وينعم بالأمن والأمان في كنفه، نعم : المجتمع كله يؤمن بهذه الأصول، ويؤدي - في معظم الأحوال - الأركان والشعائر . لكن ليس هذا فقط هو الإسلام، بل هذه الجانب الغيبي الاعتقاد في الإسلام. لكن ما يخص الجانب السلوكي والاجتماعي من الإسلام قد تخلى عنه المجتمع وأصبح في حاجة إلى من يربطه ويصله بعقيدة المسلم ؛ لأن الجانب السلوكي العملي هو المظهر الوحيد للالتزام بالعقيدة أو صلاحها . لصحة الإيمان أو التطرق بخلل إليه، فليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العقل .

إن الاعتقاد النظري ما لم يتحول على يد أتباعه إلى سلوك وعمل فلا فائدة منه، ولا فائدة له في المجتمع ؛ ولذلك نجد القرآن الكريم لم يذكر الإيمان منفصلاً عن العمل الصالح أبدًا، وكان في كل موارده يذكر العلم قرينًا للإيمان ؛ لأنه عنوانه ومظهره وآيته الدالة عليه، ومن يوم أن تخلى المسلمون عن العمل بمقتضى العقيدة الإسلامية أو تحويلها إلى سلوك واقعي في حياتهم اليومية فقد تنازلوا عن أهم الخصوصيات التي تجعل منهم أمة وقوة تصنع التاريخ، ولا تعيش على هامشه، وآثروا أن يعيشوا تبعا بعد أن كانوا متبوعين .

إن الأمة الإسلامية في حاجة الآن إلى علم كلام جديد في أهدافه ومناهجه، يخاطب الداخل أولاً لكل يصل ما انقطع في مسيرته التاريخية، يخاطب الداخل لكي يبين له أهمية العلم بمقتضيات العقيدة ؛ ليصح له اعتقاده في الله ورسوله يخاطب الداخل بالحلول الإيمانية لمشكلات عصرنا التي نعانيها ونبحث لها عن حلول هنا وهناك دون أن نعرج على حلولها من قيمنا وبمقتضى عقيدتنا .

نحن في حاجة إلى علم كلام نخاطب به الداخل ؛ لنتبين أن الحرية في الإسلام فريضة تحتاج إلى من يدافع عنها ويبرهن على أنها فريضة دينية، وأن العبودية لله لا تتحقق إلا إذا تحرر العبد من عبودية العباد .

نحن في حاجة إلى علم كلام جديد يبين للداخل أن العدل أساس الحكم، وأن الخلل في انهيار الحضارة الإسلامية يرجع إلى الخلل الذي أصاب مبدأ العدل في نظام الحكم، نحن في حاجة إلى علم كلام جديد يخاطب الداخل بمبدأ المساواة، وأنه فريضة دينية كالعدل والحرية وبالثلاثة تستقيم أمور الممالك وتنتظم الحكومات، نحن في حاجة إلى علم كلام يخاطب الداخل أولاً، بأن مبادئ الاجتماع البشري المسلم ينبغي أن تؤسس على قيم الإسلام ومبادئه من الصدق والعفة والأمانة والوفاء، وأن هذه الأسس الأربعة ينبغي أن تكون أصولاً اجتماعية للكيان البشري الذي يقوم على المحبة والمودة والإخلاص، والتسامح، وأن هذه الأسس الأربعة ترتبط بصحة الاعتقاد ؛ لأنها علامة امتلاء القلب بصحيح الإيمان وآيته عليه ناهيك عن شعب الإيمان الأخرى التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم . في قوله الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها لا إله إلا الله . وأدناها إماطة الأذي عن الطريق، وأن شعب الإيمان كلها هي المظهر الخارجي لسلامة الاعتقاد، وصحيح الإيمان . فإذا ما صح لنا الحوار مع الداخل يكون الحوار مع الخارج أيسر وأسهل ؛ لأن أصول العقيدة الإسلامية في

بساطتها لا تحتاج إلى تكلف ولا شبه في الدفاع عنها، ويكفي للإقناع بها تجليتها للآخر بمنهج سليم يمثل أحد جناحي العلم الصحيح، ويمثل الجناح الآخر الثقل الصحيح، ويكون التطبيق العملي للسلوكيات الإسلامية مظهرًا للاقتناع بما يعتقد قدوة للآخر بالتزام المجتمع بما تمليه عليه عقيدته .

إن الذي نفلت النظر إليه هنا جزء لا يتجزأ من العقيدة ومقتضياتها، فإن الإيمان لم يذكر منفردًا عن العمل مطلقًا بل أقترن به العمل في كل موارده وآياته .

وسواء كان ارتباط العمل بالإيمان شرط كمال أم شرط صحة فإن الخلاف لا يقلل من أهمية الالتزام بالتطبيق لمقتضيات العقيدة واعتبارها جزءًا مكملاً للدرس العقيدي في قاعات المحاضرة، والكتاب المدرسي، ونحن لا نريد أن نعرض هنا لمشكلة تأخير العمل عن الإيمان وعلاقة ذلك، بالقول بالإرجاء أو عدم القول به لكننا على يقين أن إهمال هذه الجانب في دروس العقيدة قد أدى إلى نوع من الانفصام في الذهنية الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل، انفصام بين الإيمان والعمل، انفصام بين الاعتقاد والتطبيق، ومع طول العهد بذلك الانفصام نشأ في المجتمعات الإنسانية نوع من الاكتفاء بالاعتقاد النظري الذي يكتفى فيه المجتمع باعتقاد القلب ونطق اللسان، وإن أراد طلبًا لكمال إيمانه فلا بأس من مباشرة الطقوس والشعائر الدينية التي هي أركان الإسلام. من الصلاة والصيام والزكاة والحج، ووقر في ذهنية المجتمعات الإسلامية أن ذلك هو الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده دينا يجمع بين صلاح الدنيا وصلاح الآخرة، دينا يجمع بين عمارة الأرض بمنهج الله ونشدان الآخرة بعبادة الله. دينا يجعل من عمل الفلاح في حقله والعامل في مصنعه والعالم في محراب علمه والطالب في درسه يجعل ذلك كله عبادة لله وتعبدا له .

لقد غاب عن ذهنية المجتمعات الإسلامية أن الإسلام يجعل الدنيا مزرعة الآخرة، وأن صلاح دنياهم باب مدخل لصلاح أخراهم .

لقد نزلت أول آية في الذكر الحكيم لتأمر الرسول صلى الله عليه وسلم وتأمر الأمة من بعد بقراءة الكون وتصفح آياته المبثوثة في مفردات عالم الطبيعة من الإنسان والحيوان والنبات ليجعل منها المفكر والعالم زاده العقلي في مواجهة أي انحراف عقائدي يعتمد على شبهات العقل أو شكوكه جعل تصفح أفراد الموجودات واستجلاء ما فيها من عناصر الغائية والسببية والحكمة مداخل عقلية للوصول إلى إثبات الحقائق الدينية التي خاطبنا بها القرآن الكريم في شكل قضايا مطلقة وحقائق كلية لا تخضع للمشاهد الحسية ،ولكنها ثابتة بمنطق العقل واستقراء التجربة، وعليك أن تقرأ الآية الكريمة : ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق : ١] مرات ومرات وتسأل نفسك أين مفعول الفعل « اقرأ » لتعرف أنه المقروء هنا هو « الذي خلق» هو يكون بما فيه من آيات آفاقية وآيات نفسية، وإذا رجعت ببصرك وبصيرتك إلى الذكر الحكيم كله لتجمع مفردات هذه الآية « الذي خلق » سوف تعلم أن هذه المفردات قد طواها القرآن الكريم لجملة أحيانا ومفصلة أحيانا أخرى في آياته المكية ؛ ليجعل منها الزاد والدليل على إثبات مقاصد القرآن، وتحقيق أهدافه الكبرى من إثبات الحقائق الغيبية التي ربما ضل عنها العقل في متاهات المصطلحات الفنية التي ازدحمت بها مصنفات علم الكلام، وقد تجد في كثير من الأحيان أن مقاصد المتكلمين ونتائجهم قد عارضت مقاصد القرآن وأهدافه بسبب اهتمام المتأخرين بتحرير عبارات المتكلمين أكثر من اهتمامهم بتحرير مقاصد القرآن واستجلاء أهدافه .

إن منهج القرآن في الاستدلال بمعنى الحقائق الدينية يبدأ من عالم الشـهادة من استقراء الآيات الكونية، يبدأ من الواقع الذي يحيط بالإنسـان بـل مـن الإنسان نفسه، وليس من الفروض العقلية المجردة التي فرضتها العقلية اليونانيـة بمصطلحاتها ومفرداتها على تراث المتكلمين .

نعم قد يكون العذر واضحًا في اهتمام المتكلمين بهذه المصطلحات الفنيـة واستعمالهم لهذه المفردات . فقد يتحاورون مع نمط من العقليات المشبعة بهـذه الثقافة المستوردة، وكان مطلوبًا منهم أن يظهروا للخصم أنهم علـى مسـتوى التحدي فكرًا وثقافة، ولكن السؤال ما هو عذر الأجيال التالية في إصـرارهم على التمسك بنفس المصطلحات ونفس المفردات، وقد تغير الزمن، واختلفـت وتغيرت المشكلات، فالقضايا ليس هي هي ، وليس المخاطب هو هو، فلماذا لا تخاطب المحاور المعاصر بمفرداته ومصطلحاته، كما خاطب الأقدمون محـاورهم بمصطلحاته ومفرداته .

إن المحاور المعاصر يتسلح بالعلم الحديث، ومنهجه التجريبي، ولا شك أن العطاء العلمي لعصرنا قد كشف لنا عن أسرار مـن الكـون كـان يجهلـها الأقدمون، وهذا يفرض على عالم الكلام الجديد أن يتسلح بلغة العلم يتـدرب على منهجه ويحسن توظيف أدواته في الإقناع والبرهنة بادئا بما بدأ به القرآن . وهو النظر إلى عالم الشهادة .

يحسن من المسلم التعلم منه ويتقن العلم به، وهذا يتطلب منـه النظـر في علوم العصر والإفادة منـها – الفيزيـاء وقوانينـها – الكيميـاء والفلـك والجيولوجيا، التشريح، علوم النفس؛ لأن هذه العلوم في مجموعها قد كشـفت عن أسرار ودقائق تحدث عنها القرآن كثيرا، ولم يكن لنـا العلـم بهـا لـولا الاكتشافات العلمية، وهذا باب واسع يجب الإفادة منـه وتوظيفـه في مجـال

الدراسات الكلامية، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن مؤلفات أمثال زغلول النجار، ومن على شاكلته يجب أن تحتل مكانتها في الدراسات الكلامية ؛ لأنها تخاطب الإنسان المعاصر بلغته التي يفهمها ،ومن هنا فأنا ألفت النظر إلى ضرورة الإفادة من فكر هذا العالم، وأمثاله في الدرس الأكاديمي لعلم الكلام في الأزهر ودار العلوم، وهذا الأمر يحتاج إلى مزيد من التفصيلات والبسط في القول حتى تتضح الفكرة للقارئ قبل أن يبادر بالرفض والاعتراض شأننا في عدم تقبل كل جديد .

ومن الأمور التي يجب الاهتمام بها في الدرس الكلامي ما أشار إليه القرآن من الاعتبار بقوانين السببية على مستويين رئيسين :

المستوى الأول : السببية الطبيعية التي تحولت في كتابات الماديين إلى ما أسموه بالحتمية الطبيعية والحتمية التاريخية إعلانًا منهم برفض الإيمان بالمسبب الأول وإيمانًا منهم بفاعلية الأسباب بذاتها، إن هذه القضية على جانب كبير من الأهمية حيث تحتاج من المتخصصين في هذا الفن الى تجليتها وتوضيح الفروق بين الإيمان بها من منطلق القرآن والوحي، وأن ذلك قانون الله في كونه ، وأنه لا يتخلف أبدًا إلا لتقع المعجزة على يد النبي، لقد ترتب على رفض الماديين للإيمان بالمسبب رفضهم للإيمان بالغيب .

أما القضية الثانية فهو علم السنن وهذا يتطلب الوقوف على فاعلية السنن الإلهية في المجتمعات الإنسانية وانتظام أحوالها، وأن هذه السنن قائمة مقام قانون السببية في عالم الطبيعة، ومتى توافرت لها أسباب وقوعها فإنها لا تتخلف أبدا، فتلك سننه في الكون الطبيعي، وهذه سننه في الجتماع البشري، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

لقد غاب عن المسلمين أثر هذين القانونين في مسيرة الأمة وبسبب ذلك غاب الاهتمام بها في قاعات الدرس الأكاديمي في حين قد اهتم بهما الغرب

ودرسوها تحت ما يسمى بالحتمية التاريخية، فأفادوا من هذين القانونين وأعرض عنها المسلمون فلم يفسحوا لها مكانًا لا في الدرس الأكاديمي، ولا في البحث الديني مع أنها (علم السنن – قانون السببية) عمادا نهضة الأمة، أي أمة .

إن هذين القانونين (الغائية والسببية) ينبغي أن لا يفصل بينهما وبين الدرس العقائدي بسبب من الأسباب؛ لأن الإيمان بهما مظهر من مظاهر الاعتقاد بحكمة الخالق في خلقه وعنايته به. كما أن الإيمان بقانون السببية على مستوياتها الاجتماعية والكونية يثير ويوضح للعقل البشري قانون الله في كونه وسننه الماضية في تاريخ الوجود البشري، وكم قص القرآن علينا قصص السابقين لنعرف هذه السنن ونفيد منها في نهضتنا وانتظام حياتنا، ومن المهم هنا أن نطرح بعض التصورات المنهجية لتناول علم الكلام بمنهج جديد وقضايا جديدة.

وهذا لا يعني التقليل أو النيل من علم الكلام وتاريخه، وإنما هي محاولة أن نقتفي أثر السابقين من علمائنا، وأن نقتدي بهم فنعيش مشكلات عصرنا كما عاشوا مشكلات عصرهم، ونتناول المشكلات والشبهات التي تتعرض للإسلام وقداسة القرآن والسنة النبوية كما تعرضوا لها، وأن نفيد من معطيات العلم في عصرنا كما أفادوا من معطيات عصرهم، وألا نكتفي بترديد أقوالهم وقضاياهم التي عاشوها هم في عصرهم هم ،ولم يعد لها وجود في عصرنا، فليس ذلك يمثل وفاء لهم بقدر ما يمثل جمودًا وتحجرًا في مسيرة الأمة الذي حذرونا منه ونبهونا إلى خطورته .

ويتضمن هذا التصور أن نتناول دراسة العقيدة على مستويات متعددة ومتدرجة من الإجمال إلى التفصيل .

المستوى الأول : في مراحل التعليم الابتدائي :

ويمكن أن نطرح في هذه المرحلة قضية الإيمان بالله ورسوله وكتبه والملائكة واليوم الآخر، وأنه سبحانه خالق الكون والإنسان، وأمره بالعمل الصالح ليكون وسيلة لدخول الجنة، بأسلوب بسيط مدعوم بالآيات والأحاديث التي يحفظها الطفل في هذه السن .

وفي المرحلة الإعدادية : يتناول بعض قضايا الإلوهية :

دلائل وجود الله من القرآن الكريم، التوحيد ودلائله من القرآن الكريم .

في الثانوي : قضية النبوة :

الأنبياء: صفاتهم وكتبهم، ووحدة الدين الإسلامي، الوحي، المعجزة، صفة الحكمة، مظاهرها، الغائية، قانون السببية، وعلاقته بالسنن الإلهية في الكون الطبيعي، وفي انتظام أحوال المجتمع، لا بأس أن تدرس في هذه المرحلة علاقة العلوم الطبيعية (الفيزياء، الكيمياء، الفلك، الجيولوجيا، الطب) بقانون السببية من جانب، وأنها وسيلتنا لإعمار الأرض تنفيذًا للأمر الإلهي من جانب آخر، وأن ذلك جزء من عقيدتنا .

وفي الجامعة نتناول لمشكلات معاصرة التي تتصل بعقيدة المسلم ومقتضيات هذه العقيدة، من :

أ- مسئولية الإنسان وحريته .

ب- دور الراعي في إصلاح الرعية .

ج- الرد على الشبهات المثارة ضد الإسلام من أعدائه في الداخل والخارج، ومن المفيد أن نستلهم عطاء العلم الحديث في تناولنا لكل هذه القضايا حتى يشعر الدارس أنه ليس منفصلاً عن الواقع الذي يعيشه، وأنه يهتم

بما يملك من أدوات ووسائل متاحة في بناء المجتمع من خلال درسه العقيدة، ومما ينبغي أن نهتم به في ذلك الدرس الكلامي أن نربط بين العقيدة وسلامتها، ومقتضيات هذه العقيدة التي تتمثل في شعب الإيمان الكثيرة التي حدثنا عنها الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « الإيمان بضعة وسبعون شعبة، أعلاها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان» . إن هذا الربط بين العقيدة ومقتضياتها تخلق لدى المسلم إحساسًا قويًّا وشعورًا متدفقًا أن كل عمل يقوم به في حياته اليومية هو عبادة لله، وهو من صميم الإيمان ليستقر في ذهنية المجتمع كله أن الإسلام دين ودنيا، وليس عقيدة نظرية قاصرة على الاعتقاد والقلب دون سند لها من العمل والسلوك كما قال الله تعالى : ﴿ وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة : ١٠٩]، فجمعت الآية بين الإيمان والعمل واليوم الآخر ؛ لينتظم في ذهن المسلمين أن الإيمان بمستوياته الثلاثة (الاعتقاد القلبي والعمل السلوكي واليوم الآخر) لا ينفصل واحد منها عن الآخر، وهذا ما نود أن نغرسه في قلوب الناشئة منذ الصغر .

وسوف أشير هنا إلى بعض مظاهر الخلل في مسيرتنا التاريخية لعل المسئولين يجدون سبيلا إلى إصلاحها .

* * *

خلل في فقه الاعتقاد

(١)

من الأمور التي كان لها دور كبير في واقع الأمة الإسلامية هــذه الخلــل الخطير الذي أصاب الأمة في فهم عقيدتها، والوقوف بهذه العقيدة عنــد مجــرد ترديد الشهادتين وإقامة الشعائر الدينية دون ترجمة لهذه العقيدة ولا لمفرداتها إلى واقع يعشه المسلم في صباحه ومسائه، يحيا به المسلم سحابة نهاره وسواد ليلــه، وكيف اقتصر حظ المسلم من دينه على هذه الأمور النظرية والمظهرية معًا، دون أن تملأ هذه العقيدة على المسلم حياته كلها، فتشغل قلبه وتحرك جوارحه، تحت مظلة الاعتقاد الصحيح علمًا وعملاً، اعتقادًا وسلوكًا، على نحو ما كان عليــه المسلمون يوم أن سادوا نصف الكرة الأرضية في أقل من قرنين من الزمان. ولا تحسبن يا أخي أن نهضة الأمة وحضاراتها – أي أمة – سادت أو قامت دون أن يكون الدافع والمحرك لها في نفوس أبنائها وفي عتوهم عقيدة واعتقاد، إن هــذا الأمر لم تخل منه حضارة أي أمة على ظهر الأرض؛ مهما كان اعتقادها وعقيدتها صحيحة أو باطلة، مقبولة في العقل أو مرذولة فإن العقيدة ودروهــا في نهضــة الأمم سنة من سنن التاريخ، وعليك أن تدور بناظريك في الحضارة الإنســانية قديمها وحديثها، لا تجد أمة نهضت وقامت لها حضارة إلا كان الــدافع لــذلك والمحرك له اعتقاد أبنائها، وإياك أن تغتر بزخرف القول الذي يردده البعض عن الحضارة الأوربية أنها حضارة علمانية لا دين لها، ولا عقيدة، فإن ذلك من خلل الرأي الذي استقاه البعض من ظواهر شكلية تطفو علــى الســطح أحيانًــا في الكتابات والسلوك الأوربي، والواقع أن هذه الحضارة مسكونة بعقيدة تحركهــا على محاور متعددة ؛ لتحقق بذلك مقاصد وغايات تبنتها الحضــارة الأوربيــة قديمًا، ولا زالت تحركها إلى الآن، ولعل أبرز هذه المقاصد الأوربية :

١- التفوق والعنصرية الآرية الذي صرح به أفلاطون وأرسطو قديمًا، وصرح به رينان ووزير خارجية إيطاليا حديثًا .

٢- مركزية الحضارة الإنسانية الذي طفحت بالتعبير عنه كتابات المستشرقين .

٣- نفي الآخر، وعدم الاعتراف به .

وهذه الركائز الثلاث تتبناها السياسة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية، وجسدها في قالب العولمة الذي تروج له الآن، والحضارة الإسلامية ليست بدعًا في ذلك، فإن المحرك الأساس لبنائها ونهضتها كانت وستظل هي العقيدة الإسلامية باعتبارها العامل المحرك للمسلم ليعمل ويكد، وللعالم المسلم ليبحث ويكتشف، وللحاكم المسلم ليقيم العدل ويسوس بالحق، وللغني المسلم ليأخذ بيد الفقير والمسكين؛ لأن الكل يستظل بعقيدة تجعل منه خليفة الله في أرضه، رأمينا على كونه يعبده العالم في محراب العلم، كما يعبده الساجد في محراب الكعبة، ويوم أن فقه المسلمون عقيدتهم على هذا النحو سادوا الدنيا، وعمروها، سادوها بالعلم وعمروها بالعلم ،فهل لنا أن نفقه عقيدتنا على نحو عملي كما كان عليه الأولون دون الاكتفاء منها بالشكليات والمظهر .

* * *

(٢)

ومن مظاهر الخلل الذي أصاب مناهجنا التعليمية قضية الفصل بين القضايا العقدية وتطبيقها على مستوى الدرس والتعليم وعلى مستوى السلوك والعمل، مما ترتب على ذلك انفصال في ذهنية الدارس بين الاعتقاد والعمل، بين المبدأ والسلوك. إن هذا الفصل – مع اعترافنا بأنه مدرسي – قد خلق نوعًا من الانفصال، وإن شئت فقل الانفصام بين الاعتقاد والسلوك، بين الإيمان والعمل، بين المبدأ والتطبيق. وتحولت مسائل الاعتقاد إلى نوع من التطبيق القلبي الذي لا يمتد أثره إلى تحريك الجوارح ؛ لتعمل تطبيقًا لهذا الاعتقاد القلبي، وهذا بالتالي قد أدى إلى نوع جديد من الإرجاء الذي زحزح العمل والسلوك عن مكانته الطبيعية في ضرورة الارتباط والاقتران بالتصديق القلبي، هذا الارتباط الضروري الذي عبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : « ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل » فجعل عمل الجوارح علامة وآية دالة على صدق ما في القلب، ولعل ما نشاهده في حياة الناس وسلوكهم من الخلل الواقع في الاكتفاء من الإيمان بالشكل دون المضمون، وبالظواهر الشكلية دون الوصول إلى الجوهر يرجع في أساسه إلى الخلل المنهجي الذي دأبت عليه مناهجنا الدراسية والتعليمية في الفصل بين القضية العقيدية، وما يترتب عليها في السلوك والواقع .

ولقد تنبه إلى خطر هذه القضية الإمام أبو حامد الغزالي، وأشار في مقدمة كتابه إحياء علوم الدين إلى الخطر الذي يعاني منه الفرد المسلم، من الانفصال الواقع بين الاعتقاد والسلوك، وألف كتابه العظيم وسماه (إحياء علوم الدين) لينبه بذلك إلى أن عقيدة المسلم ما لم يحولها المرء إلى واقع وسلوك فهي عقيدة

ميتة لا تنتج أثرًا، ولا تنهض بالمجتمع؛ ولذلك جعل مقدمة كتابه بابًا مستقلاً عن قواعد العقائد أو أصول الدين ثم أخذ يشرح في ثنايا كتابه المفردات والمسائل الجزئية التي تتفرع وتبنى على هذه القواعد الكلية، وهذه المسائل الجزئية تشكل في مجموعها الدائرة الكبرى التي ينبغي أن يسير في فلكها المسلم لينفع بذلك نفسه كما ينفع مجتمعه، كما يظهر مدى حرص الإسلام على أن تكون حياة المسلم ذات هدف وغاية تستمد قيمتها من قيمة الإنسان نفسه باعتباره خليفة الله في كونه؛ لتتحول حياة المسلم إلى حركة وعمل دائب، وبالتالي يتحول المجتمع كله من حالة السكون والموات إلى حركة نابضة بالحياة، وما لم يتحول المجتمع المسلم من حالة السكون التي يعيشها ويحول عقيدته من مستوى الإيمان القلبي إلى سلوك وواقع، يعيش في ظله الفرد والمجتمع لن تنهض الأمة من كبوتها؛ لأن قانون النهضة مرتبط بالأخذ بالأسباب، وكفانا تمني بدون عمل .

* * *

خلل في المنهج والتوصيف

(٣)

لقد شغل الكثيرون من علماء الأمة بالتأليف في تصنيف العلوم وتوصيفها، فعل ذلك الفلاسفة الكبار أمثال الكندي والفارابي، وابن سينا، والخوارزمي وابن خلدون، وجاء توصيفهم للعلوم في معظمه على نحو يقسم العلوم إلى علوم شرعية وغير شرعية، أو علوم دينية ومدنية أو علوم الحكمة، أما العلوم الشرعية فتشمل العلوم التي تتصل بخدمة الكتاب والسنة وسماها البعض علوم الوسائل مثل: النحو والصرف وعلم اللغة والتفسير والعلم بأسباب النزول والمحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ وعلم القراءات، وكذلك ما أطلق مجموعة (علوم الحديث) مثل مصطلح الحديث وعلوم المتن والسند...إلخ: وعلم الفقه والأصول وعلم الكلام أو علم أصول الدين .

ويتضح من تاريخ نشأة هذه العلوم أنها كلها قد نشأت استجابة لحاجات دعت إليها الضرورة التي تمثلت في ظهور اللحن في قراءة القرآن، وظهور نوع من التفسير القرآني مخالفًا في بعض جوانبه ما أثر عن الرسول وصحابته، فهذه العلوم في جملتها نشأت في أحضان الكتاب والسنة ولخدمة النص القرآني تفسيرًا وتأويلاً وضبطًا لألفاظه – ومن هنا فضل المصنفون أن يطلقوا عليها (علوم الشريعة) في مقابل مجموعة العلوم المدنية، وترتب على هذا الوصف « شرعية » فهم خاطئ نشأ في أذهان المسلمين أن ما عدا هذه العلوم لا يوصف بأنه علم شرعي ولا يستحق هذا النسب الشريف. وبالتالي فإن الاشتغال بهذه العلوم المدنية يكون عملاً غير شرعي بل ربما نسبه البعض إلى البدعة، ومعلوم أن العلوم المرتبة حسب هذه التصنيف هي علم الفلك والطب والرياضة والهندسة والكيمياء والفيزياء ..إلخ، مجموعة العلوم الكونية التي نبغ

فيها علماء كبار في تاريخ الحضارة الإسلامية أمثال البيروني وابن الهيثم والخوارزمي وجابر بن حيان .. وغيرهم من رواد هذه المدرسة العلمية، وكان نصيب هذه الكوكبة من العلماء الغمز واللمز والنيل من عقائدهم؛ لأن بعض المشتغلين بالعلوم الشرعية وجدوا في مؤلفات هؤلاء أقوالاً وآراء لم يكن لهم علم بها، وليس لديهم من الكتاب والسنة دليل صحتها . وترتب على ذلك أن نشأ نوع من الزهد والعزوف عن الاشتغال بهذه العلوم حتى إن أبا حامد الغزالي (حجة الإسلام) يقول : كنت أدخل القرية أو المحلة فأجد فيها أربعين فقيهًا، ولا أجد بها إلى طبيبًا واحدًا من أهل الذمة، ولعل هذا كان بسبب التوصيف لهذه العلوم بأنها ليست مندرجة ضمن العلوم الشرعية. وهذا خطأ منهجي ينبغي أن يتدارك ويصحح؛ لأن العلوم الكونية جديرة بالوصف " الشرعي " مثل نظيراتها تمامًا، وأولى بالمشتغلين به أن يوصفوا بأنهم يمارسون عملاً شرعيًا دينيًا ندب إليه الشرع وأمر به، وقد جاء القرآن الكريم لينبه إلى أهمية وضرورة الاشتغال به فأمر به وجعل الرسول طلبه فريضة ؛ لأن العلم الكوني هو المدخل الطبيعي للتعرف على الله والتعرف على صفاته، وهو النافذة الوحيدة لتسخير الكون لمصالح الإنسان وتحقيق خلافة الإنسان على أرض الله، وهو المفتاح العلمي لتحقيق خشية الله : قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر : ٢٧-٢٨] أي بهذه العلوم السابقة في الآية الكريمة، فانظر كيف جعل القرآن هذه العلوم مدخلاً عمليًا لخشيته سبحانه في عبارة بلاغية قاصرة عن خشية الله على العباد بصنعته .

* * *

(٤)

تأسس علم الكلام الإسلامي للقيام بمهمة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ضد مخالفيها من منكري الأديان أو منكري النبوات، فأسس منهجه على أدلة العقل وبراهين المنطق في الدفاع عن صحيح العقيدة مستعينًا في ذلك بنصوص القرآن وصحيح السنة المطهرة، وقد أبلى المتكلمون في ذلك بلاء حسنًا، وقد أدوا دورهم التاريخي في الذب عن العقيدة الإسلامية ودحض الأباطيل والأوهام التي كان يرددها المخالفون، والذي يقرأ تاريخ هذا العلم الرائع يجد أنه كان يهتم بقضايا ومشكلات عقائدية أفرزتها طبيعة الاحتكاك الثقافي بين الحضارة الإسلامية وأصحاب الحضارات الأخرى والقضية معروفة لا داعي لتفصيل القول فيها .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري وجدنا مشكلات علم الكلام تظهر تلو الأخرى مثل مشكلة خلق القرآن، مشكلة حرية الإنسان، مشكلة الذات والصفات. وكلما ظهرت مشكلات عقائدية كان يتصدى لها علماء الأمة – رضي الله عنهم أجمعين – بالتحليل العقلي والتفنيد والشرح وبيان ما فيها من خطأ وتدليس ثم يوضحون الرأي الصواب الذي يؤيده العقل ويدل عليه الشرع بالحجة الواضحة والدليل المعقول، فأدوا رسالتهم كما فرضها عليهم دينهم . أما الأجيال التالية ونحن منهم، فقد توقفنا حيث وقفوا هم، وأخذنا نحلل ونفند ونشرح ونوضح المشكلات التي طرحت عليهم هم، والتي عاشوها في عصرهم، وأهملنا تمامًا المشكلات التي نعيشها نحن في عصرنا، والتي تحتاج منا أن نحللها، ونشرحها، ونتولى تفنيدها وبيان وجه الحق فيها، وأن نجعل ذلك جزءًا من مهامنا العلمية حتى ننهض بواقعنا كما نهضوا بواقعهم، بدلاً من أن نكتفي

باجترار آرائهم وتكرار أقوالهم، لا يظن أحد أنني بذلك أقلل من شأن علماء الكلام أو أقلل من جهدهم كما قد ظن ذلك بعض إخواننا، ولكنني أنعي على علماء عصرنا هذا السكون العقلي، وأنبه إلى وجوب أن نفعل كما فعل الأقدمون، وأن نعيش مشكلات واقعنا كما عاش علماء الأمس مشكلات واقعهم، وقاسوها بمقياس العقل والشرع معًا، فأخذوا منها وردوا عليها، وقبلوا من غيرها وأعطوا، فلماذا لم نفعل مثل ما فعلوا هم ؟ إن واقعنا المعاصر مزدحم بالمشكلات التي لها أثرها في عقول الناس، وفي سلوكهم، فلماذا لم نهتم بها، ونجعلها جزءًا من مفردات مناهجنا الدراسية ليتعلم الشباب من ذوي الاختصاص وجه الحق فيها، ولكي نصحح مفهومها عند الناس، خذ مثلاً بعض المشكلات التي طفحت على السطح الثقافي مثل القول بتاريخية الأديان، تاريخية القرآن، تاريخية الأحكام الشرعية، كالميراث مثلاً، فقه الجهاد، الغلو والتطرف ... الإنسان ومكانته، الحرية ...إلخ، هذه المشكلات تحتاج إلى بحث دقيق وتحليل ونقد وتقديم الرأي الديني العقيدي فيها، إن مشكلات علم الكلام القديمة قد ظهرت في ظروف تاريخية تشبه تمامًا واقعنا المعاصر، وغيرها ضمن برامجنا الدراسية ليتعرف الشباب على أصول المشكلات ومصادرها وظروفها الثقافية التي أفرزتها وكيف ولماذا وفدت إلينا وما هي الأهداف والمقاصد التي يبتغيها الغرب من طرح هذه المشكلات على العالم الإسلامي .

* * *

(٥)

من عوامل الخلل في مسيرتنا التاريخية أننا أغفلنا تمام عقيدة الأخذ بقانون السببية أو الاعتقاد بالسببية، على أنها دين وعقيدة وسنة من سنن الله في الكون، وأن القرآن الكريم قد نبّه إلى أهميتها وضرورة الإيمان بها على أنها نظام ثابت في الكون ونظام مطرد، ولا يتخلف أبدًا إلا لتحقيق مشيئة الخالق سبحانه وتعالى عند إظهار المعجزة على يد النبي تصديقًا له وتأييدًا لرسالته، ألا فليعلم المسلمون أن عصر الرسالات قد انتهى، وختم بإرسال نبينا ومعلمنا محمد صلى الله عليه وسلم. وليعلم المسلمون أيضًا أن عصر المعجزات قد انتهى بوفاته صلى الله عليه وسلم، ومن دلائل الإيمان به والتصديق برسالته أن نعتقد اعتقادًا جازمًا أن سنن الله ماضية ومطردة، لا تتخلف، وأن من طلب النهضة بغير الأخذ في أسبابها فقد طلب المستحيل؛ ولذلك أنبه هنا إلى أهمية الأخذ بالأسباب كمدخل ضروري للوصول إلى الغايات وتحصيل المقاصد، بل إنني أقترح أن تحتل عقيدة السببية مكانتها ومكانها في مناهجنا الدراسية كجزء أساسي من مفردات المنهج الدراسي حتى ينشأ الجيل، وهو مؤمن بهذه القضية كإيمانه بالله وبسننه المطردة، ومما نلفت النظر إليه أن عقيدة السببية ثابتة ومطردة في عالم الطبيعيات كما هي ثابتة ومطردة أيضًا في عالم الاجتماع البشري، ولا فرق في ذلك بين نتائج القانون في العالمين الطبيعي والبشري .

فإن ذلك يخضع لعقيدة السببية التي عبر عنها القرآن الكريم بالسنة والسنن، قال تعالى : ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران : ١٣٧] وللأسف الشديد فإن المسلمين قد أهملوا تمامًا الإيمان بعقيدة السببية، فلم يعتبروها في مسيرتهم

التاريخية، ولم يعتبروا بسنن الأولين كيف قامت الحضارات، ولمــاذا انــدثرت ؟ وكيف قامت الممالك، ولماذا انهارت ؟ لغيابهم عن الاعتقاد بأن سنة الله جارية لا تتخلف أبدًا، ومن المهم أن نشير هنا إلى أن عقيدة الأسباب محايــدة لا تعــرف المجاملة ولا المحاباة، فمن أخذ بأسباب النصر لا بد أن ينتصر حتى ولو كان غير مسلم، ومن أخذ بأسباب النهضة لا بد أن ينهض مهما كان دينه واعتقاده حقًّا أو باطلاً، صوابًا أو خطأ، ومن أهمل هذه العقيدة، فلم يأخذ بها لابد أن يجني ثمار هذا الإهمال تخلفًا وهزائم وهوانًا ومذلةً.

وأخيرًا فانظر بطرفك في الأمم الناهضة في عصرنا؛ لنتعلم كيف أخــذت بأسباب النهضة فنهضوا مع أن منهم من يعبد البقر – حــتى الآن –، ومنــهم من يعبد النار – حتى الآن –، ومنهم من لا دين له؛ لنعلم من ذلك أن عقيــدة السببية دين والتزام نبهنا إليها القرآن، وحــذر مــن إهمالهــا؛ فــإذا أردنــا النهضة فعلينا أن نبحث عن أسبابها النفسية والروحية والمادية ؛ لتستقيم مسيرة النهوض .

* * *

(٦)

مما لا ريب فيه أن واقع الأمة الإسلامية المعاصر يمثل منعطفًا تاريخيًا لم يحدث أن عاشته الأمة من قبل ؛ تفرقًا في الرأي والهدف، واختلافًا في الأهواء والانتماءات، وبالتالي تحزبًا وتعصبًا، إذ كل حزب بما لديهم فرحون، مما يسّر لعدوهم أن يلتهم أوطانهم بلدًا وراء الآخر، بعد أن حدد مواقف الأقطار الأخرى مستعملاً معهم سلاح الترغيب والترهيب، ولا شك أن هذا الواقع المؤلم قد طرح على عقول المفكرين أسئلة عديدة : كيف ولماذا وصل الأمر بالأمة الإسلامية إلى هذا الواقع المتردي، مع أنها تملك وسائل النهوض التي حرم منها كثير من البلاد الأخرى، إن الأمة الإسلامية تملك الأرض والماء، وتملك الثروة والطاقة، وتملك العقول وأصحاب الرأي، ومع ذلك ما زالت معظم البلاد الإسلامية تأكل مما يزرع غيرها، وتلبس مما ينسج غيرها، وتستعمل الآلات التي صنعها غيرها . فأين الخلل إذن، ولماذا وإلى متى سيظل العالم الإسلامي يحيا على هامش التاريخ بعد أن كان صانعًا له، ولعل من أهم الأسباب التي أوصلت الأمة إلى هذا الواقع المؤلم افتقاد الإنسان لإرادته وذاتيته، وخاصة أهل الرأي والفكر في كثير من البلاد الإسلامية، فإن إرادة النهضة لا يجسدها الواقع إلى عقول هؤلاء العلماء ولا يترجمها إلى حياة يعيشها الإنسان إلا فكر هؤلاء العلماء، وعلى يدهم يتم النهوض بالأمة ؟ .

وهنا يأتي السؤال التاريخي: هل هيأت الأمة الإسلامية لعلمائها ومفكريها البيئة النفسية والمناخ الفكري الصالح لكي يشغلوا بقضايا الأمة، عليك أن تدور بناظريك في موقف الأمم الناهضة من علمائها ومفكريها وقضايا البحث العلمي، وقارن ذلك بموقف الأقطار الإسلامية من علمائها ومفكريها لتجد

الإجابة على السؤال المطروح .. كيف ولماذا وصل واقع الأمة الإســلامية إلى هذا الوضع المتردي، وأظن أنه من غير المقبول هنا التذرع بالأوضاع الاقتصادية للدول الإسلامية؛ لأن من بين هذه الدول الإسلامية من يملك من الثروة مـــا لا نظير له في البلاد الناهضة، ولكن هم عرفوا كيف وأين تنفق الأموال وتســـتثمر الثروات، أما نحن فقد تاهت ثرواتنا في أضابير الثروات والأهواء الشخصـــية، ويقيني أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

* * *

(٧)

أعني بالاستبداد هنا المعنى الجامع لكل مظاهر الطغيان الذي يمارسه فئة من البشر نصبوا أنفسهم وكلاء عن الله في توزيع ثوابه وعقابه على من يريدون من الناس بدون ضوابط ولا معايير إلا التنفيس عن رغبة جامحة وهوى متبع، وليس البلاء في ذلك قاصرًا على نظام حكومي معين بل هو شائع في معظم المؤسسات الاجتماعية والحكومية في شتى بلاد المسلمين. ولقد عرف الكواكبي هذا النوع من الاستبداد بأنه « تصرف يقوم به فرد أو جماعة في حقوق قوم بالمشيئة، وبلا خوف تبعة »، أو هو تصرف الحكومة التي لا يوجد بينها وبين الأمة رابطة معينة معلومة مصونة بقانون.

وفشو ظاهرة الاستبداد في العالم الإسلامي قد أثر في نهضة الأمـــة تـــأثيرًا سلبيًّا، لقد قتل الهمة والإرادة والعزيمة في الإنسان، فالإنســـان حـــين يخالجـــه الإحساس بضياع حقوقه وامتهان كرامته ومحاصـــرة عقلـــه، وفكـــره ورأيـــه واستلابه حق التعبير والمشاركة في تدبير شئون وطنه، فإن ذلك كلـــه يـــنعكس على الأمة حيث ينسحب المفكر وصاحب الرأي من ساحة العمـــل الـــوطني، وقيادة الأمة، ليحتل مكانه صاحب الهوى، وذو الثقة، فيسند الأمر إلى غير أهله والويل كل الويل لأمة أسند الأمر فيه إلى غير أهله، عند ذلك تسود النزعات الفردية ويحل الظلم والطغيان محل العدل والمساواة، وهذا هو النذير العريان في خراب العمران وسقوط الدول .

قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُـــوا وَجَعَلْنَـــا لِمَهْلِكِهِـــم مَّوْعِدًا﴾ [الكهف : ٥٩]، وقال ســـبحانه: ﴿ وَاسْـــتَفْتَحُواْ وَخَـــابَ كُـــلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم : ١٥] ،﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص

: ٤٠] ،﴿ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴾ [إبراهيم : ١٣]، وهـذه إحدى سنن الله في إقامة الممالك وانهيارها، فإن الله يقيم الدولـة العادلـة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة، وإن كانت مؤمنة، فهذا قـانون عـام في انتظام الملك أو انهياره، ولا علاقة لهذه القانون الإلهي بدين أو ثقافة، فمتى وجد الظلم والاستبداد في أمة فانتظرت نهايتها المؤلمة، واعلم أن ذلك مؤذن بخـراب الدولة . يقول ابن خلدون(فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران) : « اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن مصيرها وغايتها انتهاؤها من أيـديهم، وإذا ذهبـت آمـالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك، وعلى قدر الاعتـداء على الرعية، يكون انقباض الرعايا عن السعي والاكتساب، وإذا أجبر المرء على العمل تحت سيف الظلم فإنه لا ينتج إلى مقتله للوقت والجهد » .

* * *

الهزيمة النفسية

(٨)

يعيش المسلم المعاصر حالة من الانهزامية النفسية يستشعر خلالها نوعًا من الإحساس بالدونية إذا ما قارن واقعه المعاصر بواقع الأمم الناهضة، وهذه الهزيمة النفسية تمثل هدفًا مقصودًا وغاية منشودة يسعى العدو إلى زرعها في المجتمع المسلم بصفة عامة، والأمة العربية بصفة خاصة، وقد يستعين على تحقيق هدفه الخبيث ببعض الأقلام التي تربى أصحابها على موائد الاستعمار ليكونوا وكلاء عنهم وسماسرة لترويج فكرهم الانهزامي بين شباب الأمة ،وقد يسعون إلى ربط هذه التخلف الذي يعيشه المسلمون بتراثهم ودينهم وقرآنهم، ويجعلون من الدين سببًا في إعاقة النهضة، كما قال، ويقول ذلك كثير من المستشرقين.
ولا شك أن الشعور بالدونية والإحساس النفسي بالانهزامية مرض خطير ينبغي اقتلاعه من بين صفوف الأمة ؛ لأن ذلك قد يؤدي إلى شيوع روح اليأس بين الشباب؛ فيقعدهم عن العمل والنهوض والانكفاء على الذات، وعدم المبادرة وقتل روح الابتكار والإبداع، وينبغي محاربة هذه الظاهرة والقضاء عليها بقراءة تاريخ الأمة ومعرفة النوازل التي مرت بها، وحاولت إعاقة حركتها وكيف حول المسلمون هذه النوازل إلى منطلقات لحركة الأمة لتواصل مسيرتها من جديد، وهذا يقتضي من المفكرين أن يعملوا على بث روح القوة والاعتزاز بالذات، ومعرفة أن للحضارات أعمارًا، وأن سنة التدافع ماضية بين البشر، وهي التي تحرك التاريخ وتصنعه، وتلك الأيام نداولها بين الناس، وإرادة الأمة للنهوض لابد لها من قوة دافعة، تحركها لتحقيق غايتها المقصودة، وهذا لا يتم إلا بالقضاء على هذه الروح الانهزامية والإحساس بالدونية، والأهم من ذلك أن يعي الجيل الدرس المستفاد، ويأخذ العبرة من الواقع، ولا يترك الأحداث تمر في غفلة منه

دون أن يتساءل عن الأسباب، إن عقدة الإحساس تمثل عاملاً خطيرًا يعوق إرادة النهضة ويقضي على روح المبادرة، فلا تنهض النفس للحركة، ولا يكون لها نزوع إلى العمل والتغيير، بل تكون أقرب إلى الخمول ومحبة الكسل، وتفضيل القعود على النهوض، ولقد حذر كثير من مؤرخي الحضارات من خطر هذه الظاهرة النفسية التي تنتاب الشعوب المهزومة، ما يترتب على ذلك من حدوث خلل واضطراب، في إرادة الأمة يترتب عليه محاولة الاكتفاء بتقليد المغلوب للغالب، واتخاذ المنتصر مثالاً وقدوة للمهزوم، وما بالك إذا كان الغالب في زماننا هو الذي يفرض علينا ضرورة تقليده ومتابعته حذو القذة بالقذة، إن تغيب إرادة الأمة للنهوض نتيجة هذه الإحساس بالدونية يشكل نذيرًا بفناء الأمة، وانمحاء شخصيتها وفقدان هويتها، وقتل خصوصيتها .

ومن أكبر مظاهر الإحساس بالهزيمة النفسية تفشي ظاهرة التقليد الأعمى لكل ما هو غربي، وعليك أن تسير في شوارع القاهرة، وتقرأ اللغة التي كتبت بها اللافتات على وجه المحلات التجارية، هل لغة الوطن أم لغة مستردة، ولاحظ ما يحاول البعض أن يتحلى به من استعمال اللغة الأجنبية في خطابه العام والخاص؛ إعجابًا بنفسه، وأنه من طبقة المستنيرين، أليس هذا من مثيرات الأسى والألم؟

* * *

(٩)

لقد نزل القرآن الكريم على العرب، وهم أمة أميَّة تعيش في جاهلية عمياء فأعاد صياغتها من جديد : نفسيًا وعقليًا ووجدانيًا، حتى كانت المعجزة الـتي أذهلت العالم حيث استطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يفـتح بهـذه القلـة القليلة في العدد والعدة بلاد الفرس والروم، وأن ينشر دعوة الإسـلام شـرقًا وغربًا؛ لأنه أحسن بناء الإنسان وأجاد تربية الأمة التي صاغها القرآن صـياغة جديدة فحملت حضارة القرآن إلى العالم كله ؛ لأنهم حين قرأوا القرآن وفقهوا مقاصده وغاياته تحولوا تلقائيًا من عصبية القبيلة إلى الشورى، ومن ظلم الجاهلية إلى عدل الإسلام، قال أبو عبد الرحمن السلمي : « كنا نتعلم العشر آيات مـن القرآن. ولا نتجاوزها حتى نعلم ما فيها من علم وعمل »، هكذا صار الواحـد منهم في سلوكه، وفي علاقاته قرآنًا يمشي على الأرض، ولقد جسدت السـيدة عائشة رضي الله عنها هذا المعنى التربوي النبيل حين سئلت عن الرسول صـلى الله عليه وسلم، فقالت : « كان خلقه القرآن »، فكان صلى الله عليه وسـلم يعيش بقلبه ووجدانه في جو قرآني ويحيا في سلوكه بقيم القرآن، فكـان عقلـه وقلبه مع الله وبالله، حين يقرأ تتحدث عن الله، ومع الكون في آياتـه البـاهرة وعقله في تدبر وتفكر حين يكون الحديث عن آيات الله الكونية وأسرارها، ومع دروس التاريخ وعبره حين يكون الحـديث عـن الأمـم الماضـية وتـاريخهم ومصائرهم، ومع الآخرة وأحوالها حين يكون الحديث عن يوم القيامة ومصـائر عباد الله فيها، فكان صلى الله عليه وسلم يعيش مقاصد الآيات وأهـدافها، ولا يكتفي بمجرد تلاوة اللسان التي قد لا تتجاوز الحناجر، وعلى هذا النحو مـن الفقه والتدبر والمعايشة كان موقف الرسول وصحابته من القرآن الكريم تـلاوة

وتأملاً ذكرًا وفكرًا، حتى تشربت قلوبهم معاني القرآن الكريم فصاغت الأمة كلها صياغة قرآنية .

وما نجده في واقعنا المعاصر يختلف تمامًا عما كان عليه جيل الصحابة والتابعين، حيث تحول اهتمام المسلمين بالقرآن إلى ممارسات شكلية وأعمال مظهرية ليس لها أثر في سلوك الفرد، ولا في تشكيل وجدان الأمة، لقد انصرف اهتمام المسلمين بقرآنهم إلى مجاهدات مضنية في التلاوة وضبط مخارج الحروف، بين حلقي وشفوي ولهوي، ومجاهدات مغننية في كيفية الغن والمد المتصل والمد المنفصل، وما إلى ذلك مما يتصل بالمحافظة على شكل الكلمات القرآنية متلوة على اللسان، أما محاولة الفهم والتأمل وتحويل معنى الآية إلى واقع يعيشه المسلم، فهذا قد انصرفت عنه جهود الأمة حتى حل بها ما هي فيه .

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٢٠١٣٧
دار الهانى للطباعة والنشر
٤٤٤٢٠٥٥